التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

السيرة النبوية

الجزء السابع

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
طبع • نشر • توزيع
الإسكندرية

دار الدعوة
طبع • نشر • توزيع
الإسكندرية

السيرة النبوية

٧

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

بين صلح الحديبية وفتح خيبر

١ – مواقف جهادية في خبر أبي بصير –

أخرج الإمام البخاري خبر أبي بصير في خبر الحديبية الطويل من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة ، فجاءه أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم[١] ، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا[٢] ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يافلان جيداً ، فاستلَّهُ الآخر فقال : أجل والله إنه لجيدٌ ، لقد جربتُ به ثم جربتُ به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فامكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآهُ : لقد رأى هذا ذُعراً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل والله صاحبي وإني لمقتول .

فجاء أبو بصير فقال : يانبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم . قال النبي ﷺ : ويلُ أمِّه مسْعَرَ حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردهُ إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر .

---

(١) هو عتبة بن أُسيد بن جارية كما في رواية ابن إسحاق .

(٢) في رواية ابن إسحاق « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولايصلح في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك ، قال : يارسول الله أتردُّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟ قال : يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .

قال وينفلت منهم أبو جندل بن سُهيل فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فو الله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها . فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاهُ فهو آمنٌ فأرسل النبي ﷺ إليهم(١) .

في هذا الخبر مواقف :

أولاً : نموذج عال للوفاء بالعهد والالتزام ببنود الصلح من رسول الله ﷺ ، وفي ذلك مراعاة للقواعد الأخلاقية العامة التي تترتب عليها مصلحة المجتمع الإسلامي والدعوة الإسلامية ، وذلك أمر مقدم على مراعاة المصالح الفردية التي يترتب عليها إنقاذ فرد أو أفراد من المسلمين ، فإن خيانة العهود وإن كان الدافع إليها تحقيق مصلحة لبعض المسلمين مما يثلم سمعة المسلمين الأخلاقية ، الأمر الذي يترتب عليه الصد عن دين الله تعالى ، بإحجام بعض الكفار عن الدخول فيه لهذا السبب ، فحرص النبي ﷺ على الوفاء للكفار بما عاهدهم عليه ، وردَّ أبا بصير ردا جميلا فتح له الأمل بما بشره به من قرب فرج الله تعالى وخروجه هو وأمثاله من الواقع السيء الذي هم فيه .

ثانيًا : اغتنام كل الفرص الممكنة لتسخيرها لصالح دعوة الإسلام ودولته ، فحينما رأى رسول الله ﷺ من أبي بصير شجاعة ودهاء دفَعَه ليكون هو وأمثاله مشعلاً لمعارك خاطفة تزعج الكفار وتجعلهم يتنازلون

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، رقم ٢٧٣٢ ، (٥/ ٣٣٢) .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه – سيرة ابن هشام / ٣/ ٤٢٦ – .

وأخرجه البيهقي بإسنادين من حديث الزهري – دلائل النبوة ٤/ ١٧٢ – .

بمحض اختيارهم عن شرطهم الجائر الذي يقضي بردِّ من خرج منهم وإن كان مسلما ، فقال لأبي بصير كلمته العظيمة ذات الأثر البالغ في حسم الموقف « ويل امِّه مسعَرَ حرب لو كان له أحد » .

وقد فهم أبو بصير التلويح حينما لم يكن النبي ﷺ قادرًا على التصريح لقيام الهدنة بينه وبين الكفار ، فاختار مكانًا صالحا لرصد تجارة قريش وانضم إليه كل من كان على شاكلته وأبرزهم أبو جندل بن سهيل ابن عمرو فأقضُّوا مضاجع المشركين وأفقدوهم هدفهم الأول من قبول الصلح وهو الحصول على طريق آمن لتجارتهم نحو الشام ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ منكِّسي رؤوسهم خاضعين يرجونه أن يؤوي كل من خرجوا إليه مسلمين ، وأعلنوا تنازلهم عن شرطهم الجائر .

وتحققت بشارة النبي ﷺ لأبي بصير وصحبه بأن الله تعالى سيجعل لهم فرجا ومخرجا .

وهكذا تبدو سياسة رسول الله ﷺ العملاقة إلى جانب سطحية التفكير السياسي لدى زعماء المشركين ، فقد كان ذلك الشرط الذي اشترطوه تعنُّتًا واستعلاءً وبالاً عليهم ، حيث سبب لهم حروب عصابات لم يحسبوا لها حسابا ، وظهرت نتائج الصلح الباهرة لصالح المسلمين ضد أعدائهم .

ثالثًا : كان أبو بصير عتبة بن أُسيْد رجل حرب من الدرجة الأولى ، ظهرت شجاعته ومهارته الحربية حينما تغلَّب على رجلين مسلحين وهو أعزل من السلاح ، ثم في استيعابه إشارة النبي ﷺ الحربية وتطبيقها أكمل تطبيق ، مع ما في ذلك من مغامرات تحتاج إلى قدر كبير من الجسارة والشجاعة .

وهكذا ترفَّع أبو بصير عن أن يبقى خاضعا ذليلا تحت الكفار حتى كَوَّن من جماعته عصابة قوية تتعامل مع المشركين معاملة النِّدِّ للند ، حتى اضطروا إلى الاستشفاع بالنبي ﷺ كي يؤوي أفراد تلك العصابة ليستفيدوا من الصلح الذي عقدوه مع المسلمين .

وهنا وقفة تدل على عظمة الإسلام وقوة تمسك معتنقيه به ، فلو أن هذه المصيبة التي حصلت لأبي بصير من رده إلى المشركين بعدما وصل دار المسلمين حصلت مع رجل من أهل الدنيا و قامت به حكومة من حكوماتها فماذا سيكون موقف هذا الرجل ؟ ! .

إنه سيكفر بمبادئ هذه الدولة وسيصفها بالعجز والضعف وسيتحول حالاً إلى عدوّ لها بعدما جاء محبًا ومناصراً لها .

لكن أُسَيْدًا زاد إيمانا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وتحول من جندي عادي في جيش المسلمين لوآوَوْه إلى قائد كتيبة أقضَّت مضاجع المشركين وأرغمتهم على تغيير سياستهم ، ثم ظل على الولاء الكامل لرسول الله ﷺ والمسلمين .

إنه الإيمان بهذا الدين العظيم إذا وقر في القلب لا تزيده المحن إلا رسوخا وتمحيصا .

إن الإيمان الصلب لاتؤثر عليه العواصف العاتية ، بل تزيده صلابة وقوة ، وتفجِّر في نفس صاحبه الطاقات الكامنة فينطلق بقوة نحو تعمير الحق وتدمير الباطل .

* * *

٢ - مغامرة جريئة وتضحية خالده -
(غزوة ذات القَرَد)

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ . . ثم ذكر شيئا من خبر الحديبية إلى أن قال : ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره (١) مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه . وخرجتُ معه بفرس طلحة . أُنَدِّيه مع الظَّهر(٢) . فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ . فاستاقهُ أجمع . وقتل راعيه .

قال فقلت : يارباحُ ! خُذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله . وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه . قال : ثم قمتُ على أكمة فاستقبلت المدينة . فناديت ثلاثًا : ياصباحاه! ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنبل . وأرتجزُ . أقولُ :

أنا ابن الأكوع ... واليوم يومُ الرُّضَّع (٣)

فألحقُ رجلاً منهم . فأصُكُّ سهمًا في رحله ، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه . قال قلت : خُذها

أنا ابن الأكوع ... واليوم يومُ الرُّضَّع

قال : فو الله ! ما زلت أرميهم وأعقرُ بهم (٤) . فإذا رجعَ إليَّ فارس

(١) الظهر الأبل .

(٢) أنديه أي أنتقل به بين الماء والمرعى مع الإبل .

(٣) جمع راضع وهو اللئيم ، وأصله الذي يرضع حليب أبله لكي لايسمع الناس حلبه ، والمعنى : اليوم هلاك هؤلاء اللئام .

(٤) أي أقتل خيلهم .

أتيتُ شجرةً فجلستُ في أصلها . ثم رميته . فعقرت به . حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه ، علوت الجبل ، فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة . قال : فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهري . وخلَّوا بيني وبينه . ثم اتبعتهم أرميهم . حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردةً وثلاثين رُمحًا . يستخفُّون . ولايطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا [(١)] من الحجارة . يعرفها رسولُ الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا مُتضايقًا من ثنية[(٢)] فإذا هم قد أتاهم فُلانُ بن بدر الفزاري ، فجلسوا يتضحون (يعني يتغدون) ، وجلست على رأس قرن[(٣)] .

قال الفزاري : ماهذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البرح . والله! ما فارقنا منذ غلس . يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقم إليه نفر منكم أربعةٌ ، قال : فصعد إلي منهم أربعةٌ في الجبل ، قال: فلما أمكنوني من الكلام قال قلتُ : هل تعرفوني؟قالوا : لا . ومن أنت ؟ قال قلتُ : أنا سلمة بن الأكوع والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته . ولايطلبني رجلٌ منكم فيدركني . قال أحدهم : أنا أظُنُّ . قال : فرجعوا .

فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . قال : فإذا أولهم الأخرمُ الأسدي . على إثره أبو قتادة

---

(١) الآرام هي الأعلام ، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة ليهتدي بها . واحدها إرم كعنب وأعناب .

(٢) الثنية العقبة والطريق في الجبل . أي حتى أتوا طريقا في الجبل ضيقة .

(٣) هو كل جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير .

الأنصاري . وعلى إثره المقدادُ بن الأسود الكنديُّ . قال : فأخذت بعنان الأخرم . قال : فولوا مدبرين . قلتُ : يا أخرمُ احذرهم . لايقتطعوك حتى يلحق رسولُ الله ﷺ وأصحابه . قال : ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلمُ أن الجنة حق والنار حقٌ ، فلاتحُل بيني وبين الشهادة . قال : فخليتهُ . فالتقى هو وعبدُ الرحمن [1] . قال : فعقر بعبد الرحمن فرسهُ . وطعنهُ عبد الرحمن فقتلهُ . وتحوَّل على فرسه ولحق أبو قتادة ، فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن . فطعنه فقتلهُ . فــو الذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجليَّ حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولاغبارهم شيئًا . حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماءٌ . يقالُ له ذا قرد . ليشربوا منه وهم عطاشٌ . قال : فنظروا إليَّ أعدُو وراءَهم . فحلَّيتهم عنه (يعني أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرةً .

قال : ويخرجون فيشتدون في ثنية . قال : فأعْدو فألحقُ رجلاً منهم . فأصكُّهُ بسهم في نُغْض[2] كتفه .. قال قلتُ : خذها وأنا ابن الأكوع . واليوم يومُ الرضع . قال : ياثكلته أمهُ ! أكوعه بُكرةَ[3] . قال قلت : نعم . ياعدو نفسه أكوعك بُكرة . قال : وأردَوا[4] فرسين على ثنية . قال : فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ . قال : ولحقني عامرٌ بسطيحة فيها مذقة من لبن[5] وسطيحة فيها ماء . فتوضأتُ وشربتُ

(١) يعني الفزاري قائد القوم المعتدين .

(٢) هو العظم الرقيق على طرق الكتف ، سمِّي بذلك لكثرة تحركه .

(٣) يعني أنت الأكوع الذي يلاحقنا من أول النهار .

(٤) أي أتعبوهما حتى سقطا .

(٥) السطيحة إناء من جلود ، والمذقة قليل من لبن ممزوج بماء .

ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم عنه . فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمح وبردة . وإذا بلال نحرَ ناقةً من الإبل الذي استنقذتُ من القوم . وإذا هُوَ يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها .

قال قلتُ : يارسول الله ! خلّني فأنتخبُ من القوم مائة رجل . فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبرٌ إلا قتلتهُ قال : فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذهُ في ضوء النار . فقال « ياسلمة ! أتُراك كنتَ فاعلا؟ » قلت : نعم . والذي أكرمك ! فقال « إنهمُ الآن ليُقْرَونَ [1] في أرض غطفان» قال : فجاء رجلٌ من غطفان . فقال : نحر لهم فلانٌ جزوراً . فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً . فقالوا : أتاكم القومُ . فخرجوا هاربين .

فلما أصبحنا قال رسولُ الله ﷺ « كان خير فُرساننا اليوم أبو قتادة . وخير رَجَّالتنا سلمة » قال : ثم أعطاني رسولُ الله ﷺ سهمين : سهم الفارس وسهم الراجل . فجمعهما لي جميعا . ثم أردفني رسولُ الله ﷺ وراءه على العضباء [2] . راجعين إلى المدينة .

قال : فبينما نحنُ نسير . قال : وكان رجلٌ من الأنصار لايُسبقُ شداً [3]، قال : فجعل يقولُ : ألا مُسابقٌ إلى المدينة ؟ هل من مُسابق؟ فجعل يُعيدُ ذلك . قال : فلما سمعتُ كلامهُ قلتُ : أما تُكْرِمُ كريمًا ، ولاتهابُ شريفًا ؟ قال : لا . إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ . قال قلت :

---

(١) أي يضافون .

(٢) العضباء هي ناقة النبي صلى الله عليه وسلم . والعضباء مشقوقة الأذن . ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ، وإنما هو لقب لزمها .

(٣) أي عَدْواً على الرجلين .

يارسول الله ! بأبي وأمي ! ذرني فلأسابق الرجل . قال « إن شئت » قال قلت : اذهب إليك . وثنيت رجلي فطفرت (١) فعدوت . قال : فربطت عليه شرفا أو شرفين أستبقى نَفَسي (٢) . ثم عدوت في إثره . فربطت عليه شرفا أو شرفين . ثم إني رفعتُ حتى ألحقه (٣) . قال : فأصكه بين كتفيه ، قال قلت : قد سُبِقْتَ والله ، قال : أنا أظن ، قال : فسبقته إلى المدينة (٤) .

هذه القصة الرائعة تعتبر مثالا حيا للحروب السريعة الخاطفة ، التي تعتمد على انتهاز الفُرص المناسبة وسرعة الحركة والمهارة الحربية ، فما هي المؤهلات التي أهَّلَت هذا البطل المغوار سَلَمَة بن الأكوع السُّلمي لتحقيق هذه النتائج السريعة المذهلة ؟ ! .

إذا عدنا إلى سياق القصة وواقع حياة الصحابة نجد أن هذا البطل يتَّصف أولاً بالإيمان القوي بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ومن أجل هذا الإيمان يبذل كل طاقته التي وهبها الله تعالى له ، فبينما نجد الأربعة الذين صعدوا إليه حتى قربوا منه ينحدرون سراعا منهزمين أمامه ، نجده يقف لهم صامدا ويهددهم ، ولاشك أن هؤلاء الأربعة من شجعان قومهم ، إذ أنه لايبرز عادة في مثل هذه المواطن إلا الشجعان ، ولكنهم لم يبذلوا

---

(١) أي وثبت وقفزت .

(٢) معنى ربطت حبست نفسي عن الجرى الشديد . والشرف ما أرتفع من الأرض . وقوله : أستبقى نفسي ، أي لئلا يقطعني البهر .

(٣) أي أسرعت وهذه التعليقات أكثرها مستفاد من هامش صحيح مسلم .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨٠٧ (ص ١٤٣٣ - ١٤٤٠) .
وأخرجه الإمام البخاري مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤١٩٤ (٧/ ٤٦٠) .

من طاقتهم إلا القليل ، لأن الذي من أجله يُقْدمون على القتال هو الحصول على المال والجاه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا الهدف ينعدم وجوده إذا قُتلوا ، فلماذا يبذلون كل طاقتهم والحال أن ذلك يعرضهم لخطر الموت ، فيفوِّت عليهم الهدف الذي من أجله خرجوا وقاتلوا ؟ .

أما الذين يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر فإنهم لايقاتلون من أجل الجاه والمال في هذه الحياة الدنيا ، ولكنهم يقاتلون لهدف أسمى وأجلّ ، يقاتلون ابتغاء مرضاة الله تعالى والسعادة الأخروية ، ولذلك رأينا هذا البطل يغامر بنفسه ويركب الأهوال ، لأنه يؤمِّل في الظفر بإحدى السعادتين : إما الفوز في الحياة الدنيا وفي ذلك إعزاز للإسلام وحماية للمسلمين ، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى موجهًا عباده المؤمنين ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٢] .

ونجد هذا الصحابي الجليل يتمتع ثانيا بالشجاعة النادرة فهو في هذه المعركة لايهاب الأعداء وإن كانوا سرية كاملة .

ونجده بعد ذلك يتمتع بتدريب عالي المستوي من الرياضة البدنية ، فهو يعدو سريعا للَّحاق بالعدو على قدميه طول النهار ، وفي أرض جبلية وعرة ، فأيُّ تدريب هذا الذي تلقاه هذا البطل ؟ !

ونجده يتمتع بالصبر وقوة الاحتمال فقد ظل يوما كاملا مصابراً

للعدو متتبعا له حتى ضاق به عدوه ذرعا فوقفوا لأخذ الراحة وتناول الطعام ، فوقف لهم بالمرصاد فوق الجبل حتى يحول بينهم وبين العودة إلى أخذ ما تخففوا منه من سلاحهم وما انتهبوه ، حتى قدم الصحابة رضي الله عنهم .

ونجده كذلك بارعا في المهارة الحربية ، وذلك في سرعة التنقل بين الظهور والاستخفاء حسب احتياجات المعركة .

ونجد أن مما ساعده على الظفر بأعدائه والمقدرة على إجلائهم أنه كان راميا ماهراً في الرماية ، فقلما أخطأ له سهم ، وذلك وفَّر أسْهُمَه للنكاية بأعدائه ، وحينما دخلوا في مضايق الجبل ووجد أن سهامه لاتصل إليهم استعمل سلاحًا آخر يثيرهم ويزعجهم حيث علاهم فوق الجبل وصار يقذفهم بالحجارة .

وأخيراً في مواقف سلمة بن الأكوع قيامه بمسابقة ذلك الرجل الأنصاري في عودتهم إلى المدينة ، وقد شرح في كلامه الطريقة المثلى في العدْو ، وفاز في المسابقة مع أنه كان يعدو يوما كاملاً ، فأيٌّ لياقة بدنية كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل !! .

وفي ثنايا هذا الخبر نجد موقفا للصحابي الجليل الأخرم الأسدي رضي الله عنه ، وذلك في قوله « ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحُلْ بيني وبين الشهادة » ثم إقدامه على قتال الأعداء حتى استشهد .

فهذا الصحابي الجليل الذي غامر بنفسه وضرب في نحر العدو وحده وهو يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن لايحول بينه وبين

الشهادة كان يتمتع بالشجاعة الفائقة والمغامرة الجريئة ، وإن كان مردود هذه المغامرة بالنسبة لحصول النصر غير متحقق بنسبة ظاهرة ، حيث كان في وضع مكشوف للأعداء ، بخلاف ما قام به سلمة بن الأكوع من الرماية عن بُعْد والاستخفاء حين اللزوم ، ولكن الغاية التي سعى إليها الأخرم هي طلب الشهادة في سبيل الله تعالى ، وقد لاح له موطن من مواطنها فأراد أن يسارع إليه ، وحصل له ما أراد رضي الله عنه .

ولكن هل يُحكم على عمله بأنه لاجدوى منه حيث لم يحقق نصراً للمسلمين في ذلك الموطن بينما حقق بعض النصر للأعداء ؟ أم يُحكم عليه بأن له جدوى كبيرة بالنظر لاعتبارات أخرى ؟ .

في الحقيقة أنه مع ما للشهادة من مقام كبير وفائدة عظيمة بالنسبة لصاحبها فإن الإقدام على المغامرة وإرخاص النفوس في سبيل الله تعالى عامل مهم من عوامل الدعوة إلى الإسلام ، إذ أن الأعداء يفهمون من هذا التسابق على الاستشهاد أن هناك مبدأ عظيما يهيمن على النفوس لايتوفر لدى غير المسلمين ، فيدفعهم ذلك إلى الدخول في الإسلام ، ولذلك ذكر الله سبحانه في معرض بيان الحكمة من وقوع الإصابة في جيش المسلمين يوم أحد ﴿ **وليتَّخذَ منكم شهداء** ﴾ - آل عمران/ ١٤٠- .

ولقد قام بطل الإسلام وفارس رسول الله ﷺ أبو قتادة رضي الله عنه - كما جاء في هذا الخبر - بإزالة آثار هذا الانتصار اليسير الذي حققه الأعداء حيث قتل زعيمهم عبد الرحمن الفزاري الذي قتل الأخرم الأسدي ، وهذا موقف في الشجاعة والتضحية يذكر لأبي قتادة .

وأخيراً فإن في هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر سلمة بن

الأكوع بأن القوم قد أضافهم رجل من غطفان ، فجاء رجل من غطفان فقال : نَحَرَ لهم فلان جزورا ، وهذا من الإخبار بالمغيبات .

* * *

مواقف وعبر
فى غزوة خيبر

١ - الخروج إلى خيبر وأخبار بعض الفقراء -

أخرج محمد بن عمر الواقدي أخبار غزوة خيبر بعدة أسانيد عن عدد من الشيوخ قالوا : قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية في ذي الحجة تمام سنة ست ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم ، وخرج في صفر سنة سبع إلى خيبر .

ثم ذكر خبر محاولة خروج المتخلفين عن الحديبية معه إلى أن ذكر بعض أخبار فقراء الصحابة وما حصل لهم من مشقة تأمين ما يلزمهم للخروج فقال : وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه ، فقال : أجِّلني فإني أرجو أن أقدَم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يُغنمه إياها . وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية ، فقال : يا أبا الشحْم ، إنا نخرُج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال . فقال أبو الشحم حسداً وبغيًا : تحسبُ أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوارة عشرةُ آلاف مُقاتل ! .

قال ابن أبي حدرد : أي عدو الله ! تُخوفنا بعدوّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا ؟ والله لأرفعنك إلى رسول الله ! فقلتُ : يارسول الله ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم . فأُسكتَ رسولُ الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئا ، إلا أني رأيتُ رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه ، فقال اليهودي : يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمني وحبسني بحقِّي وأخذ طعامي ! قال رسول الله ﷺ : أعطه حقه .

قال عبد الله : فخرجتُ فبعت أحد ثوبيّ بثلاثة دراهم ، وطلبتُ

بقية حقه فقضيته ، ولبستُ ثوبي الآخر ، وكانت عليَّ عمامةٌ فاستدفأت بهـا . وأعطاني سلمـة بن أسلم ثوبا آخـر ، فـخـرجت في ثوبين مع المسلمين، ونفلني اللهُ خيراً ، وغنمتُ امرأةً بينها وبين أبي الشحم قرابةٌ فبعتها منه بمال .

وجاء أبو عبس بن جبر فقال : يارسول الله ، ما عندنا نفقة ولا زاد ولاثوب أخرجُ فيه ، فأعطاه رسول الله ﷺ شُقَيقةً سُنبُلانيةً(١) ، فباعها بثمانية دراهم ، فابتاع تمراً بدرهمين لزاده وترك لأهله نفقةً درهمين ، وابتاع بُردةً بأربعة دراهم .

فَبَيْنَما رسول الله ﷺ في طريق خَيبر في ليلة مُقمرة إذْ أبصر برجل يسير أمامه ، عليه شيءٌ يبرق في القمر كأنه في الشمس وعليه بيضة ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا : فقيل : أبو عَبَس بن جَبْر . فقال رسول الله ﷺ : أدركُوه ! قال : فأدركوني فحبسوني ، وأخذني ماتقدم وماتأخر ، وظننت أنه قد نزل فيَّ أمرٌ من السماء ، فجعلت أتذكَّر ما فعلتُ حتى لحقني رسولُ الله ﷺ فقال : مالك تَقدُم الناسَ لاتسيرُ معهم؟ قلتُ : يارسول الله ، إن ناقتي نَجيبة .

قال : فأين الشُّقيقَة التي كسوتُك ؟ فقلت : بعتُها بثمانية دراهم ، فتزودت بدرهمين تمراً ، وتركتُ لأهلي نفقة درهمين ، واشتريتُ بردةً بأربعة دراهم . فضحك رسولُ الله ﷺ ثم قال : أنت والله ياأبا عبس

---

(١) الشقيقة : تصغير شقة وهي جنس من الثياب . وسنبلانية : أي سابغة الطول ، سنبل ثوبه إذا أسبله وجره من خلفه أو أمامه ، والنون زائدة ، ويحتمل أن يكون منسوبا إلى موضع . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٨٤ , ٢٣١) .

وأصحابك من الفقراء ! والذي نفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرنَّ زادُكم ، وليكثرنَّ ما تتركون لأهليكم ، ولتكثرنَّ دراهمُكم وعبيدُكم ، وما ذاك بخير لكم ! قال أبو عبس : فكان والله ما قال رسولُ الله ﷺ (١) .

فهذان الخبران وأمثالهما يدلان على شدة الفقر وانخفاض مستوى المعيشة عند الصحابة رضي الله عنهم ، ومع ذلك استطاعوا أن يقاوموا أحزاب العرب وأن يغزو البلاد المنيعة كخيبر .

إن الفقير الذي تتجاذ به هموم سداد الديون وتأمين المعيشة الضرورية له ولأهله لايُنتظر منه عادة أن يُسهم في أمور الجهاد والإصلاح بطاقة عالية ، لأن أغلب طاقته مصروف لهمومه الخاصة ، ولكن حينما يكون الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر قويا واليقين راسخا يتضاءل مفعول هموم الدنيا على النفس ، ويكون الذي يفرض نفسه على الإنسان هو مبدؤه السامي الذي آمن به إيمانا صادقا قويا ، فيأتي بالعجائب في خدمة هذا المجال وإن كان محمَّلا بالأعباء والأثقال .

وفي الخبر الأخير عبرة في إخبار النبي ﷺ عما سيكون في المستقبل من انفتاح الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم ، وقد كان ذلك حينما فتحت بلاد الفرس وبعض ممالك الروم ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ .

وفي إخبار النبي ﷺ بخيرية أمته في حال فقرها إشارة إلى أهمية لزوم حياة الزهد والاقتصاد في المعيشة ، وصرف الأموال الفائضة في

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤ - ٦٣٦)

عمران بلاد الإسلام وتقوية الجيوش الإسلامية ، وهذا هو الذي سار عليه الخلفاء الراشدون وخاصة أبا بكر وعمر رضي الله عنهم .

* * *

٢ – مثل من اللجوء إلى الله تعالى وتعظيم شعائر الإسلام – (الوصول إلى خيبر)

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي ، عن أبيه ، عن أبي مُتعِّب بن عمرو : أنّ رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه ، وأنا فيهم : قفُوا ، ثم قال : اللهمّ ربّ السموات وما أظْللن ، وربّ الأرضين وما أقللْن ، وربّ الشّياطين وما أضللْن ، وربّ الرّياح وما أذْرين ، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخيرَ ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، اقدُموا بسم الله . قال . وكان يقولُها عليه السلام لكلّ قرية دَخلها[١] .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغرْ عليهم حتى يُصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإن لم يسمع أذانا أغار . فنزلنا خيبر ليلا ، فبات رسول الله ﷺ ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركبنا معه ، فركبتُ خلف أبي طلحة ، وإن قَدَمي لتمس قَدَمَ رسول الله ﷺ ، واستقبلنا عُمَّال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش ، قالوا : محمد والخميس[٢] معه ! فأدبرُوا هُرَّابا ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذَرين[٣] .

---

(١) وأخرج الحاكم هذا الدعاء وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ١٠٠ – .

(٢) يعني الجيش .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٦ – ٤٣٧ ، وأخرجه الأئمة البخاري ومسلم وأحمد مختصرا =

فالرسول ﷺ مع ربه جل وعلا بيقينه ودعائه وتوكله ، وهو يعلم أن الخلق جميعا أمرهم بيده جل وعلا ، فيسأل ربه بتضرع ويقين أن يمنحه وأصحابه خير تلك القرية وخير أهلها وخير ما فيها وأن يقيه من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، وإذا حاز العبد على حفظ الله تعالى فلن تستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تصل إليه بسوء ولا أن تمنعه من خير .

وفي اعتبار النبي ﷺ الصلاة علامة على الإسلام تعظيم للصلاة وبيان لمنزلتها من الدين ، وفي هذا بيان لأهمية صلاة الجماعة بالذات حيث إن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة ونداء للاجتماع في المساجد بقول المؤذن « حيَّ على الصلاة » أي أقبلوا أيها المسلمون إلى الصلاة في المسجد .

وفي قوله ﷺ « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » إظهار لعزة المسلمين وقوتهم ورفع لمعنويتهم .

* * *

=صحيح البخاري ، رقم ٤٢١٠ ، المغازي ، صحيح مسلم رقم ٢٤٠٦ ، فضائل الصحابة ، مسند أحمد ٥/ ٣٣٣ ، وذكره الهيثمي عن أحمد في روايتين قال عن أحدهما : ورجاله ثقات وقال عن الأخرى : ورجاله رجال الصحيح - ٦/ ١٥٠-١٥١ - .

٣ – مثل من حصانة الصحابة في الحروب النفسية – (إرجاف اليهود بالمسلمين)

قال الواقدي فيما يروى عن شيوخه : وكانت يهود خيبر لايظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمَنعتهم وحُصونهم وسلاحهم وعَدَدهم ، كانوا يُخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا؟ هيهات ! هيهات! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات في ذُرى الجبال، والماءُ فيها واتن[1] ، إن بخَيبر لألفَ دارع ، ماكانت أسدٌ وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ ، فيقول أصحابُ النبي ﷺ : قد وعدها الله نبيه أن يُغَنِّمه إياها .

فخرج رسول الله ﷺ إليهم ، فعَمَّى الله عليهم مخرجه إلا بالظن حتى نزل رسولُ الله ﷺ بساحاتهم ليلاً[2] .

هذا الإرجاف القوي من اليهود يمكن أن يزلزل أعداءهم وأن يصرفهم تماما عن التفكير بغزو أهل خيبر لو كان أعداء اليهود من غير المسلمين الصادقين .

فالمسلمون يخرجون من المدينة بألف وأربعمائة مقاتل ليواجهوا عشرة آلاف في بلدهم وحصونهم المنيعة المليئة بالسلاح والطعام المؤمَّنة

---

(١) أي جار تحت حصونهم .

(٢)مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٧

بالماء الجاري من تحت الأرض ، لاشك أن المسلمين لو تصور حالهم المتأمل الخبير بالحروب وهم مُجَرَّدون من العقيدة سَيَحْكُم عليهم بالفشل وسيحكم على خروجهم بأنه مغامرة مهلكة .

لكن المسلمين قد اعتقدوا أن النصر لهم لأن الله تعالى وعد نبيه ﷺ أن يُغَنِّمه خيبر ، وما دام الله جل وعلا قد وعد بذلك فلايمكن أن يتخلف وعده ، ونظرا لقوة إيمان المسلمين فإنهم قد ألغوا جميع الاحتمالات السيئة ، ونصبوا أمامهم وعد الله تعالى الذي لا يتخلف فأقدموا على تلك المغامرة .

* * *

٤ - موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر -

قال الواقدي : بعث رسول الله ﷺ عَبّاد بن بشر في فوارسَ طليعةً، فأخذ عينًا لليهود من أشجع فقال : من أنت ؟ قال : باغ أبتغي أبعرةً ضلَّتْ لي ، أنا على أثرها . قال له عباد : ألك علم بخيبر ؟ قال : عهدي بها حديث ، فيم تسألني عنه ؟ قال : عن اليهود . قال : نعم ، كان كنانة ابن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حُلفائهم من غطفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً ، فجاءُوا مُعدِّين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عُتبة بن بدر ، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحُصون التي لاتُرام ، وسلاحٌ وطعامٌ كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم ، وماءٌ واتنٌ يشربون في حُصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة . فرفع عباد بن بشر السوط . فضربه ضربات وقال: ما أنت إلا عين لهم ، اصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: أفتؤَمِّني على أن أصدقك ؟ قال عباد : نعم .

فقال الأعرابي : القوم مرعوبون منكم خائفون وَجِلُون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلَّتكم وقلة خيلكم وسلاحكم . ويقولون له : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قومًا يُحسنون القتال ! وقُريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لما يعلمون من مَوادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ! وقد تتابعت قُريش وغيرهم ممن يهوي هوى محمد ، تقول قريش : إن خيبر تظهر ! ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر ! قال الأعرابي : وأنا أسمع كل هذا ، فقال لي

كنانة : اذهب معترضًا للطريق فإنهم لايستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادنُ منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألْق إليهم كثرةَ عددنا ومادَّتنا فإنهم لن يَدَعوا سؤالك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم .

فأتى به عباد النبي ﷺ فأخبره الخبر ، فقال عمر بن الخطاب : اضرب عنقه . قال عباد: جعلت له الأمان . فقال رسول الله ﷺ : أمسكه معك ياعباد ! فأوثق رباطًا . فلما دخل رسول الله خيبر عرض عليه الإسلام وقال رسول الله ﷺ : إني داعيك ثلاثًا ، فإن لم تسلم لم يخرج الحبلُ عن عنقك إلا صَعَدًا ! فأسلم الأعرابي (١) .

وهكذا استطاع عباد بن بشر رضي الله عنه بحزمه وخبرته الحربية أن يستخرج المعلومات الصحيحة من ذلك الجاسوس ، فتبين أن هذه المعلومات ضد المعلومات التي تم تزويده بها من قبل اليهود ، فقد أرادوا تحطيم معنوية المسلمين بالإرجاف ، لكن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم حيث نطق ذلك الجاسوس بالحقيقة فوصف ماهم فيه من الخوف الشديد والهلع البالغ .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٠ - ٦٤١

٥ – بدء القتال وفتح حصن النَّطاة –

ذكر الواقدي في سياق روايته أن النبي ﷺ لما وصل إلى خيبر نزل قريبا من حصن النطاة ، وأن المسلمين قاتلوا اليهود يومهم ذلك بالنبال .

ثم ذكر أن النبي ﷺ انتقل بعيدا عن الحصن ونزل في مكان يسمى الرجيع ليكون أكثر أمانا للمسلمين ، قال : فلما أمسى رسولُ الله ﷺ تحول إلى الرجيع وخاف على أصحابه البيات . فضرب عسكره هناك وبات فيه ، وكان مُقامه بالرَّجيع سبعة أيام . يغدو كل يوم بالمعلمين على راياتهم متسلحين ويترك العسكر بالرجيع ، ويستخلف عليه عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويقاتل أهل النطاة يومه إلى الليل ، ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع . وكان قاتل أول يوم من أسفل النطاة ، ثم عاد بعدُ فقاتلهم من أعلاها حتى فتح الله عليه . وكان من جُرح من المسلمين حُمل إلى المعسكر فدُووي ، وإن كان به انطلاق انطلق إلى معسكر النبي ﷺ . وكان أول يوم قاتلوا فيه جُرح من المسلمين خمسون رجلاً من نبلهم(١) .

هذا النوع من القتال يبين لنا عظمة المسلمين حيث يقاتلون وهم في العراء قوما قد تحصنوا بحصنهم فنبالهم أعلى من نبال المسلمين ، وهم متسترون بحصنهم والمسلمون لايسترهم شيء ، ومع فُشُوِّ الجراح بالمسلمين من نبال العدو فإنهم استمروا في الحصار والقتال حتى فتح الله تعالى لهم ذلك الحصن ، وهو مثل على صبر المسلمين وقوتهم في مصابرة أعدائهم .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٥ – ٦٤٦

٦ – إسلام يسار الحبشي –

قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأسود الراعي – فيما بلغني – أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حُصون خيبر ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً لرجل من يهود ، فقال : يارسول الله ، اعرض علي الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم – وكان رسولُ الله ﷺ لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ، ويعرضه عليه – فلما أسلم قال يارسول الله ، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلى ربها – أو كما قال – فقام الأسود ، فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها في وجوهها ، وقال ارجعي إلى صاحبك ، فو الله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة ، كأن سائقًا يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليُقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قط ، فأُتيَ به رسول الله ﷺ ، فوُضع خلفه ، وسُجِّي بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يارسول الله، لمَ أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين .

قال ابن إسحاق : وأخبرني عبد الله بن أبي نجيح أنه ذُكر له : أن الشهيد إذا ما أصيب تدلَّت له زوجتاه من الحور العين ، تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : تَرَّبَ الله وجه من تربك ، وقتل من قتلك(١) .

وهكذا أبصر نور الهداية عبد مملوك بينما حُجبَتْ عن علماء أهل

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٥٩ – ٤٦٠

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه وذكر أن اسم الراعي « يسار الحبشي » – مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٩

الكتاب ، فالهداية نور ، والنور لايَحُلّ إلا في قلب صحيح سليم من الهوى المنحرف والحسد والغل ، أما القلب المريض فإنه محجوب عن ذلك النور وإن كان الفكر في غاية الفهم والعلم .

ولقد كان إيمان يسار الحبشي قويا صادقا دفعه إلى الجهاد حتى نال الشهادة في سبيل الله تعالى ، ولقد رأى رسول الله ﷺ زوجتيه من الحور العين مما يدل على صدق إيمانه .

وفي هذا الخبر دلالة على أمانة الصحابة رضي الله عنهم ، فحينما اتجه إليهم يسار بغنمه لم يعرض لها أحد منهم ، لا في حال إقباله ولا في حال دفعه بالغنم إلى الحصن .

* * *

٧ - فتح حصن ناعم وموقف لعلي بن أبي طالب -

أخرج الإمام البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ الله ورسوله ويحبه اللهُ ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون (١) ليلتهم : أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين عليٌّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يارسول الله يشتكي عينيه . قال فأرسلوا إليه فأتيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . فقال علي : يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال : انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النعم (٢) .

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وذكر نحوه (٣)، وفي رواية له أخرى من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في حديث طويل جاء في آخره خبر خيبر وفيه « ثم أرسلني - يعني رسول الله ﷺ - إلى عليّ وهو أرمد ، فقال : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، قال : فأتيت عليا فجئت به أقوده وهو أرمد ، حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ ، وأعطاه الراية ، وخرج مرحب فقال :

(١) يدوكون أي اختلط عليهم الأمر فصاروا يخوضون في الحديث عن صاحب الراية .

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٢١٠(٧/ ٤٧٦)

(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٤٠٦، (ص ١٨٧٢).

قـد عـلمت خيبر أني مَرْحب　　شـاكي السـلاح بطل مجرَّب
إذا الحـروب أقـبلت تلـهَّب

فقال علي :

أنـا الذي سَمَّتْني أمـي حَيـدرة[1]　　كَلَيث غـابات كريه المَنْظَرَةْ
أُوفيهُمُ بالصاع كيْلَ السندَرَة [2]

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه [3] .

فهذا الخبر يشهد لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفضل الكبير ، وذلك من جهة شهادة النبي ﷺ له بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسولهُ ، وهذا شرف كبير لعلي رضي الله عنه ، مما جعل كل واحد من الصحابة يرجو أن يكون صاحب هذا الشرف العالي ، وذلك لقوة شعورهم بالهدف الأعلى للإسلام وهو بلوغ رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

كما أن في هذا الخبر فضلا كبيرا من جهة ما امتاز به علي رضي الله عنه من الشجاعة النادرة والتمتع باقتحام الأهوال ، فقد كان مرحب اليهودي أشجع اليهود وكان يخيف مبارزيه ، ولكن عليا لم يبال به

(١) الحيدرة اسم للأسد، أي أنا الأسد في شجاعته وقوته .
(٢) السندرة مكيال واسع، والمعنى : أقتل الأعداء قتلا ذريعا .
(٣) صحيح مسلم، الجهاد، رقم ١٨٠٧ (ص ١٤٣٣ - ١٤٤١)

وهجم عليه بقوة وإقدام حتى جَنْدَلَه قرب حصنه ، ثم ثبت ومن معه ثبات الأبطال حتى فتح الله لهم ذلك الحصن الذي يعتبر من أمنع حصون خيبر ، وهو حصن « ناعم » كما ذكر الواقدي في روايته (١) .

ومن الأبطال الذين كان لهم إسهام كبير في فتح ذلك الحصن إضافة إلى علي بن أبي طالب أبو دجانة سماك بن خرشة ، ومحمد بن مسلمة ، والزبير بن العوام رضي الله عنهم .

وفي ذلك يقول الواقدي فيما يرويه عن شيوخ من بني ساعدة قالوا : قَتل أبو دجانة الحارث أبا زينب ، وكان يومئذ معلمًا بعمامة حمراء ، والحارث مُعلم فوق مغفره (٢) .

وروى عن شيوخه قالوا : وبرز أُسَير ، وكان رجلاً أيِّدا (٣) ، وكان إلى القصَر ، فجعل يصيح ، من يبارز ؟ فبرز له محمد بن مَسلمة فاختلفا ضربات ، ثم قتله محمد بن مسلمة . ثم برز ياسر وكان من أشدائهم ، وكانت معه حربةٌ يحوش بها المسلمين حَوشًا ، فبرز له عَليٌّ عليه السلام فقال الزبير : أقسمتُ عليك إلا خليت بيني وبينه . ففعل عليٌّ وأقبل ياسر بحربته يسوق بها الناس ، فبرز له الزبير ، فقالت صفية : يارسول الله واحَزنَى ! ابني يُقتل يارسول الله ! فقال : بل ابنُك يقتُله . قال : فاقتتلا فقتله الزبير ، فقال له رسول الله ﷺ : فداك عمٌّ وخالٌ ! وقال النبي ﷺ : لكل نبيٍّ حواريٌّ وحواريَّ الزبير وابن عمتي .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٢ .

(٢)مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٤ .

(٣) أي قويا .

فلما قُتل مرحب وياسر قال رسول الله ﷺ : أبشروا، قد ترحبت خيبر وتيسرت ! وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيمًا ، فقال رسول الله ﷺ حين طلع عامر : أترونه خمسةَ أذْرُع ؟ وهو يدعو إلى البراز ، يَخطُر بسيفه وعليه درعان ، مُقنَّع في الحديد يَصيح : من يبارز ؟ فأحجم الناسُ عنه ، فَبَرز إليه عَليٌّ عليه السلام فضربه ضربات ، كلٌّ ذلك لايصنع شيئًا ، حتى ضرب ساقيه فَبَرك ، ثم ذفَّف (١) عليه فأخذ سلاحه (٢) .

وكل هؤلاء كانوا من شجعان اليهود الكبار ، وهذا يبين تفوق أبطال المسلمين على غيرهم بكثير ، وذلك لسمو الهدف الذي ينشدونه وهو الشهادة في سبيل الله تعالى ، وعظمة المثوبة المترتبة على ذلك وهي الظفر بالدرجات العُلَى في الجنة .

أما الكفار فأي شيء يطلبونه من تقديم أرواحهم ! إن الهدف الذي ينشدونه هو الشهرة والمجد الدنيوي ، وهذا سيفوتهم إذا قُتلوا ، ولهذا فإن أكثر طاقاتهم مصروفة للدفاع عن أنفسهم ، بينما تكون جميع طاقة المسلم مصروفة للهجوم على الخصم .

* * *

---

(١) أي أجهز عليه.

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٧

٨ – فتح حصن الصعب بن معاذ

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه : وكان حصن الصعب بن مُعاذ في النطاة ، وكان حصن اليهود فيه الطعام والودك والماشية والمتاع ، وكان فيه خمسمائة مقاتل ، وكان الناس(١) قد أقاموا أيّامًا يقاتلون وليس عندهم طعامٌ إلا العَلَف .

قال مُعتِّب الأسلَميّ : أصابنا معشرَ أسْلم خصاصةٌ حين قدمنا خيبر ، وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة(٢) لا نفتح شيئًا فيه طعام ، فأجمعَتْ أسلم أن يُرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا : إيت محمدًا رسول الله فقُل : إنّ أسلم يُقرئونك السلام ويقولون إنّا قد جهدنا من الجوع والضَّعف . فقال بُرَيدة بن الحُصَيب : والله إن رأيتُ كاليوم قطُّ أمرًا بين العرب يصنعون فيه هذا ! فقال هند بن حارثة : والله إنا لنرجو أن تكون البعثةُ إلى رسول الله ﷺ مفتاحَ الخير ، فجاءه أسماءُ بن حارثة فقال : يارسول الله ، إنّ أسلم تقول : إنّا قد جهدنا من الجوع والضعف فَادْعُ الله لنا ، فدعا لهم رسولُ الله ﷺ فقال : والله ما بيدي ما أقْريهم . ثم صاح بالناس فقال : اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه ، أكثره طعامًا وأكثره ودكًا .

ودفعوا اللواءَ إلى الحُباب بن المُنذر بن الجَموح ، ونَدَب الناس ، فما رجعنا حتى فتح الله علينا الحصن – حصن الصَّعب بن مُعاذ – فقالت أم مُطاع الأسلمية ، وكانت قد شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ في نساء ،

---

(١) أي المسلمون.

(٢) يقصد حي النطاة وفيه عدة حصون.

قالت : لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ماشكوا من شدة الحال ، فندب رسولُ الله ﷺ الناس فنهضوا ، فرأيتُ أسلم أول من انتهى إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ ، وإنّ عليه لخمسمائة مُقاتل ، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله ، وكان عليه قتال شديد .

برز رجلٌ من اليهود يقال له يوشع يدعو إلى البراز ، فبرز إليه الحُبابُ بن المُنذر فاختلفا ضربات فقتله الحُبابُ . وبرز آخر يقال له الزَّيَّال ، فبرز له عُمارة بن عُقبة الغفاري فبَدَره الغفاريٌّ فيضربه ضربةً على هامته ، وهو يقول : خُذْها وأنا الغلامُ الغفاري ! فقال الناس : بطل جهادُه . فبلغ رسولَ الله ﷺ فقال : ما بأسٌ به ، يؤجَر ويُحمد .

وكان أبو اليَسَر يحدّث أنهم حاصروا حصنَ الصَّعب بن مُعاذ ثلاثة أيام ، وكان حصنًا منيعًا ، وأقبلتْ غَنَمٌ لرجل من اليهود ترتع وراءَ حصنهم ، فقال رسول الله ﷺ : من رجلٌ يُطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلتُ : أنا يارسول الله ، فخرجت أسعى مثل الظَّبي ، فلما نظر إليّ رسول الله ﷺ مُولّيًا قال : اللهم متِّعْنا به ! فأدركتُ الغنم وقد دخل أوّلُها الحصن ، فأخذتُ شاتين من آخرها فاحتضنتهما تحت يدَيّ ، ثم أقبلتُ أعدو كأن ليس معي شيء حتى أتيتُ بهما رسول الله ﷺ ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فذُبحتا ثم قسمهما ، فما بقي أحدٌ من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منهما . فقيل لأبي اليَسَر : وكم كانوا : قال : كانوا عددًا كثيرًا . فيقال : أين بقيّةُ الناس ؟ فيقول : في الرَّجيع بالمعسكر .

فسُمع أبو اليَسَر - وهو شيخ كبير - وهو يبكي في شيء غاظه من

بعض ولده ، فقال : لَعمري بقيتُ بعد أصحابي ومُتّعوا بي وما أُمتَّع بهم! لقول رسول الله ﷺ : اللهم مَتِّعْنا به ! فبقي فكان من آخرهم (١) .

وكان أبو رُهم الغفاريّ يحدّث قال : أصابنا جوعٌ شديدٌ ، ونزلنا خَيْبَر زمان البَلَح ، وهي أرض وخيمة حارَّةٌ شديدٌ حَرُّها . فبينا نحن محاصرون حصنَ الصَّعب بن مُعاذ فخرج عشرون حماراً منه أو ثلاثون ، فلم يقدر اليهود على إدخالها ، وكان حصنُهم له منَعةٌ ، فأخذَها المسلمون فانتحروها وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها في القُدور والمسلمون جياع ، ومَرّ بهم رسولُ الله ﷺ وهم على تلك الحال فسأل فأُخبر فأمر مُناديًا : إنّ رسول الله ﷺ ينهاكم عن الحُمر الإنسية - قال : فكَفَوا القُدور - وعن مُتعة النساء ، وعن كلّ ذي ناب ومخْلَب .

وحدثني ابن أبي سَبرة . عن الفُضَيل بن مبشّر . قال : كان جابر بن عبد الله يقول : أطعَمَنا رسولُ الله ﷺ لحومَ الخيل . فَذَبح قومٌ من المسلمين خيلا من خيلهم قبل أن يُفتح حصن الصَّعب بن مُعاذ : فقيل لجابر : أرأيت البغال . أكنتم تأكلونها ؟ قال : لا .

وحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صَعْصَعَة . عن الحارث بن عبد الله بن كعب ، عن أم عمارة ، قالت : ذبحنا بخيبر لبني مازن بن النجار فرسين ، فكنا نأكلُ منهما قبل أن يفتح حصنُ الصَّعب بن مُعاذ .

وكان ابنُ الأكوع يقول : كنا على حصن الصَّعب بن معاذ ، أسلمُ

---

(١) وأخرج ابن إسحاق هذا الخبر وذكر نحوه
- سيرة ابن هشام ٣/ ٤٤٧

بأجمعها ، والمسلمون قد حصروا أهل الحصن ، فلقد رأيتُنا وصاحب رايتنا سعد بن عُبادة ، فانكشف المسلمون ، فأخذ الراية فغدونا معه . وغدا عامر بن سنان فلقي رجلاً من اليهود ، وبَدَره اليهوديُّ فيضرب عامرًا ، قال عامر : فاتقيتُه بدَرَقتي فنبا سيف اليهودي عنه . قال عامر : فأضربُ رجل اليهودي فأقطعُها . ورَجع السيف على عامر فأصابه ذبابُه فنزف فمات . فقال أسيد ابن حُضَير : حبط عملُه . فبلغ رسول الله ﷺ فقال : كذب من قال ذلك [١] إن له لأجرين . إنه جاهد مُجاهدٌ، وإنه لَيَعوم في الجنة عومَ الدُّعْموص [٢] .

حدثني خالد بن إلياس ، عن جعفر بن محمود بن محمد . عن محمد بن مسلمة قال : كنت فيمن تَرَّس عن النبي ﷺ . قال : فرأيتُ رسول الله ﷺ رَمَى بسهم ، فما أخطأ رجلاً منهم ، وتبسم إليَّ رسولُ الله ﷺ ، وانفرجوا ودخلوا الحصن .

حدثني ابن أبي سبرة . عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فَروة ، عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ ، والمسلمون جياع والأطعمةُ فيه كلُّها ، وغزا بنا الحُباب ابن المُنْذر بن الجَموح ومعه رايتنا وتبعه المسلمون ، وقد أقمنا عليه يومين نقاتلهم أشدَّ القتال ، فلما كان اليوم الثالث بكَّر رسولُ الله ﷺ عليهم ، فخرج رجل من اليهود كأنه الدَّقَل [٣] في يده حربةٌ له ، وخرج وعاديته معه فرموا بالنبل ساعة سراعًا ، وترَّسْنا عن رسول الله وأمطروا علينا

---

(١) كذب هنا بمعنى أخطأ ، والكذب يطلق أحيانا في اللغة ويراد به الخطأ .

(٢) الدعموص : الدخَّال في الأمور أي أنه يسيح في الجنة .

(٣) الدقل خشبة يمد عليها شراع السفينة .

بالنَّبل ، فكان نبلهم مثل الجراد حتى ظننتُ ألا يُقلعوا ثم حملوا علينا حملةَ رجل واحد ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف ، قد نزل عن فرسه ومدعَم[١] يُمسك فرسه . وثبت الحُبابُ برايتنا ، والله ما يزول يُراميهم على فرسه ، وندب رسولُ الله ﷺ المسلمين وحضهم على الجهاد ورغبهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعده خَيبر يُغنِّمه إياها .

قال : فأقبل الناس جميعًا حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زحف بهم الحُباب فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً ، وترجع اليهودُ على أدبارها حتى لحمها الشرُّ فانكشفوا سراعًا ، ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم . ووافوا على جُدُره - وله جُدُر دون جُدُر - فجعلوا يرموننا بالجَنْدَل[٢] رميًا كثيراً . ونحّونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحُباب الأول .

ثم إن اليهود تلاومت بينها وقالت : ما نستبقي لأنفسنا ؟ قد قُتل أهل الجدّ والجَلَد في حصن ناعم . فخرجوا مستميتين ، ورجعنا إليهم فاقتتلنا على باب الحصن أشدَّ القتال . وقُتل يومئذ على الباب ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ - أبو صَيَّاح . وقد شهد بدراً ، ضربه رجل منهم بالسيف فأطنَّ قِحْفَ رأسه ؛ وعَديّ بن مُرَّة بن سُراقة . طعنه أحدهم بالحربة بين ثدييه فمات ؛ والثالث الحَارث بن حاطب وقد شهد بدراً . رماه رجل من فوق الحصن فدمغه . وقد قتلنا منهم على الحصن عدَّة ، كلّما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يدخلوه الحصن ، ثم حمل صاحب

(١) هو مولى رسول الله ﷺ . (الاستيعاب ، ص ١٤٦٨) .

(٢) الجندل : الحجارة . (لسان العرب ، ١١/١٢٨) .

رايتنا وحملنا معه . وأدخلنا اليهودَ الحصن وتبعناهم في جوفه ، فلمّا دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غَنَم . فقتلنا مَن أشرفَ لنا . وأسرْنا منهم. وهربوا في كل وجه يركبون الحَرّة يريدون حصن قلعة الزُّبير ، وجعلنا نَدَعهم يهربون وصعد المسلمون على جُدُره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً، ففَتَتْنا أعضاد اليهود بالتكبير . لقد رأيتُ فتيانَ أسْلم وغفار فوق الحصن يُكبِّرون .

فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك ، من الشعير ، والتمر ، والسمن ، والعسل . والزيت . والوَدَك . ونادى مُنادي رسول الله ﷺ : كُلُوا وأعلفوا ولاتحتملوا . يقول : لاتخرجوا به إلى بلادكم. فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مُقامَهم طعامهم وعلف دوابهم، لايمنع أحد أن يأخذ حاجته ولايُخمَّس الطعام . ووجدوا فيه من البَزّ والآنية ، ووجدوا خوابي السَّكَر (١) ، فأُمروا فكسروها . فكانوا يكسرونها حتى سال السَّكَر في الحصن ، والخوابي كبار لايُطاق حَمْلُها. وكان أبو ثعلبة الخُشَني يقول : وجدنا فيه آنيةً من نُحاس وفَخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب . فسألنا رسول الله ﷺ فقال : اغسلوها واطبخوا وكُلوا فيها واشربوا . وقال : أسخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد، وكلوا واشربوا . وأخرجنا منه غنمًا كثيراً وبقراً وحُمُراً . وأخرجنا منه آلة كثيرةً للحرب ، ومَنجنيقًا ودبّابات وعُدّة ، فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهراً ، فعجل الله خزيَهم (٢) .

---

(١) أي الخمر .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٨ - ٦٦٤

في هذه الأخبار مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : فيها تصوير بليغ لما أصاب المسلمين من الجوع الشديد حيث فقدوا الطعام تماما أثناء حصارهم لبعض حصون خيبر ولم يبق معهم إلا علف البهائم ، ومع ذلك صبروا صبرًا جميلاً .

وحينما جاء رسول قبيلة أسلم يبين لرسول الله ﷺ حال قومه الشديدة لم يعرض الأمر بأسلوب التشكِّي والتَّضجُّر وإنما أخبر بحالهم ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم ، فكان الدعاء وكانت إجابة الله تعالى بما أغناهم حتى نهاية فتح خيبر .

ثانيًا : فيها نموذجان من تربية النبي ﷺ أصحابه على الاعتدال في الأمور والتحري في الحكم على الناس ، الأول : حينما هجم عمارة بن عقبة الغفاري على قرْنه اليهودي الذي بارزه قال عمارة : خذها وأنا الغلام الغفاري ، فقال الناس : بطل جهاده ، يعني حينما انتسب إلى قومه ولم ينتسب إلى الإسلام ، فقال النبي ﷺ « ما بأسٌ به يؤجر ويحمد» أي يؤجر في الآخرة ويحمد في الدنيا .

فبين النبي ﷺ أن انتماءه إلى قبيلته على سبيل الافتخار لايؤثر على انتمائه إلى الإسلام ما دام الهدف من القتال هو نصرة الإسلام والشعار الذي قد رفعه المجاهدون هو شعار الإسلام ، وإن كان عدم الانتماء للقبيلة هو الأكمل كما هو الحال في سلوك المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعا .

ولقد كان الدافع لأولئك الذين حكموا ببطلان عمل عامر الغفاري هو حماسهم القوي نحو تطبيق الانتماء إلى الإسلام والقضاء على

الانتماء القبلي الذي قد يؤثر على الاتجاه والسلوك ، ولكن النبي ﷺ لم يقرهم على ذلك الحكم الشديد لعلمه بسلامة اتجاه ذلك المجاهد، ولو أنهم لم يحكموا ببطلان عمله وكلموه بلطف وأشعروه بأن الكمال أن ينتمي إلى الإسلام كما يفعل المهاجرون والأنصار لقبل منهم ، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ ولم يكن بحاجة إلى أن يدافع عن ذلك الغفاري .

وهذا الاتجاه نحو التشدد في الحكم على الناس يوجد غالبا في كل زمن، لأنه يكون استجابة لنداء الغيرة على حرمات الدين ، ولكنه يضر بالمجتمع الإسلامي كثيرا ويُحدث التصدع والانشقاق في صفوفه ، ويسبب تكوُّن الأحزاب المختلفة الاتجاه نحو التشدد أو الاعتدال ، إلا إذا وفقت الأمة بقادة علماء حكماء بَعيدي النظر ، لهم سمعة عالية ومحبة في قلوب المسلمين ، فإن هؤلاء العلماء الربانيين يقومون بتوجيه هؤلاء المتحمسين وإعادتهم إلى الاتزان والاعتدال في الحكم على الآخرين ، متأسين في ذلك بإمامهم وقدوتهم ﷺ .

والنموذج الثاني في حكم أسيد بن حضير على عامر بن سنان بأنه قد حبط عمله ، وذلك حينما رجع عليه طرف سيفه وهو يهجم على اليهودي فجرحه فكان سببا لوفاته ، فخطّأ النبي ﷺ أسيد بن حضير في حكمه هذا الذي تعجل به ، وأبان بأن عامرا شهيد في الجنة يسبح فيها كيف شاء .

وبهذه الجهود التربوية وأمثالها قضى رسول الله ﷺ على اتجاه بعض الصحابة رضي الله عنهم نحو التشدد في الحكم على إخوانهم ، مع الإبقاء على روح الحماس والغيرة الدينية ، وتوجيه تلك الطاقة المتوثبة

نحو الاتجاه السليم والسلوك القويم .

ثالثًا : بذل المسلمون جهودًا كبيرة في القتال حول هذا الحصن ، ومن الأبطال الذين سُجِّلت جهودهم الحباب بن المنذر ، وعمارة بن عقبة الغفاري ، وعامر بن سنان رضي الله عنهم جميعا ، ومن أبرز جهودهم خروجهم لمبارزة شجعان اليهود ، وحرب المبارزة هي أشد أنواع الحرب ولايتصدى لها إلا أصحاب الشجاعة وقوة البأس إضافة إلى قوة الإيمان .

يضاف إلى الحباب بن المنذر موقفه القوي في قيادة الجيش الإسلامي الذي تصدى لقتال اليهود حول الحصن ، وذلك في ثباته في مركز القيادة حينما انهزم بعض الجيش إلى أن عادوا إليه فهجم بهم حتى تم فتح ذلك الحصن رضي الله عنهم جميعا .

رابعًا : موقف فدائي لأبي اليَسَر كعب بن عمرو السَّلمي الأنصاري حيث حقق رغبة النبي ﷺ في أخذ شيء من غَنَم اليهود لإطعام المسلمين، وهو موقف خطير حيث إنه لابد أن يقترب من حصن اليهود المليء بالرماة ، ومع هذه الخطورة فإنه قد سعى وراء الغنم حتى دخل أولها الحصن واحتضن منها شاتين ، ولم يبال بما تعرض له من خطر لأن الشيء الذي كان يهيمن على فكره هو أن يحقق رغبة النبي ﷺ ثم لْيُصَب جسمه بالجراح أو القتل فإن ذلك لا يهمه في سبيل تحقيق هدفه الكبير .

واستجاب الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فصرف أنظار اليهود عن أبي اليَسَر فلم يتعرض لنبالهم ومتَّع المسلمين بحياته حتى كان من آخر الصحابة رضي الله عنهم وفاة .

ولفتة جليلة من أبي اليسر رضي الله عنه حينما بكى في آخر عمره

على أن مُتِّع به أصحابه فماتوا قبله ولم يمتَّع بهم ، وهذا مثل من نظرة الصحابة إلى الحياة الدنيا فهم يخشون أن يتعرضوا للفتن ثم يلحقهم في دينهم منها شيء ، فلذلك كانوا يشتاقون إلى الآخرة ويغبطون إخوانهم الذين توفاهم الله قبل أن يتعرضوا للفتن .

خامسًا : مثل من قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ وذلك حينما طبخوا تلك الحمر الأهلية وكانوا في مسغبة شديدة وجوع منهك ، ومع ذلك حينما سمعوا منادي رسول الله ﷺ ينهاهم عن أكل لحوم الحمر الإنسية كفَوا القدور على الأرض ولم يطعموا منها شيئًا .

هؤلاء العظماء الذين نجحوا في جهاد أنفسهم وانتصروا على أهوائهم وشهواتهم هم الذين يُعقد عليهم الأمل ويُعتدُّ بهم في جهاد الأعداء وركوب المخاطر وتحمل الشدائد .

* * *

٩ - فتح حصن قلعة الزبير -

أخرج الواقدي بإسناده عن إسحاق بن عبد الله قال : وتحولَت اليهود من حصن ناعم كلها ، ومن حصن الصعب بن معاذ ، ومن كل حصون النَّطاة ، إلى حصن يقال له قلعة الزبير ، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون ، فحاصرهم وغلَّقوا عليهم حصنهم وهو حَصين مَنيع ، وإنما هو في رأس قلعة لا تَقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه ، وبقيت بقايا لا ذكْر لهم في بَعض حصون النَّطاة ، الرجل والرجلان . فجعل رسول الله ﷺ بإزائهم رجالاً يحرسونهم ، لا يطلع أحدٌ عليهم إلا قتلوه .

وأقام رسول الله ﷺ على مُحاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له غَزَّال فقال : أبا القاسم ، تُؤمِّني على أن أدلّك على ما تستريح به من أهل النَّطاة وتخرج إلى أهل الشِّق ، فإنَّ أهل الشِّق قد هلكوا رُعْباً منكَ ؟ قال : فأمّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله . فقال اليهوديّ : إنك لو أقمتَ شهراً ما بَالَوا ، لهم دُبُولٌ[1] تحت الأرض . يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، وإن قطعتَ مَشْرَبَهم عليهم ضجّوا .

فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربَهم لم يُطيقوا الُمقام على العطش ، فخرجوا فقاتلوا أشدّ القتال ، وقُتل من المسلمين يومئذ نفرٌ ، وأُصيب من اليهود ذلك اليوم عشرةٌ ، وافتتحه رسول الله ﷺ فكان آخرَ حصون النَّطاة .

---

(١) الدُّبول جمع دبل وهو جدول الماء .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من النّطاة أمر بالانتقال، والعسكر أن يُحوَّل من منزله بالرَّجيع إلى مكانه الأول بالمنزلة، وأمن رسولُ الله ﷺ من البيات ومن حرب اليهود وما يخافُ منهم، لأن أهلَ النطاة كانوا أحدّ اليهود وأهلَ النَّجدة منهم. ثم تحوّل رسول الله ﷺ إلى أهل الشّقّ(١).

في هذا الخبر عبرة عظيمة، وذلك فيما قام به ذلك اليهودي من الدلالة على عورة قومه، فهو من جهة نَصْرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ وأوليائه المؤمنين، فإن ذلك الحصن الذي في رأس الجبل من الصعب جدا الوصول إليه لأن المهاجم الذي سيضطر إلى الصعود البطيء سيكون أكثر عرضة لنبال العدو، مع أنه لا يستطيع الصعود إلا عدد قليل مجتمعين، وهذا يجعل فتح ذلك الحصن في غاية الصعوبة إلا بعمل كبير من الفدائية. ومن جهة أخرى فإن هذا التصرف من ذلك اليهودي يدل على تهافت مجتمع اليهود وعدم إخلاص الأتباع للقادة، خصوصا وقد حصل ذلك من غير واحد في أخبار أخرى، وذلك لكون قادة اليهود يزعمون بأنهم يُطبِّقون التوراة بينما يجد الأتباع أنهم يفسرونها حسب هواهم، ومن ذلك ما جاء فيها من الأوامر الصريحة بالإيمان بمحمد ﷺ وما جاء فيها من صفاته التي يعرفها حتى صغارهم بما يسمعون من علمائهم، وما ورثوه من وصايا علمائهم بالدخول في الإسلام وسبْق الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ، بل أشد من ذلك بالنسبة لهم ما جاء فيها بأنهم سيُبتَلَون بالقتل والتشريد على يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك يُصرُّون على الكفر به ومعاداته وتأليب العرب على قتاله.

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٦٦ - ٦٦٧

فشيوع هذه الأخبار في مجتمع اليهود تجعل الأتباع مترددين بين الخوف من مصيرهم الذي سُطِّر في كتبهم وبين طاعة قادتهم ، إضافةً إلى ما يرونه من التناقض الظاهر بين ادعاء تطبيق التوراة وأعمال قادتهم الكثيرة المخالفة لذلك .

* * *

١٠ - فتح حصن أُبَيّ -

قال الواقدي : فحدّثني موسى بن عمر الحارثي ، عن أبي عُفَير محمد بن سهل بن أبي حَثْمَة قال : لما تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشِّقّ وبه حصونٌ ذات عدد ، كان أول حصن بدأ منها حصن أُبَيّ ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سُمران ، فقاتل عليها أهل الحصن قتالا شديدا . وخرج رجل من اليهود يقال له غَزَّال فدعا إلى البراز ، فبرز له الحُباب بن المُنذر فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع ، فوقع السيف من يد غَزَّال فكان أعزل ، ورجع مُبادرًا منهزماً إلى الحصن ، وتبعه الحُباب فقطع عُرقوبه ، فوقع فذَفَّف عليه .

وخرج آخر فصاح : مَن يبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جَحش فقُتل الجَحْشيّ . وقام مكانَه يدعو إلى البراز ويبرز له أبو دُجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغْفَر يختال في مشيته ، فبدره أبو دُجانة فضربه فقَطع رجليه ، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلبه ، درعه وسيفه ، فجاء به إلى النبيّ ﷺ فنفّله رسولُ الله ﷺ ذلك .

وأحجموا عن البراز ، فكبّر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يقدُمهم أبو دُجانة ، فوجدوا فيه أثاثًا ومتاعًا وغَنَمًا وطعامًا ، وهرب من كان فيه من المُقاتلة ، وتقحموا الجُدُر كأنهم الظِّباءُ حتى صاروا إلى حصن النِّزار بالشق (١) .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٦٧ - ٦٦٨

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقفان لعلَمَين من أعلام المسلمين في الشجاعة والإقدام وهما الحباب بن المنذر وأبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما ، حيث تصدى كل واحد منهما لمبارز من اليهود فقضى عليه ، وكان لذلك أثر في وهن الأعداء .

* * *

١١ - فتح حصون الكتيبة والوطيح والسُّلالم -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه قالوا : ثم تحول رسول الله ﷺ إلى الكتيبة والوطيح وسُلالم ، حصن ابن أبي الحُقيق الذي كانوا فيه ، فتحصنوا أشدّ التحصن ، وجاءَهم كل فَلٍّ كان قد انهزم من النَّطاة والشِّقِّ، فتحصنوا معهم في القَموص وهو في الكتيبة ، وكان حصنًا منيعًا، وفي الوطيح وسُلالم . وجعلوا لايطلعون من حصونهم مُغلِّقين عليهم ، حتى همَّ رسولُ الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم لما رأى من تغليقهم ، وأنه لايبرز منهم بارز . فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسولُ الله ﷺ أربعة عشر يومًا سألوا رسول الله ﷺ الصُّلْح .

قال أبو عبد الله ، قلت لإبراهيم بن جعفر : وُجد في الكتيبة خمسمائة قوس عربية . وقال : أخبرني أبي عمّن رأى كنانة بن أبي الحُقيق يرمي بثلاثة أسهم في ثلثمائة - يعني ذراع - فيُدخلهَا في هدف شبْرًا في شبْر ، فما هو إلا أن قيل : هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشّقّ فيَ أصحابَه ، وقد تهيّأ أهلُ القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل ، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يُوترَها من الرِّعْدة ، وأومأ إلى أهل الحصون : لا ترموا ! وانقمع في حصنه ، فما رُئيَ منهم أحد ، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب . فأرسل كنانة رجلا من اليهود يقال له شَمّاخ إلى النبي ﷺ يقول : أنزلُ إليك أُكلّمك ! فلما نزل شَمّاخ أخذه المسلمون فأُتيَ به النبي ﷺ فأخبره برسالة كنانة . فأنعم له ، فنزل كنانة في نفر من اليهود ، فصالحه على ما صالحه ، فأحلفه عليه .

قال إبراهيم : تلك القِسيُّ والسلاح إنما كان لآل أبي الحُقَيق جماعة

يعيرونه العرب ، والحلي يُعيرونه العرب . ثم يقول : كانوا شرَّ يهود يَثْرب .

قالوا : وأرسل كنانة بن أبي الحُقَيْق إلى رسول الله ﷺ : أنزلُ فأُكلمك ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فنزل ابن أبي الحُقَيق فصالح رسولَ الله ﷺ على حَقن دماء مَن في حُصونهم من المقاتلة ، وترك الذُّرّيّة لهم ، ويخرجون من خَيْبَر وأرضها بذراريّهم ، ويُخلّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لَهم من مال أَو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحَلْقَة ، وعلى البَزّ ، إلا ثوبًا على ظهر إنسان . فقال رسول الله ﷺ : وبَرئتْ منكم ذِمَّةُ الله وذمّةُ رسوله إن كتمتموني شيئًا . فصالحه على ذلك (١) .

في هذا الخبر عبرة واضحة في نصر رسول الله ﷺ والمؤمنين بالرعب ، فابن أبي الحُقَيْق اليهودي الذي كان مشهورا بالجودة في الرماية وإصابة الهدف من بُعْد لَمّا سمع بمجيء النبي ﷺ لحصار حصنه ملأ الرعب قلبه حتى أصبح لا يستطيع أن يمسك بالنبل .

وهذا مثل واضح على أن الله تعالى مع أوليائه بنصره وتأييده إذا كانوا معه بالعبادة والتوكل والاستعانة .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٧٠ - ٦٧١

١٢ – مثل من تواضع رسول الله ﷺ –

(خبره مع صفية بنت حيي)

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن أبي حَرْمَلَة ، عن أخته أم عبد الله ، عن ابنة أبي القَين المُزَنيّ ، قالت : كنت آلفُ صفية من بين أزواج النبي ﷺ ، وكانت تحدّثني عن قومها وما كانت تسمع منهم .

قالت : خرجنا من المدينة حيث أجلانا رسول الله ﷺ فأقمنا بخيبر ، فتزوّجني كنانة بن أبي الحُقَيق فأعرس بي قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام ، وذبح جُزُرًا ودعا باليهود ، وحوّلني في حصنه بسُلالم ، فرأيت في النوم كأنّ قمرًا أقبلَ من يَثْرب يسير حتى وقع في حجْري . فذكرتُ ذلك لكنانة زوجي فلَطَم عيني فاخضرّت ، فنظر إليها رسول الله ﷺ حين دخلَتُ عليه فسألني فأخبرتُه .

قالت وجعلت اليهود ذراريّها في الكتيبة ، وجرّدوا حصن النَّطاة للمقاتلة ، فلمّا نزل رسول الله ﷺ خيبر وافتتح حصون النَّطاة ، ودخل عليّ كنانةُ فقال : قد فرغ محمد من النَّطاة ، وليس ها هنا أحدٌ يُقاتل ، قد قُتلت اليهود حيث قُتل أهلُ النَّطاة وكذبتْنا العربُ . فحوّلني إلى حصن النِّزار بالشِّقّ ، – قال : وهو أحصنُ ممّا عندنا – فخرج حتى أدخلني وابنة عمّي ونُسيّات معنا . فسار رسول الله ﷺ إلينا قبل الكتيبة فسُبيتُ في النِّزار قبل أن ينتهي النبي ﷺ إلى الكتيبة ، فأرسل بي إلى رَحْله ، ثم جاءنا حين أمسى فدعاني ، فجئت وأنا مُقنَّعة حَيِيَّة ، فجلستُ بين يَديه فقال : إن أقمت على دينك لم أُكرهْك ، وإن اخترت الله ورسوله فهو خيرٌ لك . قالت : أختارُ الله ورسوله والإسلام . فأعتقني

رسول الله ﷺ وتزوّجني وجعل عتقي مَهري ، فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابُه : اليوم نعلم أزوجةٌ أم سُرِّيةٌ ، فإن كانت امرأته فسَيحجبها وإلا فهي سُرّيَّة . فلما خرج أمر بستْر فسُترتُ به فعُرف أني زوجة ، ثم قَدَّم إليّ البعير وقدَّم فَخذَه لأضعَ رجلي عَليها ، فأعظمتُ ذلك ووضعتُ فَخذي على فَخذه [1] ، ثم ركبتُ .

وكنت ألقَى من أزواجه ، يفخرن عليّ يقلن : يا بنت اليهوديّ ، وكنت أرى رسول الله ﷺ يَلْطُف بي ويُكرمني ، فدخل عليّ يومًا وأنا أبكي فقال : مالك ؟ فقلتُ : أزواجُك يفخرن عليّ ويقلن : يا بنت اليهوديّ قالت : فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال : إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي : أبي هرون وعَمّي موسى [2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : في الرؤيا التي رأتها صفية بنت حيي رضي الله عنها عبرة فقد فهمها زوجها السابق كنانة بن أبي الحُقَيق فتشاءم من ذلك ولطم عينها تلك اللطمة الشرسة التي بقيت آثارها حتى جاءت إلى النبي ﷺ ، وكانت بالنسبة لها ممهِّدة لتَقَبُّل ما سيجري عليها من السبي ، ثم بُشْرى خير لها بأن النبي ﷺ سيتزوج بها .

ثانيا : في هذا الخبر مثل عظيم من تواضع النبي ﷺ حيث قدم فخذه لتطأ عليها صفية حينما أرادت أن تركب البعير .

---

(١) لعل الصواب : ووضعت ركبتي على فخذه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٧٤ - ٦٧٥ ، وأخرج الطبراني خبر رؤيا صفية رضي الله عنها ذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع ٩ / ٢٥١ - .

إن هذا التواضع الكبير لَيُخْضِع جميع العقلاء لاحترام رسول الله ﷺ وإكباره والإعجاب بعظمته .

امرأة من نسائه كانت مملوكة فأعتقها وكان أبوها حيي بن أخطب عدوه اللدود الذي ألَّب قبائل العرب ضده ، وزوجها ابن أبي الحقيق هو الذي تولى بعد ابن أخطب تأليب الأعداء عليه ، ومع ذلك كله يضع رسول الله ﷺ فخذه لصفية لتتوصل بها إلى ركوب البعير !!

إن تواضع العظماء للمستذلِّين يعتبر دليلا على عظمتهم لأنهم لا يرجون من هؤلاء الضعفاء أيَّ مطمع دنيوي من مال أو جاه ، لكن التواضع للجبارين المستكبرين علامة ضعف واستخذاء ، ما لم يكن هناك ملمح دعوي خاص .

ولئن كان رسول الله ﷺ عظيما في بشريته ، فلقد تكَلَّلَ بهاءً وعظمةً وسمواً في رسالته ، فأصبح قمة لا تُسامَى في التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وقدوة عليا للبشرية في التمثل بمكارم الأخلاق والبعد عن مساوئها .

وإننا حينما نقارن بين هذا السلوك الجميل العالي من رسول الله ﷺ وبين ما جرى على صفية من زوجها ابن أبي الحقيق الذي كان زعيم قومه نجد فرقًا شاسعا بين أخلاق الإسلام السامية التي مثَّلها لها سيد البشر ﷺ وبين أخلاق الجاهلية التي مثلها كنانة بن أبي الحقيق اليهودي .

ولقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي كبيرة القدر عظيمة الأخلاق حينما أعظمت هذا الأمر ، وأبت أن تضع قدمها على فخذ النبي ﷺ .

* * *

١٣ - مثل من قوة الإيمان -
(خبر الأعرابي المجاهد)

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من حديث شداد بن الهادي أن رجلاً من الأعراب جاء النبي ﷺ فآمن به ، واتَّبعه ، فقال أُهاجر معك ، وأوصى النبي ﷺ به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر - أو حنين - غنم رسول الله ﷺ ، فقسم ، وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم [١] فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قسمٌ قسمه الله لك ورسول الله ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ ، فقال : ما هذا يا محمد ؟ قال : قسمٌ قسمته لك ، قال ما على هذا اتَّبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم ، فأدخل الجنة ، قال : إن تصدُق الله يصدقك ، قال : فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدوّ ، فأُتي به يُحمَل ، قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ : أهو هو ؟ صدق اللهَ فصدقه ، فكفَّنه النبي ﷺ في جبة للنبي ﷺ ثم قدّمه النبي ﷺ ، فصلّى عليه ، فكان مما ظهر من صلاته عليه : اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجراً في سبيلك ، فقُتل شهيداً ، أنا عليه شهيد [٢] .

في هذا الخبر مثل من قوة الإيمان الذي ترقَّى بصاحبه حتى أوصله في وقت سريع إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى ، شوقًا إلى دخول الجنة .

---

(١) يعني إبلهم .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٧٦ ، رقم ٩٥٩٧ ، وأخرجه الإمام النسائي - سنن النسائي ٤/ ٦٠ - كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهداء .

وهكذا يفعل الإيمان فعلَه السريع في النفوس المتجردة من هوى النفس ، فيكون الجسد مسخَّرًا للعقل السليم الذي أدرك أن الحياة الحقيقية التي تستحق أن يعمل لها العقلاء هي الحياة الآخرة ، فيتجه المسلم عند ذلك إلى تأمين القدر الضروري للنجاة من النار ودخول الجنة ، ألا وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات ، وعندها يبلغ درجة التقوى ولكن حينما يسمو الإيمان وتعلو المدارك لا يقتنع المسلم بأن يكون من المتقين فقط بل يريد أن يكون من السابقين بالخيرات فيسابق في باب النوافل الذي هو مرتع الصالحين .

ونجد صاحب هذا الخبر قد سابق إلى عمل من أزكى الأعمال الصالحة ، حيث بلغ طموحه إلى الشهادة في سبيل الله تعالى ، فأظفره الله بها وظفر بدعوة النبي ﷺ والشهادة له .

* * *

مواقف وعبر

ما بين خيبر ومؤتة

١ – فتح فدك وموقف لمحَيِّصة بن مسعود
وموقف آخر لعبد الله بن رواحة –

١ – أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها ، بعث مُحَيِّصَة بن مَسعود إلى فدك[١] يدعوهم إلى الإسلام ويخوِّفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خَيْبر ويحُلّ بساحتهم .

قال مُحَيِّصة : جئتهم فأقمت عندهم يومين ، وجعلوا يتربصون ويقولون : بالنَّطاة عامر ، وياسر وأُسَير ، والحارث وسيد اليهود مَرْحب ، ما نرى محمدًا يقرب حَراهم[٢] ، إنّ بها عشرة آلاف مُقاتل . قال محيصة : فلما رأيت خبثهم أردت أرحل راجعًا ، فقالوا : نحن نُرسل معك رجالاً يأخذون لنا الصُّلح – ويظنُّون أنّ اليهود تمتنع . فلم يزالوا كذلك حتى جاءَهم قتْل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم ، ففتّ ذلك أعضادهم وقالوا لمُحَيِّصَة : اكتمْ عنَّا ماقلنا لك ولك هذا الحَلْي ! لحَلْي نسائهم ، جمعوه كثيرًا . فقال مُحَيِّصة : بل أخبر رسول الله ﷺ بالذي سمعتُ منكم . فأخبر النبي ﷺ بما قالوا .

قال مُحيصة : وقدم معي رجلٌ من رؤسائهم يقال له نُون بن يوشَع في نفر من اليهود ، صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءَهم ويُجليهم ويُخَلُّوا بينه وبين الأموال . ففعل ، ويقال : عرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولايكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شيءٌ ، وإذا كان جُذاذها جاءُوا فجذّوها ، فأبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك وقال لهم

---

(١) بينها وبين المدينة يومان . (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٤٢) .

(٢) الحرا : جناب الرجل ، يقال : اذهب فلا أراك بحراي . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٢٢)

مُحَيِّصَة : مالكم مَنَعَة ولا رجال ولا حصون ، لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه . فوقع الصُّلح بينهم أنّ لهم نصف الأرض بتربتها لهم ، و لرسول الله ﷺ نصفها ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك . وهذا أثبت القولين (١) .

في هذا الخبر موقف جليل لمحيصة بن مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، وذلك في امتناعه عن أخذ الرشوة التي قدمها له يهود فدك في مقابل أن يكتم عن رسول الله ﷺ ماقالوه له ، وقد أبى أن يحقق لهم مطلبهم ورفض قبول الرشوة ، مع أنه فرد واحد وقد كانوا في حال حرب وقد استعزَّ يهود فدك بيهود خيبر وأظهروا لمحيصة أن المسلمين لن يستطيعوا القضاء على أبطال اليهود المشهورين ، كل ذلك يجعل في الأمر احتمال أن يعتدوا على محيصة بالقتل ، ومع ذلك لم يُبَال بهم وأعلن لهم أنه لن يكتم عن رسول الله ﷺ مقالتهم وهذا يدل على شجاعته إضافة إلى ورعه واستقامته .

٢ - قال الواقدي في سياق روايته : وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا : يامحمد ، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها . فساقاهم(٢) رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع ، وكان يُزرع تحت النخل ، فقال رسول الله ﷺ : أقرّكم على ما أقركم الله . فكانوا على عهد رسول الله ﷺ حتى تُوفي ، وأبي بكر ، وصَدْر من خلافة عمر ، وكان يبعث عبد الله بن رواحة يخرُص عليهم النخل ، فكان يخرصها فإذا خرص قال : إن شئتم فلكم وتضمنون نصف

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٠٦ - ٧٠٧ .

(٢) أي اتفق معهم على سقي النخل والزرع وإصلاح ذلك ولهم في مقابل ذلك نصف الإنتاج .

ماخرصتُ ، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ماخرصتُ . وإنه خرص عليهم أربعين ألف وسق ، فجمعوا له حُليًّا من حُليّ نسائهم فقالوا : هذا لك ، وتجاوزْ في القَسْم . فقال : يامعشر اليهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ ، وماذاك يحملني أن أحيفَ عليكم . قالوا : بهذا قامت السموات والأرض (١) .

في هذا الخبر موقف جليل لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه في الورع والعدل ، فقد عرض عليه اليهود الرشوة من أجل أن يخون الأمانة ، وذلك بأن يزيد في نصيبهم من التمر عند الخرص ، فأبى أن يأخذ منهم ما عرضوا عليه ، وبيَّن لهم أن العدل يقتضي منه أن يعطيهم حقهم كاملا وإن كانوا أبغض خلق الله إليه ، فاعترفوا بحكم الحق والعدل وقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

إن تقديم هذا الطلب والطلب السابق من اليهود دليل على عدم تصورهم لما ينتجه الدين الصحيح من تصحيح للفكر وتقويم للسلوك ، ذلك لأن دينهم المحرف لا أثر له في سلوكهم ، ولو أنهم عقلوا ودرسوا دين الإسلام دراسة دقيقة وسَبَرُوا حياة الصحابة رضي الله عنهم لعرفوا أن تحقيق هذا المطلب بعيد المنال منهم .

إن الذين قطعوا حبال الصلة مع كل أحلافهم في الجاهلية مع ما يترتب على ذلك من ضرر مادي . . وإن الذين قابلوا في الميدان الحربي أصدقاءهم وحلفاءهم بل أقاربهم . .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٩٠ – ٦٩١ .

وإن الذين باعوا أنفسهم لله تعالى وطلبوا الموت في مظانِّه رغبة في الشهادة في سبيل الله جل وعلا . .

وإن الذين سهروا الليالي يناجون الله تعالى وكابدوا ظمأ الهواجر تقربا إليه جل وعلا . .

إن هؤلاء العظماء لايتصور عاقل أن نفوسهم ستضعف حتى يأخذوا الرشوة ويخونوا الأمانة .

لقد كانت أخلاق الإسلام وأمور الحلال والحرام مطبقة عند هؤلاء الصفوة من قبل أن يرتفعوا إلى مستوى الجهاد الاختياري الذي يتنافسون على الاشتراك فيه ، ويتسابقون إلى المواطن الفدائية في ملاحمه .

* * *

٢ – فتح وادي القرى وتيماء –

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه :

فلما أتى رسول الله ﷺ الصهباء سلك على برمة حتى انتهى إلى وادي القُرى يُريد من بها من اليهود . وكان أبو هريرة يحدث قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ من خَيبر إلى وادي القرى ، وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجُذامي قد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له مدْعَم ، وكان يُرحِّل لرسول الله ﷺ . فلما نزلوا بوادي القرى انتهينا إلى اليهود وقد ضوى إليها أناسٌ من العرب ، فبينا مدْعَم يحُطُّ رحْل النبي ﷺ ، وقد استقبلَتْنا اليهود بالرمي حيث نزلنا ، ولم نكن على تَعبية وهم يصيحون في آطامهم ، فيُقبل سهم عائرٌ(١) فأصاب مدْعَمًا فقتله ، فقال الناس : هَنيئًا لك الجنة ! فقال رسول الله : كلاّ والذي نفسي بيده ، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يُصبها المَقْسم تشتعل عليه نارًا . فلما سمع بذلك الناس جاءَ رجلٌ إلى النبي ﷺ بشراك(٢) أو بشراكين . فقال النبي ﷺ : شراك من نار ! أو شراكان من نار .

وعبّى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفّهم ، ودفع لواءَه إلى سعد ابن عُبادة ، ورايةً إلى الحُباب بن المُنْذر ، ورايةً إلى سهل بن حُنيف ، ورايةً إلى عَباد بن بشر . ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم : إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءَهم وحسابُهم على الله . فبرز رجلٌ منهم وبرز إليه الزُّبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز

---

(١) أي لا يدري من هو راميه .

(٢) الشراك أحد سيور النعل التي تكون على وجهها .

إليه الزبير فقتله ، ثم برز آخر فبرز له عَليٌّ عليه السلام فقتله ، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله ، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله ، حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحدَ عشرَ رجلاً ، كلما قُتل رجلٌ دعا من بقي إلى الإسلام. ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رُمح حتى أعطوا بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنَّمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيراً .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القُرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى ، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها. فلما بلغ يهودَ تيماءَ ما وطيءَ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى ، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية ، وأقاموا بأيديهم أموالهم (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : قول النبي ﷺ في « مدْعَم » « والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يصبها المقسم تشتعل عليه نارًا » فيه عبرة للمعتبرين ، فليس المطلب الوحيد لدخول الجنة أن يُقتل المسلم على يد الأعداء ، وإنما قبل ذلك لابد من الاستقامة على أمور الدين ، فلابد من التقوى وهي أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المحرمات ، وقد يُكفِّر الله تعالى بالشهادة وغيرها من الأعمال الصالحة صغائر الذنوب

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٠٩ - ٧١١، وأخرج خبر مدْعَم الإمامان البخاري ومسلم - صحيح البخاري، رقم٤٢٣٤ ، كتاب المغازي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ١١٥ - .

كما في قول الله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]وقول الرسول ﷺ « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن إذا اجْتُنِبَت الكبائر» (١) لكن الذنوب التي لها علاقة بحقوق الناس لايكفِّرها إلا إعادة الحقوق لأصحابها مع التوبة النَّصوح .

ولقد استفاد من هذه العبرة أحد الصحابة، وكان قد أخذ من مغانم خيبر سيوراً من الجلد وضعها شراكا أو شراكين لنعله ، وكان قد استهان بها فلما سمع كلام النبي ﷺ أتى بها ، فلم يستَهنْ بها النبي ﷺ بل أفاد بأنها على حقارتها توصل صاحبها إلى النار ، وفي هذا موعظة بليغة في احترام حقوق المسلمين وعدم التهاون بشيء منها .

ثانيًا : في هذا الخبر مواقف جهادية في مجال المبارزة لكل من الزبير ابن العوام ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي دجانة سماك بن خَرَشة رضي الله عنهم ، وهؤلاء الثلاثة من الذين تتكرر مواقفهم في المبارزة في مواقف عديدة ، فكم أدخلوا على إخوانهم المسلمين من السرور بانتصارهم على أقرانهم ! وكم أدخلوا من الغم واليأس على أعدائهم المحاربين !

* * *

(١) صحيح مسلم، الطهارة رقم ٢٣٣(ص ٢٠٩)

٣ – مثل من سماحة النبي ﷺ وإعزاز دولة الإسلام – (سرية إلى رِعْيَةَ السُّحيمي)

أخرج الإمام أحمد بإسناده إلى الشعبي عن رعْية السحيمي قال : كتب إليه رسول الله ﷺ في أديم أحمر فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فرقع به دلوه ، فبعث رسول الله سرية فلم يَدَعوا له رائحة ولاسارحة ولا أهلاً ومالاً إلا أخذوه ، وانفلت عريانا على فرس له ليس عليه سترة ، حتى ينتهى إلى ابنته وهي متزوجة في بني هلال ، وقد أسلمت وأسلم أهلها ، وكان مجلس القوم بفناء بيتها ، فدار حتى دخل عليها من وراء البيت ، قال : فلما رأته ألقت عليه ثوبا ، قالت : مالك ؟ قال : كل الشر نزل بأبيك ، ماتُرك له رائحة ولاسارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ ، قالت : دُعيتَ إلى الإسلام ؟ قال : أين بعلك ؟ قالت : في الإبل ، قال : فأتاه فقال : مالك ؟ قال : كل الشر قد نزل به ماتُركتْ له رائحة ولاسارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ ، وأنا أريد محمدا أبادره قبل أن يقسم أهلي ومالي ، قال : فخذ راحلتي برحلها ، قال : لاحاجة لي فيها ، قال : فأخذ قعود الراعي وزوَّده إداوة من ماء ، قال : وعليه ثوب إذا غطَّى به وجهه خرجت استه وإذا غطى استه خرج وجهه وهو يكره أن يُعرف ، حتى انتهى إلى المدينة فعقل راحلته ثم أتى رسول الله ﷺ فكان بحذائه حيث يصلي ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قال : يارسول الله ابسط يدك فلأُبايعك ، فبسطها فلما أراد أن يضرب عليها قبضها إليه رسول الله ﷺ ، قال : ففعل النبي ﷺ ذلك ثلاثا قبضها إليه ، ويفعله[1] ،

---

(١) يعني أنه يريد أن يضرب على يد النبي ﷺ للبيعة .

فلما كانت الثالثة قال : من أنت ؟ قال : رعية السحيمي ، قال : فتناول رسول الله ﷺ عضده ثم رفعه ثم قال : يامعشر المسلمين هذا رعية السحيمي الذي كتبت إليه فأخذ كتابي فرقع به دلوه ، فأخذ يتضرع إليه يقول : قلت : يارسول الله أهلي ومالي ، قال : أما مالك فقد قسم ، وأما أهلك فمن قدرت عليه منهم (١) ، فخرج فإذا ابنه قد عرف الراحلة وهو قائم عندها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا ابني ، فقال : يابلال اخرج معه فسَلْه : أبوك هذا فإن قال نعم فادفعه إليه ، فخرج بلال إليه فقال : أبوك هذا ؟ قال : نعم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ما رأيت أحدًا استعبر إلى صاحبه ، فقال : ذاك جفاء الأعراب (٢) .

في هذا الخبر موقفان لرسول الله ﷺ :

أولهما : ما قام به من إعزاز الإسلام ، وذلك حينما أرسل هذه السرية لتأديب رعية السحيمي الذي استهان بالإسلام وبرسول الله ﷺ .

وهكذا فإن بعض الناس تهيمن عليهم النخوة الجاهلية ، ويعتزون بمالديهم من مال وبنين وحلفاء فيغلب عليهم الكبر وتقسو قلوبهم ، فلا يكون فيها متسع لتَفَهُّم المبادئ السامية وإنما تغلب عليهم المنافع الدنيوية وحماية الجاه والموروثات الجاهلية ، فهؤلاء لايُجدي معهم الخطاب باللين والحسنى ، ولكن لابد من تبليغ الدعوة أولا ، وهذا مافعله

(١) يعني فخذه .

(٢) المسند ٥/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وهو هذا - مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥ -

النبي ﷺ حينما كتب إلى رعية السحيمي . فحينما استهان هذا الرجل بهذا الكتاب فرقع به دلوه كان لابد من تلقينه درسا يكون عبرة له ولكل من سمع به ، فأرسل إليه النبي ﷺ تلك السرية التي جعلته وماله وأهله وداره كأمس الذاهب ، ولم ينج أحد غيره وهو على أسوإ حال .

ثانيًا : مثل من سماحة النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة ، فهذا الرجل قد ارتكب جريمة كبرى في حقه ﷺ ، ولو أنه فعل هذا الفعل الشنيع بكتاب زعيم دنيوي ثم ظفر به لجعل على كل شجرة من لحمه قطعة ، لكن النبي ﷺ عفا عنه مع القدرة عليه ، والعفو عند المقدرة خلق عظيم لايوهب إلا لعظماء الرجال ، والنبي ﷺ قد حاز الكمال في كل مكارم الأخلاق .

* * *

٤ – سريتان إلى فروع من قبيلة هوازن –

١ – أخرج الواقدي من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وأمّره علينا ، فَبَيَّتْنَا ناسًا من هَوازن ، فقتلتُ بيدي سبعةً أهل أبيات ، وكان شعارنا : أمت أمتْ(١) .

٢ – قال الواقدي : حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبي بكر بن عمر بن عبد الرحمن ، قال : بعث رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز(٢) هَوازن بتُرَبة (٣) ، فخرج عمر رضي الله عنه ومعه دليلٌ من بني هلال ، فكانوا يسيرون الليل ويكمُنون النهار ، وأتى الخبرُ هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالَّهم فلم يلق منهم أحدًا . وانصرف راجعًا إلى المدينة حتى سلك النَّجدية ، فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه : هل لك في جمع آخر تركته من خَثْعَم ، جاءُوا سائرين قد أجدَبَت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرني أصمد لقتال هوازن بتُربة . فانصرف عمر راجعًا إلى المدينة .

وذكر الواقدي أنها في شهر شعبان سنة سبع من الهجرة (٤) .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولاً : في خروج هذه السرايا الصغيرة إلى هذه المناطق البعيدة

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٢ .

(٢) عجز هوازن هم بنو نصر بن معاوية وبنو جشم بن بكر .

(٣) تربة تقع جنوب شرق الطائف وهي الآن بلدة معروفة .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٢ .

مغامرة جريئة ، خصوصا وأنهم سيمرون في مناطق ماتزال تحت سلطان أعدائهم ، وإن مجرد الإقدام على غزو هذه المناطق البعيدة يعتبر تضحية كبيرة وشجاعة عالية ، ولقد شرُفَتْ هاتان السريتان بقيادة خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وحصل في سرية أبي بكر قتال ظفر فيه المسلمون ، أما في سرية عمر فلم يحصل قتال ، حيث هرب الأعداء من ديارهم ، وهذه نتيجة كافية في إرهاب العدو ، وقد كانت هوازن أظهرت العداء للمسلمين إلى أن تم القضاء على تجمعهم الكبير في حنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ثانيًا : موقف لعمر رضي الله عنه في طاعة أمر النبي ﷺ وعدم التقدم عليه ، وذلك حينما أشار الدليل عليه بغزو قبيلة أخرى قد رحلت من ديارها فأبى عليه وقال : « لم يأمرني النبي ﷺ بهم » وهذا مثل من الانضباط ولزوم النظام القائم في دولة الإسلام آنذاك ، وهو الذي يتمثل بتخطيط النبي ﷺ وتوجيهه وإدارته .

* * *

٥ – سَرِيَّتا بشير بن سعد وغالب الليثي إلى بني مُرَّة بفَدَك –

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن الحارث بن الفُضَيل ، عن أبيه ، قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلا إلى بني مُرَّة بفَدَك . فخرج فلقي رعاءَ الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم في بَواديهم . والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء ، فاستاق النَّعَم والشاءوعاد مُنحدراً إلى المدينة ، فخرج الصَّريخ فأخبرهم فأدركه الدَّهْمُ منهم عند الليل (١) ، فباتوا يُرامونهم بالنَّبل حتى فنيتْ نبلُ أصحاب بَشير ، وأصبحوا وحمل المُرِّيُّون عليهم فأصابوا أصحاب بشير وولَّى منهم من ولى . وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ضُرب كَعْبُه ، وقيل : قد مات ، ورجعوا بنَعَمهم وشائهم . وكان أول من قدم بخبر السرية ومُصابها عُلْبَة بن زيد الحارثي . وأمهل بشير بن سعد وهو في القتلى ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فَدَك ، فأقام عند يهودي بفَدَك أيّامًا حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة(٢) .

وهيأ رسول الله ﷺ الزُّبير بن العوام فقال : سر حتى تنتهي إلى مُصاب أصحاب بشير ، فإن ظفَّرك الله بهم فلا تُبق فيهم . وهيّأ معه مائتي رجل وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفره الله عليهم ، فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : اجلس ! وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل ، فخرج أسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مُصاب بشير وأصحابه ، وخرج معه عُلْبَة بن زيد .

---

(١) الدَّهم العدد الكثير .

(٢) ذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة تسع .

قال الواقدي : حدثني أفلح بن سعيد ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ، قال : كان مع غالب عُقبة بن عمرو أبو مَسعود ، وكعب بن عُجرة ، وأسامة بن زيد ، وعلبة بن زيد ، فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع ، فبعث علبة بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة مَحَالِّهم ، حتى أوفَى على جماعة منهم ثم رجع إلى غالب فأخبره . فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد اجتلبوا وعَطَّنوا[1] وهَدؤوا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بماهو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لاشريك له ، وأن تُطيعوني ولاتعصوني ولاتُخالفوا لي أمرًا ، فإنه لا رأي لمن لايُطاع . ثم ألف بينهم فقال : يافلان أنت وفلان ، يافلان أنت وفلان - لايفارق كلّ رجل زميله - وإياكم أن يرجع إليّ أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك؟ فيقول : لاأدري ، وإذا كبّرتُ فكَبِّروا . قال : فكبَّر وكَبَّروا ، وأخرجوا السيوف . قال : فأحطنا بالحاضر وفي الحاضر نَعَمٌ وقد عَطَّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال فقاتلوا ساعةً ، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا : أمتْ أمتْ [2] .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولاً : ما أصاب سرية بشير بن سعد من القتل والجراح حيث هجم عليهم عدد كثير لاطاقة لهم به ومع ذلك ثبتوا لهم حتى قُتل أكثرهم وخرّ قائدهم صريعا وتركوه وهم يظنون أنه في الموتى .

---

(١) أي سقوا الإبل ثم أناخوها وحبسوها عند الماء (لسان العرب ، ج١٧ ، ص١٥٨) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٣ - ٧٢٤ .

وهذا يبين لنا أنه ليس كل المعارك الحربية تكون لصالح المسلمين، بل - أحيانًا - يُستأصل أكثرهم كما في هذه المعركة ، ومع ذلك فإنهم صابرون محتسبون ، ولم يمنعهم ما جرى في هذه المعركة من العودة إلى الجهاد ، بل كانوا أشد حماسا وأقوى معنوية ، وهذه صفة من يجاهد للآخرة ، لأنه قد حصَّل مايريد من الأجر سواء كانت له أو عليه .

ثانيًا : ما قام به النبي ﷺ من إعداد سرية أخرى لتأديب بني مرة وإعزاز دولة الإسلام ، وقد قام أصحاب هذه السرية بمسؤليتهم بقيادة غالب بن عبد الله الليثي الذي اشتهر بالحزم والحكمة وحسن الإدارة ، فأوقعوا ببني مرة وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وهكذا كان النبي ﷺ يهتم بإعزاز المسلمين وإظهارهم بمظهر القوة حتى لايُرام جنابهم ولا يستهان بأمرهم ، ومن آثار هذه العزة أن بشير بن سعد قائد السرية الأولى لما تحامل على نفسه وانسحب من مكان المعركة ولجأ إلى رجل من اليهود في فدك لم يتعرض له أحد من اليهود حتى شفاه الله تعالى ورجع إلى المدينة بالرغم من أن المسلمين قد غزوا ديار اليهود في خيبر وفدك وفي المدينة قبل ذلك ، وذلك لأنهم يعلمون أن وراءه الأسُود الأشاوس بقيادة النبي ﷺ وأنهم لو قتلوه لأرسل إليهم النبي ﷺ من يهدم عليهم دارهم ويفني رجالهم .

* * *

٦ - سرية غالب الليثي إلى الميْفَعة(١) -

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر ، عن ابن أبي عَوْن ، عن يعقوب بن عُتبة ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الكُدْر أقام أيامًا ما شاء الله أن يُقيم ، فقال له يسار مولاه : يارسول الله ، إني قد علمت غرةً من بني عبد بن ثعلبة ، فأرسل معي إليهم . فأرسل معه النبي ﷺ غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين رجلاً .

خرج بهم يسار ، فظعن بهم في غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا ، واقتسموا التمر عددًا ، فبينما القوم ذات ليلة بعدما ساءَ ظنُّهم بيسار ، وظن القوم أن إسلامه لم يصح ، وقد انتهوا إلى مكان قد فحصه السيل ، فلما رآه يَسار كبّر قال : والله قد ظفرتم بحاجتكم ، اسلكوا في هذا الفحْص حتى ينقطع بكم . فسار القوم فيه ساعة بحسّ خَفيّ لايتكلمون إلا هَمْسًا حتى انتهوا إلى ضرْس(٢) من الحرّة ، فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجلٌ شديد الصوت لأسمع القوم ، فارتؤوا رأيكم ! .

قال غالب : انطلقْ بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كمينًا ، ففعلا ، فخرجنا حتى إذا كانا من القوم بمنظر العين سمعا حس الناس والرِّعاء والحُلُب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما ، فأقبلوا جميعًا حتى إذا كانوا من الحيّ قريبا ، وقد وعظهم أميرهم غالب ورغبهم في

(١) الميفعة : وراء بطن نخل إلى النقرة بناحية نجد ، بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨٦)

(٢) الضرس : الأكمة . (الصحاح ، ص ٩٣٩) .

الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان في الطلب ، وألَّف بينهم وقال : إذا كبرتُ فكبِّروا . فكبرَّ وكبروا جميعًا معه ، ووقعوا وسط مَحالِّهم فاستاقوا نَعَما وشاءً ، وقتلوا من أشرف لهم ، وصادفوهم تلك الليلة على ماء يقال له الميفعة . قال : واستاقوا النَّعم فحدروه إلى المدينة ، ولم يُسمَع أنهم جاءوا بأسرى [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : فيه صورة مما لقيه الصحابة رضي الله عنهم من الشدة والجوع في جهاد الأعداء ، فقد فني زاد هؤلاء القوم حتى صاروا يقتسمون التمر بالعدد ، وهي صورة تتكرر كما سبق لنا ، وهذا يدل على قوة احتمال الصحابة وصبرهم الجميل واحتسابهم الأجر عند الله تعالى .

ثانيًا : موقف جهادي نبيل لقائد هذه السرية غالب بن عبد الله الليثي حيث ذهب بنفسه طليعة لأصحابه مع الدليل ، والطلائع دائما فدائيون لاحتمال أن يشعر بهم العدو فيفتك بهم قبل أن يصلوا إلى أصحابهم .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٦ - ٧٢٧.

٧ – سرية بشير بن سعد إلى الجناب –

قال الواقدي : حدثني يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ، قال : قدم رجلٌ من أشجع يقال له حُسيل بن نُوَيرة ، وقد كان دليل النبي ﷺ إلى خَيبر ، فقال له رسول الله ﷺ : من أين ياحُسَيل؟ قال : قدمتُ من الجناب[١] . فقال رسول الله ﷺ : ماوراءك؟ قال : تركت جمعًا من غَطَفان بالجناب ، قد بعث إليهم عُيينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم . فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعًا ، وهم يُريدونك أو بعض أطرافك . قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فذكر لهما ذلك فقالا جميعًا : ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً فعقد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار .

وخرج معهم حُسَيل بن نُوَيرة دليلاً ، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر فنزلوا بسلاح [٢] ، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم ، فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمنتم وخرجتُ طليعةً لكم حتى آتيكم بالخبر ، وإن أحببتم سرنا جميعًا . قالوا : بل نقدّمك . فقدّموه ، فغاب عنهم ساعةً ثم كرّ عليهم فقال : هذا أوائل سرْحهم فهل لكم أن تُغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبي ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرَنا الرجالُ والعطَن [٣]. وقال

(١) الجناب من أرض غطفان ، وذكره أيضًا الحازمي وقال : من بلاد فزارة . (عيون الأثر ، ج٢ ، ص ١٤٨) .

(٢) سلاح : موضع أسفل من خيبر . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠١) . ويقال له أيضا : سلاج ، بالجيم . (وفاء الوفاء . ج ٢ ، ص ٣٢٣) .

(٣) المراد بالعطن هنا النساء – لسان العرب ١٣/ ٢٨٧ – .

آخرون : نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم . فشجعوا على النَّعَم ، فأصابوا نعمًا كثيرا ملأوا منه أيديهم ، وتفرَّق الرعاء وخرجوا سراعًا ، ثم حذروا الجمع فتفرق الجمع وحذروا ، ولحقوا بعلياء بلادهم .

فخرج بشير بأصحابه حتى أتى مَحالَّهم فيجدها وليس بها أحد . فرجع بالنعم حتى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عينًا لعُيينة فقتلوه ، ثم لقوا جمع عُيَينة ، وعُيَينة لايشعر بهم فناوشوهم ، ثم انكشف جمع عُيينة وتبعهم أصحاب النبي ﷺ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسرًا . فقدموا بهما على النبي ﷺ فأسلما فأرسلهما النبي ﷺ (١) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : في اتفاق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على تأمير بشير بن سعد رضي الله عنه دلالة على تفوقه في المجال القيادي والإداري ، وقد كانت السِّمة الظاهرة في ذلك العصر وضع الرجل المناسب في المكان المناسب من غير نظر إلى شهرته ومكانته الاجتماعية ، وإنما الذي كان يلاحظ هو إمكانية نجاحه في العمل الذي يتم توجيهه إليه بأعلى قدر ممكن ، فلذلك كُتب النجاح لكل الأعمال التي وجهها رسول الله ﷺ .

ثانيًا : حصل المسلمون من المكاسب في هذه الغزوة على قدر كبير وذلك أنهم فرَّقوا جمع غطفان الأول الذي سيجتمع معه عيينة بن حصن ثم يغيرون على المدينة ، ثم فرقوا جمعهم الثاني الذي كان بقيادة عيينة ، فبذلك فشلت خطتهم في الاجتماع لغزو المدينة ، إضافة إلى ماغنمه المسلمون من أموال القوم وفي ذلك إضعاف لهم عن الإقدام على حرب المسلمين .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٧ - ٧٢٨ . وذكر الواقدي أنها كانت سنة سبع .

٨ - عمرة القضاء -

قال ابن إسحاق : فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر ، أقام بها شهري ربيع وجمادَيَين ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا ، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه ﷺ . ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عُمرة القضاء ، مكان عمرته التي صدوه عنها (١) .

وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عُمرته تلك ، وهي سنة سبع ، فلما سمع به أهلُ مكة خرجوا عنه ، وتحدّثَتْ قُريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجَهد وشدّة .

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم ، عن ابن عبَّاس ، قال : صفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ؟ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجدَ اضطبع بردائه ، وأخرج عَضُدَه اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرءاً أراهم اليومَ من نفسه قوّةً ، ثم استلم الرُّكْن ، وخرج يُهَرْول ويُهَرول أصحابهُ معه ، حتى إذا واراهُ البيت منهم ، واستلم الركنَ اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم ، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الَحيّ من قُريش للذي بلغه عنهم ، حتى إذا حجّ حَجّة الوداع فلزمها فمضت السنّة بها .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العُمرة دخلها وعَبدُ الله بن رواحة آخذ بخطام

(١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدِّيلي .

ناقته يقول :

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سبيله ... خُلُّو فكلُّ الخــير في رسـوله

يــاربِّ إني مُــؤمنٌ بقيْله ... أعْــرفُ حــقّ الله في قَبُوله

ثم ذكـر ابن إسـحـاق أن رسـول الله ﷺ أقـام بمكة ثلاثة أيام ، وأن المشركين أرسلوا إليه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا .

ثم ذكر انصراف النبي ﷺ إلى المدينة في شهر ذي الحجة [1] .

وأخـرج الإمـام البـخـاري خـبـر عـمـرة القـضـاء مـخـتـصـرا في عـدة روايات ، وقـد زاد في رواية البـراء بـن عـازب رضي الله عنهـمـا قـوله : فخرج النبي ﷺ ، فتبعته ابنةُ حمزةَ تُنادي : ياعم ياعم ، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : دُونك ابنة عمك حمِّليها . فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ ، قال علي : أنا أخذتها وهي بنتُ عمي . وقال جعفرٌ : ابنةُ عمي وخالتها تحتي . وقال زيدٌ : ابنة أخي . فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم . وقال لعلي : أنت مني وأنا منك . وقال لجعفر : أشبهت خَلقي وخُلقي . وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا . وقال عليّ : ألا تتزوجُ بنت حمزة ؟ قال : إنها ابنةُ أخي من الرضاعة » .

وجاء في رواية ابن عباس رضي الله عنهما : « قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وَهَنْتهم حُمَّى يثرب ، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩٧ – ٥٠١ .

ولـم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشـواط كـلها إلا الإبـقاء عليهم»[1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : في تصرف النبي ﷺ الذي واجه به دعايات الأعداء المغرضة حينما وصفوا المسلمين بالضعف، حيث أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يَجرُوا مسرعين في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف ، وقال في ذلك «رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة » .

وهذا التصرف الحكيم يبين لنا أهمية الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية لأن شعور الأعداء الثابت بقوة المسلمين يجعلهم يعيشون دائمًا في رعب من المسلمين ، فإذا فكروا في غزوهم ترددوا في ذلك كثيرًا ، وإذا عزموا وغزَوهم ضعفوا أمامهم ولم يثبتوا عند لقائهم .

وقد أراد زعماء الأعداء أن ينتهزوا هذه الفرصة ليرسِّخوا في أذهان أتباعهم ضعف المسلمين ففوَّت عليهم رسول الله ﷺ هذه الفرصة حينما أمر أصحابه بسرعة السير في الطواف .

ثانيًا : في الخبر الأخير بيان اختصام علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة في بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين ، وهو مثل من التنافس على فعل الخير فكل واحد منهم يريد أن يكفلها لينال بذلك أجر كفالة اليتيم ، وكل واحد منهم أدلى بما يسوِّغ أحقيته في ذلك ، فعليّ وجعفر ابنا عمها ولكنْ يزيدُ جعفر في كون خالتها زوجته ، ويحتج عليّ أيضا بكونه سبق إلى أخذها ، وزيد يذكر أنها ابنة أخيه وكان النبي ﷺ قد آخَى بينه وبين حمزة ، ولكن النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٢٥١ - ٤٢٥٩(٧/ ٤٩٩ - ٥٠٩).

في حكمه بينهم قد نظر إلى مصلحة البنت فقضى بها لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم ، ثم إنه ﷺ من كمال خلُقه وعظمة مشاعره أراد أن يطيِّب قلوب هؤلاء الصفوة الذين تنافسوا على الخير فذكر منقبة لكل واحد منهم حيث قال لعلي : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر : «أشبهت خَلْقي وخُلُقي » وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا » فما أعدله ﷺ حاكما ! وما أعظمه مربيًا !!

* * *

٩ - إسلام عمرو بن العاص -

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب ابن أبي أوس الثقفي ، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي ، قال : حدثني عمرو بن العاص منْ فيه ، قال : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قُريش ، كانوا يرون رأيي ، ويَسْمعون مني ، فقلت لهم : تعلَّموا والله إني أرى أمرَ محمد يعلو الأمور علوّاً مُنكرا ، وإني قد رأيت أمرًا ، فما ترون فيه ؟ قالوا وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمدٌ عَلَى قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومُنا فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا: إن هذا لرأي ، قلت : فاجمعوا لنا ما نهْديه له ، وكان أحبَّ مايُهدَى إليه من أرضنا الأَدَم(١) . فجمعنا له أدَمًا كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فو الله إنا لعنده إذ جاءَه عمرو بن أمية الضمْري ، وكان رسول اللهﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه . قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه ، فضربتُ عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قُريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسولَ محمد . قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبا بصديقي ، أهديت إليّ من بلادك شيئًا ؟ قلت : نعم ، أيها الملك ، قد أهديت إليك

---

(١) يعني الجلد.

أدمًا كثيرًا ، قال : ثم قربته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوّ لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، قال : فغضب ،ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه : ثم قلت له : أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر (١) الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ ! قال : قلت : أيها الملك، أكذاك هو ؟ قال : ويحك ياعمرو أطعْني واتبعه ، فإنه والله لعلَى الحقّ ، وليظهرنَّ على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال : قلت : أفتبايعني له على الإسلام ، قال : نعم : فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه ، وكتمتُ أصحابي إسلامي .

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح ، وهو مُقبل من مكة ، فقلت : أين ياأبا سُليمان؟ قال : والله لقد استقام المَنْسم (٢) ، وإن الرجل لنبيّ ، أذهبُ والله فأسلم ، فحتى متى ؟ قال : قلت : والله ماجئتُ إلا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوتُ ، فقلت : يارسول الله ، إني أبايعك على أن يُغفر لي ماتقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر ، قال : رسول الله ﷺ ياعمرو بايع ، فإن

---

(١) يعني جبريل عليه السلام .

(٢) هذا مثل يضرب لظهور الأمر ووضوحه بحيث لم يبق فيه لبس ولا شك .

الإسلام يجُبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها ، قال : فبايعته ، ثم انصرفت (١) .

وذكره الحافظ الهيثمي بمثل رواية ابن إسحاق وقال : رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى أذني ، ورجالهما ثقات (٢) .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه ، وأضاف في إحدى رواياته أن ذلك كان لهلال شهر صفر سنة ثمان (٣) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف للنجاشي رحمه الله تعالى حينما غضب لرسول الله ﷺ غضبا شديداً بلغ منه أنه ضرب أنفه تلك الضربة المنكرة ، وهذا دليل على قوة إيمانه بالإسلام ، وقد أتبع الإنكار العملي بالإنكار القولي حيث قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله ؟ .

وكان لقوة إنكار النجاشي القولي والعملي أثر على عمرو بن العاص رضي الله عنه حيث أزال من نفسه الشك في نبوة رسول الله ﷺ ، ثم لما رأى النجاشي زوال الشك عن عمرو بادر إلى دعوته إلى الإسلام فأسلم على يديه ، ونال بذلك النجاشي أجراً عظيمًا حيث جذب إلى الإسلام رجلا من عظماء قريش .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥١ - ٣٥٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٩ / ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤١ - ٧٤٥ .

لقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب وحكمائهم ولقد أدرك بثاقب بصره أن دينًا يعرف أحقيته العجم البعيدون عن موطن الرسالة، الغرباء عن لغة هذا الدين لاينبغي لمثله أن يجهله .

ثانيًا : سهولة إسلام عمرو وسرعة استجابته لَمَّا تبين له الحق، وهذا دليل على تجرد قلبه من الهوى المنحرف ، فحينما عرف طريق الحق سار فيه ، ولو كان صاحب هوى لظل على هواه حتى مع معرفة الحق .

لقد كان إسلام عمرو بن العاص نصرًا كبيرًا للإسلام والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيره لأنهم كانوا يُعدُّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين .

* * *

١٠ - إسلام خالد بن الوليد -

أخرج الواقدي من حديث يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن الحارث بن هشام قال : سمعت أبي يُحدث يقول : قال خالد بن الوليد : لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبَّ الإسلام . وحضرني رُشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأنَّ محمداً سيظهر .

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان ، فقمتُ بإزائه وتعرّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظهر آمنًا منَّا ، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرةٌ - فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهُموم فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي مَوقعًا وقلت : الرجل مَمنوع ! وافترقنا وعدل عن سَنَن خيلنا وأخذ ذات اليمين .

فلما صالح قُرَيشًا بالحديبية ودافعته قُريشٌ بالرَّواح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب إلى النَّجاشي ؟ فقد اتبعَ محمدًا ، وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرجُ من ديني إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم مع عجم تابعًا ، أو أقيم في داري فيمن بقي ؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القَضيَّة ، فتغيبتُ فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القَضية ، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتابًا فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإني لم أرَ أعجب من ذَهاب رأيك عن الإسلام وعَقْلُك

عَقْلُك! ومثل الإسلام جَهلَه أحدٌ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله جَهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيرًا له، ولقدّمْناه على غيره. فاستدركْ يا أخي ما فاتك، فقد فاتَتْكَ مواطنُ صالحة.

قال: فلما جاءَني كتابه نشطتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام وسرّني مقالةُ رسول الله ﷺ. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت إنَّ هذه لَرُؤيا. فلما قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر. قال: فذكرتُها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضِّيق الذي كنت فيه من الشرك.

فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيتُ صفوان بن أُمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكَلَةُ رأس (١)، وقد ظهر محمد على العرب والعَجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإنَّ شرف محمد لنا شرفٌ. فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قُريش ما اتبعته أبدًا. فافترقنا وقلت: هذا رجلٌ مَوتور يطلب وترًا، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ماذكرتُ لك. قال: لا أذكره.

وخرجتُ إلى منزلي فأمرت براحلتي تُخرج إليّ، فخرجتُ بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت: إنَّ هذا لي لصديقٌ ولو ذكرتُ له ما

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. (الصحاح، ص ١٦٢٤).

أريد! ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أذكِّره ، ثم قلت : وماعليَّ وأنا راحلٌ من ساعتي . فذكرتُ له ما صار الأمر إليه فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحْر ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[1] من ماء لخرج . قال : وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بفَخٍّ مُناخةٌ .

قال : فاتَّعدتُ أنا وهو بيَأجَج ، إن سبقني أقام وإن سبقتُه أقمتُ عليه . قال : فادَّلجنا سَحَرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجَج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم! فقلنا : وبك ! قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ . قال : وذلك الذي أقدمني .

قال : فاصطحبْنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحَرَّة ركابنا، فأُخبر بنا رسولُ الله ﷺ فسُرَّ بنا ، فلبستُ من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخي فقال : أسرعْ فإنَّ رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم . فأسرعتُ المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه ، فسلَّمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمد لله الذي هَداك ! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلا إلى الخير . قلت : يارسول الله قد رأيتَ ماكنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك مُعانداً عن الحق فادعُ الله أن يغفرها لي فقال رسول الله ﷺ : الإسلام يجُبّ ما كان قبله ، قلت : يارسول الله ، على

(١) الذنوب : الدلو العظيمة (النهاية ، ج٢ ، ص ٥١) .

ذلك ؟ فقال : اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك . قال خالد : وتقدّم عمرو ، وعثمان ، فبايعا رسول الله ﷺ .

وكان قدومنا في صفر سنة ثمان ، فو الله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : في قول خالد عن المواطن التي شهدها ضد الإسلام « وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء » في قوله هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام ، فقد كان يحارب المسلمين وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم سيظهرون بقيادة رسول الله ﷺ ، فهذا الشعور في نفسه يعتبر مظهرا من مظاهر الانهزام الداخلي الذي يكون لدى بعض النفوس التي لديها قبول للخير ، ولكنها تعيش تحت ضغوط قوية ، تمنعها من قبوله . . وفي ذلك كبت للطاقات وإهدار للكفاءات ، حيث يُرغم الإنسان نفسه على الدخول في أمور لايؤمن بها ولايتحمس لها الحماس الكافي لبذل الجهد ، فيعطي في الدفاع قليلاً من طاقته ، ويبقى معطلا لايستفاد منه كثيرا ، ونستطيع أن ندرك هذا بالمقارنة بين ما أنتجه خالد في مجاله الذي برز فيه وهو القيادة الحربية في السنوات التي سبقت إسلامه وبين إنتاجه في السنوات التي تلت إسلامه ، وسنجد أن نسبة نجاحه قبل الإسلام ضئيلة جدا .

ثانيًا : لما أراد النبي ﷺ دعوة خالد بن الوليد إلى الإسلام على يد أخيه الوليد أثنى عليه بقوله « ما مثله جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدَّمناه على غيره » لقد

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤٥ - ٧٤٩ .

وصف رسول الله ﷺ خالدا بسداد الرأي ورجاحة العقل ، وتعجَّب كيف يجهل الإسلام من وهبه الله تعالى مثل هذا العقل والرأي ، ثم وعد أخاه بأنه لو أسلم لكان له شأن ولقدَّمه على غيره .

لقد كان لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام ، ولقد كان رسول الله ﷺ موفقا لكل التوفيق في فهم توجهات النفوس ومواطن قيادها ، فلقد أدرك حب خالد للزعامة والقيادة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المجال ، إلى جانب الإشادة بفكره وعقله .

لقد انتزع النبي ﷺ بهذه الكلمات كل الجواذب التي تجعل خالدا يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعا به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدُّر ، فلما كان ما هيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام ، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملا شجعه ذلك على قطع وساوس الشيطان ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على الدخول فيه .

وهكذا كسب المسلمون إلى صفهم زعيما كبيراً من زعماء مكة وعلما من أعلامها ، وكتب الله تعالى على يديه صفحات بيضاء من تاريخ المسلمين الجهادي في أواخر حياة النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر وأول عهد عمر رضي الله عنهما .

ولقد كان إسلام خالد مع إسلام عمرو بن العاص أعظم خذلان واجهه المشركون في مكة ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لما جاءه البشير يبشره بإسلامهما « لقد أعطت مكة المقادة بعد هذين » .

* * *

١١ – سرية غالب الليثي إلى بني المُلَوَّح –

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : وكان من حديثها أن يعقوب بن عُتبة بن المغيرة بن الأخنَس حدثني عن مُسلم بن عبد الله بن خُبيب الجُهنيّ (١) عن جُنَدب بن مكيث الجهنيّ . قال : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي . كلب بن عوف بن ليث ، في سرية كنت فيها . وأمره أن يَشنَّ الغارةَ على بني المُلوَّح . وهم بالكديد . فخرجنا . حتى إذا كنا بقُدَيْد لقينا الحارث بن مالك ، وهو ابن البرْصاء الليثي ، فأخذناه . فقال : إني جئت أريد الإسلام . ماخرجت إلا إلى رسول الله ﷺ . فقلنا له : إن تك مسلما فلن يَضيرك رباطُ ليلة . وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك . فشددناه رباطا . ثم خلفنا عليه رجلا من أصحابنا أسود . وقلنا له : إن عازَّك فاحتزَّ رأسه .

قال : ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكنَّا في ناحية الوادي ، وبعثني أصحابي رَبيئة لهم (٢) ، فخرجت حتى آتي تَلاًّ مُشرفًا على الحاضر (٣) فأسندت فيه ، فعلوتُ في رأسه ، فنظرت إلى الحاضر ، فو الله إني لمنبطح على التل ، إذ خرج رجل منهم من خبائه ، فقال لامرأته : إني لأرى على التل سوادًا(٤) ما رأيته في أوّل يومي ، فانظري إلى أوْعيتك هل تَفقدين منها شيئا ، لاتكون الكلاب جرَّتْ

---

(١) في المطبوع زيادة « عن المنذر » وهو خطأ والتصويب من رواية الإمام أحمد .

(٢) يعني طليعة لهم ليعرف خبر العدو .

(٣) أي مكان إقامة القوم .

(٤) أي شخصًا .

بعضها[1] ، قال : فنظَرَتْ ، فقالت : لا والله ما أفقد شيئا ، قال : فناوليني قوسي وسهمين ، فناولَتْه ، قال : فأرسل سهمًا ، فو الله ما أخطأ جنبي ، فأنزعُه ، فأضعه ، وثَبَتُّ مكاني ، قال : ثم أرسل الآخر ، فوضعه في منكبي ، فأنزعُه فأضعه ، وثبتُّ مكاني ، فقال لامرأته : لو كان ربيئة لقوم لقد تحرّك ، لقد خالطه سَهماي ، لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما ، فخذيهما لا يمْضُغهما عليّ الكلاب ، قال : ثم دخل .

قال : وأمْهلناهم ، حتى إذا اطمأنوا وناموا ، وكان في وجه السحر ، شَنَنَّا عليهم الغارة ، قال : فقتلنا ، واستَقْنا النَّعَم ، وخرج صريخ القوم ، فجاءنا دَهْم[2] لاقبل لنا به ، ومضينا بالنعم ، ومَرَرنا بابن البرصاء وصاحبه ، فاحتملناهما معنا ، قال : وأدركَنا القوم حتى قربوا منا ، قال : فما بيننا وبينهم إلا وادي قُدَيد فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى ، ومن غير سحابة نراها ، ولا مطر ، فجاء بشيء ليس لأحد به قوة ، ولا يقدر على أن يجاوزه ، فوقفوا ينظرون إلينا ، وإنا لنسوقُ نَعَمَهُم ، ما يستطيع منهم رجل أن يُجيز إلينا ونحن نَحْدُرُها سراعا ، حتى فُتْناهم ، فلم يقدرُوا على طلبنا .

قال : فقدمنا بها على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني رجل من أسْلَم ، عن رجل منهم : أنّ شعار أصحاب رسول الله ﷺ كان تلك الليلة : أمتْ أمت . فقال راجز من المسلمين وهو يحدوها :

---

(١) يعني ظن أن الذي فوق التل وعاء من أوعيتهم .

(٢) أي عدد كثير .

أَبَى أَبُـو القاسم أن تَعَزّبي [1]   في خَضل نَباتُه مُغْلوْلب[2][3]

وأخرجه الواقدي بإسناد ابن إسحاق وذكر نحوه ، وجاء في آخره : فما أنسى رجز أميرنا غالب :

أَبَى أبـو القاسم أن تعزَّبي   وذاك قول صادق لم يكذب
في خَـضـل نباته مغلولب   صُـفْرٌ أَعَاليه كَلَوْن المُذهَب

وذكر في رواية له عن حمزة بن عمر الأسلمي قال : كنت معهم وكنا بضعة عشر رجلا [4] .

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه[5] .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : عند أبي داود طرف من أوله ، رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات فقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية الطبراني [6] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : فيما قام به جندب بن مكيث الجهني في مُهمة الاستطلاع لأصحابه، فحافظ محافظة تامة على الاستخفاء حتى أدى مهمته بنجاح .

---

(١) أي تقيمي في المرعى .

(٢) الخضل النبات الأخضر المبتل ، والمغلولب الكثير الذي يغلب الماشية حين ترعاه .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٦٨ - ٣٧٠ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٠ - ٧٥١ .

(٥) الفتح الرباني ٢١ / ١٢٨ .

(٦) مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢ .

ونقف قليلا لنتأمل هذا الموقف الرائع الذي تجلت فيه مظاهر الفداء والتضحية . حيث قدّم هذا الصحابي الجليل مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية ، فقد تحمَّل وقع السهام في جسده وهو صابر محتسب مع وجود الاحتمال القوي لذهاب نفسه في أحد هذه السهام فيما لو أصاب مقتلا . . تحمَّل ذلك كله من أجل أن لايَدُلَّ بتحركه على وجود جماعته ، الأمر الذي يؤدي غالبا إلى فشل ما قصدوا إليه حيث سيأخذ الأعداء احتياطهم الكامل ، ولربما فاجؤوا المسلمين على غرة فأوقعوا بهم، فتحمل الأذى ساعة من أجل هذه المصالح الكبيرة ، وهذا نموذج عال لاتبلغه الإنسانية غالبا بغير الإسلام . بينما هو متوفر بكثرة لدى المسلمين وخاصة في عصور الرقي الديني كما في عصر الصحابة رضي الله عنهم .

وإننا إذا بحثنا عن السبب الدافع لهذه التضحية البالغة وإذابة الشخصية الفردية في روح الجماعة نجد أن ذلك متركز في الوزن الصحيح والتقويم الدقيق لمنزلة الدنيا ومنزلة الآخرة ، فكلما عظمت الحياة الدنيا في عين الإنسان كان ميالا إلى الأنانية واعتبار الذات وتتفاوت درجات ذلك بمقدار اهتمام الإنسان الدنيوي ، وكلما عظمت الآخرة في عين الإنسان كان أقرب إلى اعتبار الجماعة وتناسي المنافع الذاتية .

ثانيًا : في هذا الخبر عبرة للمعتبرين ، فلقد أنقذ الله تعالى أولياءه المؤمنين المجاهدين في سبيله من هلاك متوقع حيث تجمع الأعداء عليهم وأتوهم بجمع لاطاقة لهم به ، فأجرى الله عز وجل السيل في الوادي بشكل مفاجئ حيث لامطر حولهم ولا أي حال من مقدمات المطر وبسرعة تمنع الأعداء من تجاوزه إليهم . فأصبح الأعداء ينظرون إلى

المسلمين وأموالُهم بأيديهم وهم عاجزون عن الوصول إليهم .

فهل يبقى بعد هذا لدى أي عاقل متبصر في الأمور أدنى شك في أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده ، وضد أعدائه الكافرين ببعث جنوده التي لم يتوقعوها ولم يحسبوا لها حسابا ؟ ! .

ولقد أثبت الله تعالى معيته لأوليائه المؤمنين وأثبتها رسول الله ﷺ في آيات وأحاديث كثيرة ، وإذا كان بعض المتشككين والحيارى لايتأثرون بسماع هذه الأخبار فما جوابهم عن مثل هذه الواقعة التي تجلَّت فيها منَّة الله تعالى على عباده المؤمنين ، وتنزَّلت نقمته على أعدائه الكافرين؟! .

* * *

١٢ - سرية شجاع بن وهب إلى السِّيِّ -

أخرج الواقدي من حديث عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن بالسِّيِّ، وأمره أن يُغير عليهم ، فخرج فكان يسير الليل ويكمُن النهار حتى صبَّحهم وهم غارُّون ، وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك ألاَّ يُمعنوا في الطَّلَب ، فأصابوا نَعَمًا كثيراً وشاءً ، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة ، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً كل رجل ، وعدلوا البعير بعشر من الغنم ، وغابت السرية خمس عشرة ليلة .

وذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر ربيع الأول سنة ثمان (١) .

هذه السرية تضاف إلى السرايا السابقة التي يُقصد منها إرهاب قبيلة هوازن حتى لاتجتمع لحرب المسلمين ، وقد نجح أصحاب هذه السرية في الاستخفاء مع طول الطريق ، وتجاوزوا مناطق تحت سلطان الأعداء ، حتى ظفروا ببغيتهم فأوقعوا بالأعداء وتم المقصود من إرسال هذه السرية .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٣ - ٧٥٤ .

١٣ - سرية قطبة بن عامر إلى خثعم -

أخرج الواقدي من حديث ابن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلاً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة [١] ، وأمره أن يشُنَّ الغارة عليهم ، وأن يسير الليل ويكمُن النهار ، وأمره أن يُغذَّ السيرَ . فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، قد غيبوا السلاح ، فأخذوا على الفتق حتى انتهوا إلى بطن مسْجَب[٢] ، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم ، فجعل يصيح بالحاضر[٣] ، فقدمه قطبة فضرب عنقه . ثم أقاموا حتى كان ساعة من الليل ، فخرج رجلٌ منهم طليعة فيجد حاضر نَعَم ، فيه النَّعم والشاء فرجع إلى أصحابه فأخبرهم ، فأقبل القوم يدبون دبيبًا يخافون الحَرَس ، حتى انتهوا إلى الحاضر وقد ناموا وهدؤوا فكبّروا وشنّوا الغارة ، فخرج إليهم رجال الحاضر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتي كثرت الجراح في الفريقين . وأصبحوا وجاء الخثعميون الدَّهْم[٤] ، فحال بينهم سيلٌ أتيٌّ[٥] ، فما قدر رجلٌ واحدٌ منهم يمضي حتى أتى قطبة على أهل الحاضر ، فأقبل بالنعم والشاء والنساء إلى المدينة ، فكان سهامهم أربعة أربعة ، والبعير بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخُمُس ، وكان في صفر سنة تسع[٦] .

---

(١) وتقع جنوب شرق الطائف وهي معروفة اليوم .

(٢) موضعان جنوب الطائف .

(٣) أي بقومه الذين نزلوا على الماء .

(٤) أي العدد الكثير .

(٥) أي أتى من مكان بعيد ولم يكن حولهم مطر .

(٦) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٤ - ٧٥٥ .

كذلك فإن المقصود بهذه السرية إرهاب هذه القبيلة حتى لاتجتمع مع القبائل المجاورة لحرب المسلمين ، وقد نجح أصحاب السرية في الاستخفاء حتى تجاوزوا منطقة مكة والطائف إلى أن وصلوا إلى تبالة فأوقعوا بخصومهم وأضعفوهم ماديا بما غنموا من أموالهم ، وقد نجح أصحاب السرية في تحقيق الهدف من إرسالهم .

أما السيل الذي أتى من غير سحاب ولامطر لإنقاذ هذه السرية من جيش كبير لاطاقة لهم به فهو كرامة ساقها الله جل وعلا إلى أوليائه المؤمنين لإخراجهم من ذلك الحرج الذي وقعوا فيه ، وقد سبق الكلام مفصلا على موضوع مشابه لهذا الموضوع .

* * *

مواقف وعبر

فى سرية مؤتة

١ – سبب غزوة مؤتة –

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى : حدثني ربيعة بن عُثمان ، عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمَير الأزدي ثم أحد بني لهْب ، إلى ملك بُصرى بكتاب ، فلما نزل مُؤتة عرض له شُرحْبيل بن عمرو الغساني فقال : أين تُريد ؟ قال : الشام . قال : لعلَّك من رُسُل محمّد ؟ قال : نعم ، أنا رسول رسول الله ﷺ . فأمر به فأوثق رباطًا ، ثم قدّمه فضرب عُنُقَه صَبْرًا . ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ غيره ، فبلغ رسول الله ﷺ الخبرُ فاشتد عليه ، ونَدَب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله ، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف ، ولم يُبيِّن رسولُ الله ﷺ الأمرَ .

فلمّا صلَّى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابُه ، وجاءَ النُّعمان بن فنحص اليهودي ، فوقف على رسول الله مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيد بن حارثة فجَعفر بن أبي طالب ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رَواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليَرْتَض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

فقال النعمان بن فُنْحُص : أبا القاسم ، إن كنت نبيًا فسمَّيتَ من سمّيت قليلاً أو كثيرًا أُصيبوا جميعًا ، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان ، فلو سمّى مائة أُصيبوا جميعًا . ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة : اعهدْ ، فلا ترجع إلى محمد أبدًا إن كان نبيًا ! فقال زيد : فأشهدُ أنه نبيٌّ صادقٌ بارٌّ .

فلما أجمعو المسير وقد عقد رسول الله ﷺ لهم اللواء ودفعه إلى زيد ابن حارثة - لواء أبيض - مشى الناس إلى أمراء رسول الله ﷺ يُودّعونهم ويدعون لهم ، وجعل المسلمون يُودّع بعضُهم بعضًا ، والمسلمون ثلاثةُ آلاف ، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون : دفع الله عنكم ، ورَدَّكم صالحين غانمين (١) .

تُبيِّن لنا رواية الواقدي أن سبب بعث سرية مؤتة ماجرى من أحد زعماء الغساسنة من إقدامه على قتل رسول رسول الله ﷺ بهذه الصورة الشنيعة حيث ربطه ثم ضرب عنقه صبرا ، وتبين الرواية أن هذا الأمر اشتد على رسول الله ﷺ فندب الناس لغزو أهل الشام .

فهذه السرية تقع ضمن دائرة الغزوات والسرايا التي قَصد بها النبي ﷺ إعزاز الإسلام ودولته والانتقام من الأعداء الذين انتهكوا حرمة دولة الإسلام فاعتدوا على رجالها .

وإنه لموقف كبير أن يبعث النبي ﷺ ثلاثة آلاف مجاهد في قتل رجل من رجال دولة الإسلام ، وهذا يعني عزة المسلم وحرمته وكرامته في دار الإسلام .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٥ - ٧٥٦ .

٢ - وقفات إيمانية من عبد الله بن رواحة -

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزّبير ، قال : بعث رسول الله ﷺ بَعْثَهُ إلى مُؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : إن أُصيب زيدٌ فجعفرُ بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

فتجهز الناسُ ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع من وُدّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا : مايبكيك يابن رواحة ؟ فقال : أما والله مابي حبُّ الدنيا ولا صَبَابة بكم ، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله عزّ وجل ، يذكر فيها النار ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾ [مريم : ٧١] ، فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود ، فقال المسلمون : صَحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنَّني أسألُ الـرَّحـمن مغفرةً وضربةً ذات فرْع تقذفُ الزَّبدا[(١)]
أو طعنة بيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجهزةً بحـربة تُنفذ الأحشاء والكبدا [(٢)]
حتى يُقال إذا مرُّوا على جدثي[(٣)] أرشـده الله من غاز وقد رشدا

---

(١) قوله « ذات فرع) يريد واسعة يسيل دمها والزبد أصله الرغوة التي تعلو السيل وأراد به هنا ما يعلو الدم الذي ينبثق من الطعنة .

(٢) الحرَّان الشديد العطش والمراد به المتعطش للقتل .

(٣) الجدث القبر .

قال ابن إسحاق : ثم إن القوم تهيئوا للخروج ، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودّعه ، ثم قال :

فثبَّت الله ما آتاك من حَسَنٍ تَثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نُصروا
إني تَفَرَّسْتُ فيكَ الخيرَ نافلةً الله يعلم أني ثابتُ البصَر
أنتَ الرسولُ فمنْ يُحْرَمْ نوافله والوجْهَ منه فقد أزرى به القدرُ

قال ابن هشام : أنشدني بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات :

أنتَ الرسول فمن يحرم نوافله والوجْهَ منهُ فقد أزْرَى به القَدَرُ
فثبَّت الله ما آتاك من حسَن في المرسلين ونصرًا كالذي نُصروا
إني تفرّست فيك الخير نافلة فراسة خالفتْ فيك الذي نظروا

يعني المشركين ، وهذه الأبيات في قصيدة له (١) .

في هذا الخبر مواقف منها ما كان من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حينما بكى لَمّا تذكر قول الله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ وقوله : فلست أدري كيف لي بالصدَر بعد الورود ! وهو موقف من مواقف الخوف والخشية يدل على قوة تمثُّل الحياة الآخرة في فكر ابن رواحة وحضور قلبه مع أهوالها .

وقد ورد في معنى الآية مارواه ابن أبي حاتم والطبري من حديث عبد الله بن مسعود قال : يَردُ الناس جميعا الصراط ، وورودهم قيامهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٤ ، ورواه الإمام الطبراني من حديث عروة بن الزبير رحمه الله ورضي عن أبيه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات إلى عروة - مجمع الزوائد ٦/ ١٥٧ - ١٥٩ - .

حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمرُّ مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعَدْو الرجل ، حتى إن آخرهم مَرّاً رجل نوره على موضع إبهام قدميه ، يمر فيتكفَّأ به الصراط ، والصراط دَحْض مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد[1] ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[2] .

وقوله « فمنهم من يمر كالبرق » الخ هو معنى قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] .

* * *

(١) القتاد شجر صلب له شوكة كالإبر (القاموس المحيط) .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤١ .

٣ - خروج المسلمين ووصولهم ومشورتهم -

قال ابن إسحاق : ثم خرج القومُ ، وخرج رسولُ الله ﷺ ليُشَيِّعهم حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم ، قال عبد الله بن رواحة :

خَلَفَ السلامُ على امْرئ ودّعته ... في النَّخْل خيرَ مُشَيِّع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان ، من أرض الشام ، فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآب ، ، من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم ، وانضمّ إليهم من لخم وجُذام والقَيْن وبَهْراء وبَليّ مئة ألف منهم ، عليهم رجل من بلي ثم أحدُ إرَاشة ، يقال له : مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبرُه بعدد عدوّنا ، فإمَّا أن يُمدّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضي له .

قال : فشجع الناسَ عبدُ الله بنُ رواحة ، وقال : يا قوم ، والله إنَّ التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناسَ بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين : إما ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابنُ رواحة ، فمضى الناس ، فقال عبد الله بن رواحة في مَحبسهم ذلك :

جَلَبْنا الخَيلَ من أجَإٍ وفَرْعٍ ... تُغَرُّ مِن الحَشيش لها العكُومُ[1]

---

(١) أجأ بفتح أوله وثانيه وفي آخره همزة هو أحد جبلى طيء والآخر يقال له سلمى ، وفرع ويقال أيضا فرغ بالغين المعجمة اسم موضع ، وتغرّ يعني تطعم قليلا قليلا ، والعكوم جمع عكم بكسر فسكون وهو ما يشد ويجمع به من ثوب ونحوه .

حَـذَوْناها من الصَّـوَّان سِبْتًا | أزلَّ كـــأنَّ صَفْحــتَه أديمُ(١)
أقـــامَت لَيلَتين عـلى مَعان | فأعــقب بعدَ فترتها جُمُـومُ(٢)
فُـــرحْنا والجياد مُسَـوَّمات | تَنَفَّسُ في مَناخرها السَّمُـومُ(٣)
فَــــلا وأبي مآبَ لنأتيَنْها | وإن كـانت بها عَـربٌ ورُومُ
فَـعَبّأْنا أعنَّتـها فَـجـــاءتْ | عَـوابسَ والغُـــبارُ لَها بَريم (٤)
بـــذي لَجب كأنّ البيْض فيه | إذا بَـــرزتْ قوانسها النُّجُومُ(٥)
فـــــراضية المَعيشة طلّقَتهَا | أسنَّـتها فتنْكـــحُ أو تَـئيمُ

قال ابن هشام : ويروى : « جلبنا الخيل من آجام قُرْح » ، وقوله : «فعبأنا أعنتها » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : ثم مضى الناسُ ، فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث عن زيد بن أرقم ، قـال : كنت يتيـمـا لعبـد الله بن رواحـة في حجْره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حَقيبة رَحله ، فو الله إنه ليسير ليلةً إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه :

(١) حذوناها : جعلنا لها أحذية وهي النعال ، والصوان الحجارة الملساء ، والسبت بكسر السين النعال التي تصنع من جلد مدبوغ ، وأزل يعني أملس ، والأديم الجلد .
(٢) معان : كسحاب اسم موضع بالأردن ، والجموم الاستراحة التي يعقبها النشاط والاستعداد للكَرّ.
(٣) مسومات : هو من السوم بمعنى الرعي أي مرسلات في المرعى أو من السمة بمعنى العلامة أي معلمات .
(٤) الأعنة : جمع عنان بكسر العين وهو اللجام ، ومعنى عبأنا هيأنا ، والبريم يعني به الحزام .
(٥) بذي لجب : أي بجيش كبير له حركة وصوت ، والقوانس جمع قونس وهو أعلى البيضة .

إذا أدَّيْتني وحملت رَحْلي مسيرةَ أربع بعدَ الحساء (١)
فشأنُك أنعُمٌ وخلاك ذمٌّ ولا أرجعْ إلى أهل ورائي (٢)
وجاء المسلمون وغادَروني بأرض الشام مُشتهيَ الثّوَاء (٣)
وردّك كلُّ ذي نسب قَريب إلى الرحمن مُنقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلعَ بَعْل ولانَخْل أسافلُها رواء (٤)

فلما سمعتهنّ منه بكيت . قال : فخفقني بالدِّرَّة (٥) وقال : ماعليك يالُكَعْ (٦) أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شُعْبتي الرّحْل ! .

قال : ثم قال عبد الله بن رواحة في بعض سفره ذلك وهو يرتجز :

يازيدُ زيدَ اليَعْمَلات الذُّبَّل تطاول الليلُ هُديتَ فانزل (٧)(٨)

في هذا الخبر مواقف منها :

---

(١) الحساء هنا جمع حسي بكسر فسكون وهو ماء يغور في الرمل إذا نقب عنه وجد .

(٢) قوله (فشأنك أنعم وخلاك ذم) أي قد أديت ما عليك فلا عتب ولا لوم عليك ، وقوله (ولا أرجع) بسكون العين مجزوما على الدعاء كأنه يدعو على نفسه أن يستشهد في هذه الغزوة فلا ينقلب بعدها إلى أهله .

(٣) الثواء الإقامة يقال ثوى بالمكان يثوى ثواء أقام .

(٤) البعل هو الذي يشرب بعروقه من الأرض ويقابله العذى وهو الذي يشرب من ماء المطر ، ورواء بكسر الراء هو الأخضر الناعم من أغصان الشجر وغيرها واحده ريا أنثى الريان .

(٥) أي ضربني بالسوط ضربًا خفيفًا .

(٦) يعني يالئيم .

(٧) اليعملات جمع يعملة وهي الناقة السريعة الذؤوب في السير ، والذبَّل التي أضعفها طول السفر فهزلت وقل لحمها .

(٨) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٤ – ٥٠٧ ، وهو بقية حديث عروة السابق انظر ص ١١٠ .

أولا : توقف القادة لمدة يومين لإجراء المشورة مع أهل الرأي من المسلمين ، والشورى بين القادة وأهل الر أي هي المنهج السديد الذي طبقه رسول الله ﷺ وعلمه أصحابه ، فالقائد في الإسلام لايستبدُّ بالرأي وحده بل يجب عليه أن يستشير أهل الرأي والخبرة .

وقد رجع الجميع بعد هذه المشورة إلى رأي عبد الله بن رواحة الذي يقضي بالإقدام على قتال الأعداء وإن كان عددهم كبيرا .

وإذا نظرنا إلى عدد المسلمين الذي لايزيد عن ثلاثة آلاف وإلى عدد الكفار الذي يبلغ مائتي ألف تبين لنا أن الأعداء ضِعْفُ المسلمين بأكثر من ست وستين مرة ، ولهذا فإن الذين رأوا التوقف والكتابة لرسول الله ﷺ معذورون لبُعْد النسبة بين الجيشين وأنَّ الدخول في حرب كهذه قد يعتبر مجازفة تضر بسمعة المسلمين .

ثانيًا : موقف عظيم لأولئك الصحابة حيث عزموا على القتال لَمَّا شجعهم ابن رواحة وذكَّرهم بمطلب عزيز لديهم جميعا . وهو الشهادة في سبيل الله تعالى ، وقد لاح لهم موطن من مواطنها حيث يفوقهم الأعداء عددا بأكثر من ست وستين مرة ، وحينما تذكروا هذا المطلب الكريم الذي حدده لهم عبد الله بن رواحة بقوله « فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة » انطلقوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد عن الاستجابة ، وهذا دليل واضح على قوة إيمانهم وصدق عزائمهم إذ أن في واقعهم مع الأعداء غير المتكافئ ما يسوغ تراجعهم عن قتالهم ، ولو كان الجيش يضم مستويات متباعدة في الإيمان لوقع الخلاف بينهم ، فبمثل هؤلاء الأماجد الكرام تُغزَى الأمم وتفتتح الممالك .

وإن هذا المعنى الكريم الذي دعا عبد الله بن رواحة المسلمين إليه هو ما أوصى الله تعالى به المؤمنين أن يخاطبوا به المنافقين المخذِّلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى حيث يقول ﴿ **قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ يعني هل تنتظرون بنا أيها المنافقون في خروجنا لقتال الأعداء من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسْنَى النتائج في مجالَي الحياة والموت ؟ ! فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء . وإما موت كريم بالظفر بالشهادة ، وكلاهما خير وسعادة .

ثالثًا : في هذا الخبر شعور رائع لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ففي الأبيات الأولى يحمِّس المسلمين ويحثهم على الإقدام على جهاد الأعداء ويبين فيها استعدادهم للحرب ، وفي الأبيات الأخيرة يتغنَّى بالشهادة في سبيل الله تعالى ، ولاشك أن الذي يدخل المعركة وهو يتمنى الشهادة ستكون طاقته القتالية مضاعفة .

ثم صار يتمنى الشهادة في قصيدته المذكورة ، وفيها تقوية للمؤمنين ورفع لمشاعر من لم يرتفع منهم إلى هذا المستوى .

* * *

٤ – ابتداء المعركة ومواقف للقادة الثلاثة –

قال ابن إسحاق : فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بتُخوم(١) البلقاء لَقِيَتْهم جموع هرقل ، من الروم والعرب ، بقرية من قُرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدوّ ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعبّأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من عُذرة ، يقال له : قُطْبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له : عَبَاية بن مالك (٢) .

ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتلَ زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شَاطَ في رماح القوم(٣) .

ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فعقرها ، ثم قاتَل القوم حتى قُتل . فكان جعفرٌ أوّلَ رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام .

وحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير ، عن أبيه عباد ، قال : حدثني أبي الذي أرضعني(٤) ، وكان أحَد بني مُرّة بن عوف ، وكان في تلك الغزوة غزوة مُؤتة قال : والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتَحمَ عن فرس له شقراء ، ثم عَقرها ثم قاتَل حتى قُتل وهو يقول :

ياحبَّذا الجنةُ واقترابُها ... طيبَةً وبارداً شرابُها

(١) التخوم هي الحدود التي تفصل بين الأقاليم .

(٢) قال ابن هشام : ويقال عبادة بن مالك .

(٣) شاط أي هلك تقول شاط الرجل إذا سال دمه وهلك .

(٤) أي أبوه من الرضاع .

والـرومُ رومٌ قـد دَنا عذابُها كـافـرةٌ بعـيدةٌ أنسابُها
عَلَيّ إذ لاقيتها ضرابُها [1]

فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رَواحة الراية وتقدَّم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردَّد بعض التردّد ، ثم قال :

أقسمتُ يـانفس لتَنزلـنَّه لتنـزلـنَّ أوْ لتُكْرَهـنّه
إن أجلب الناسُ وشَدّوا الرَّنه [2] مـالي أراك تكرهين الجَنَّة
قـد طـالَ ما قد كنت مُطمئنة هل أنت إلا نُطْفة في شنَّهْ [3]

وقال أيضًا :

يـانفس إلا تُقْتَلي تموتي هذا حمام المَوْت قد صَليت [4]
ومـا تمنَّيت فـقـد أُعْطيت إن تفعلي فعْلهما هُديت

يريد صاحبيه : زيدا ، وجعفرا ، ثم نزل . فلما نزل أتاه ابن عمّ له بعَرْق [5] من لحم فقال : شُدّ بهذا صُلْبَك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ثم انتهَس منه نهْسَةً ثم سمع الحَطْمَة في ناحية

(١) قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل العلم : أن جعفَر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعتْ ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضُديه حتى قُتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء . ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة ، فقطعه بنصفين .

(٢) الرنة صوت فيه ترجيع كالبكاء .

(٣) أي ماء مهين أودع في قربة قديمة .

(٤) أي ذقت حره .

(٥) العَرْق بفتح العين وسكون الراء العظم فيه شيء من اللحم .

الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدّم ، فقاتل حتى قُتل"[1] .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

أولا : في هذا الخبر صور من الشجاعة والبطولة ، فقد غامر القائد الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه بنفسه حتى هلك بين رماح الأعداء بعدما بذل جهدا كبيرا في جهادهم .

وأظهر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شجاعة فائقة حينما عقر فرسه تحدِّيًا للأعداء ، وإيذانًا بالثبات أمامهم مهما تكن الظروف والأحوال .

وفي شَدْوه بالجنة ونعيمها في شعره دليل على تمثل مشاهد الحياة الآخرة في أذهان ذلكم الجيل الرباني ، وكونُه ربَط ذلك بتهديد الكفار عند اللقاء بالتصميم على القتال شاهد على أثر الإيمان بالآخرة في سلوك هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم في السلم والحرب ، فإن الذي يندفع إلى إزهاق نفسه من أجل الظفر بنعيم الجنة سيدفع ماهو أهون من ذلك من أجلها .

ولقد وردت أحاديث تدل على قوة احتمال جعفر وصبره على القتال ، فقد أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٨ - ٥١١ .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الطبراني وقال : رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٥٩ -١٦٠ .

عنهما قال : « أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية» (١) .

فأي قوة كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل ؟ وماهذا الصبر الحديدي الذي تغلَّب به على آلام أكثر من تسعين جرحا في جسده قبل أن يَخرَّ صريعا ؟ وإذا كانت هذه السهام هي التي أصابته فكم هي السهام التي اتَّقاها أو طاشت عنه ؟ !

لاشك أنه مَثَلٌ رائع لعظماء الرجال ، وأنه بصبره العظيم قد جعل من نفسه قدوة عالية لأفراد جيشه .

وإنني لأعجب من جعفر وقوة احتماله ومقدرته على خوض مثل هذه المعركة العنيفة مع أنه قضى أكثر من عشرة أعوام في الحبشة في حياة هادئة وقبل ذلك عاش في مكة ولم يكن فيها قتال ، ثم يتحمل تسعين إصابة قبل أن يخرَّ صريعا مع جهد القتال !

ولكن إذا تذكرنا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكثرون من الصلاة وخاصة صلاة الليل علمنا أن الصلاة تمنحهم قسطا كبيرا من الرياضة البدنية ، إلى جانب اهتمامهم بالرماية وركوب الخيل وغير ذلك من فنون القتال .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦١ (٧/ ٥١٠) .

أما القائد الثالث وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فإنه أخذ الراية وتقدم بها ، وقد جاء في الرواية أنه جعل يَستنْزل نفسه ويتردد بعض التردد .

إنه حينما تردد بعض الشيء وألحَّ على نفسه لتُقْدم على تحمل القيادة لم يكن قبل ذلك بمعزل عن القتال ، بل كان يقاتل كجندي من المسلمين ، فلما آلت إليه مسئولية قيادة هذا الجيش وهو يصارع الأهوال حصل منه ماحصل من بعض التردد ، خصوصا وأن القائد الذي يحمل الراية يكون مستهدفًا من قبَل الأعداء ، وتُركَّز عليه الهجمات القوية ، وإنَّ تردده هذا وإن كان يسيرا مع استعداده للشهادة وتمنِّيه إياها منذ أن كان في المدينة وحثه أصحابه على دخول هذه المعركة لَيَدُلُّنا على ضراوة هذه المعركة وشدة وطئها على المسلمين لضآلة عددهم إلى جانب عدد الأعداء .

وإن في هذه الأبيات الشعرية التي صدرت من هذا الصحابي الجليل قبيل استشهاده لعبرةً عظيمة ومثلاً عاليا في محاسبة النفس وتعنيفها على التكاسل والتخاذل عن الوصول إلى معالي الأمور ، فهو يُقسم على نفسه أن تنزل طائعة أو مكرهة إلى ساحة المعترك الدامي ، ويُذكِّرها بأن التردد في ذلك يُعتبر عزوفًا عن طلب الجنة ، كما يذكرها بماضيها المطمئن حيث عاشت طويلا في دعة وسكينة فما عليها لو صبرت لحظات في مواجهة الأهوال التي يعقبها السعادة الدائمة ، ولاينسى تذكيرها بأنها لم تكن شيئًا مذكوراً في بداية خلقها .

ثم يعود في البيتين الأخيرين إلى تذكير نفسه بأنها لا مفرَّ لها من الموت فليكن الموت بالشهادة التي طالما تمناها قبل ذلك، إلى أن أقدم رضي الله عنه فنال ما تمنى من ذلك .

* * *

٥ - موقفان لثابت بن أقرم -

١ - قال الواقدي : فحدثني ربيعة بن عثمان . عن المقبري ، عن أبي هريرة . قال : شهدتُ مُؤتة . فلما رأينا المشركين رأينا ما لاقبَل لنا به من العَدَد والسلاح والكراع[(١)] والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصري ، فقال لي ثابت بن أقرم[(٢)] : يا أبا هريرة . مالك ؟ كأنك ترى جموعًا كثيرةً. قلت : نعم . قال : تشهدنا ببدر ؟ إنَّا لم نُنصَر بالكثرة![(٣)] .

وهكذا كان ثابت بن أقرم ثابت الجأش لم يتأثر بكثرة الروم ليقينه بأن النصر ليس بكثرة الجيش وإنما هو بتأييد الله ونصره ، وذلك مترتب على تحقيق أسباب النصر التي منها وأهمها التوكل على الله تعالى وحده ومنها الصبر ، وطاعة القائد ، واتفاق الكلمة .

٢ - قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح ، عن رجل من العرب ، عن أبيه ، قال : لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قطُّ في كل وجه . ثم إن المسلمين تراجعوا . فأقبل رجلٌ من الأنصار يُقال له ثابت بن أقرم ، فأخذ اللواء وجعل يصيح بالأنصار ، فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجه وهم قليل وهو يقول : إليَّ أيُّها الناس! فاجتمعوا إليه . قال : فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد فقال : خُذ اللواء يا أبا سُليمان ! فقال : لا آخذُه ، أنت أحقّ به ، أنت رجلُ لك سنٌّ، وقد شهدتَ بدرًا . قال ثابت : خُذْه أيُّها الرجل فو الله ما أخذته إلا لك ! فأخذه خالدٌ فحمله ساعة ، وجعل المشركون يَحملون عليه ،

---

(١) يعني الخيل .

(٢) هو ثابت بن أقرم البلوي حليف الأنصار رضي الله عنه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٠ .

فثبت حتى تكَرْكَر المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جَمعًا من جمعهم ، ثم دهمه منهم بَشَرٌ كثيرٌ ، فانحاش المسلمون فانكشفوا راجعين [1] .

فهذا الموقف يذكر لثابت بن أقرم حينما جمع المسلمين أولاً ثم حينما أعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد ، ولم يحتفظ بالراية له لكونه شهد بدراً وله سمعة عند قومه من الأنصار ، وهذا دليل على تجرّده من حظ النفس وإخلاصه لدينه ، فقد اختار أعظم الموجودين خبرة بالحرب وأقواهم على القيادة وإن كان من غير قومه .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٣ .

٦ - نهاية المعركة وموقف لخالد بن الوليد -

جاء في رواية ابن إسحاق أن خالد بن الوليد لما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

وهذا يعني أن خالدًا قد انسحب بالمسلمين من المعركة انسحابا منظَّما لم يتبعه ملاحقة من الأعداء ، وأنه لم يحصل للمسلمين نصر على اعدائهم .

وذكر قول المسلمين للجيش لما رجعوا « يافُرَّار فررتم في سبيل الله» وقول النبي ﷺ « ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله » (١) .

أما القول الآخر فهو أن المسلمين قد انتصروا على أعدائهم نصرًا مؤزرًا وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة .

وبهذا قال الإمام الزهري كما في رواية أخرجها الإمام الطبراني عنه أنه قال بعد ذكر المعركة باختصار : وأخذ اللواء زيد بن حارثة فقُتل ثم أخذه جعفر فقتل ثم أخذه ابن رواحة فقتل ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رجاله ثقات(٢) .

وذكر الواقدي هذا القول عن عطاف بن خالد قال : لما قُتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا ، وقد جعل مُقدِّمته ساقته ، وساقته مُقدمته ، ومَيمنته ميسرته ، وميسرته مَيمنته ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم ، وقالوا : قد جاءَهم مَدَدٌ ! فرُعبوا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥١١ ، ٥١٥ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٦٠ .

فـانـكشفوا مُـنهزمين ، فـقُتـلوا مَـقتلة لـــم يُقـتلها قـــومٌ[1] .

وهذا القـول هو الراجح لأنه هو الذي يتـفق مع مـا أخـرجـه الإمـام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »[2] .

فـهـذا صريح في أن المسلمين قد انتـصـروا على أعـدائهـم في نهـاية المعركة .

أما الأخبار التي فيها أن أهل المدينة قالوا لأهل مؤتة « أنتم الفَرَّارون » فقد حملها الحافظ ابن كثير على طائفة قليلة فروا من المعركة وجاؤوا إلى المدينة، فاشـتبه الأمر على بعض ا لمؤرخين فنسبوا هذه الأخـبـار لعـمـوم الجيش .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير شواهد على أن الفرار كان من فئة قليلة ، ومن ذلك ما أخرجه ابن إسحاق عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة : مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج، وكلما خرج صاح به الناس ، يافُرَّار فررتم في سبيل الله ، حتى قعد في بيته فما يخرج ، وقد ذكر هذا الخبر ابن إسحاق في أخبار غزوة

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦٢ ، (٧/ ٥١٢) .

مؤتة (١) . وهؤلاء الذين يُشهَّرون بسلمة وأصحابه لم يعلموا بعذر النبي ﷺ لهم ، أو أنهم قالوه قبل العذر .

وكون هذا التشهير حصل لأفراد من الجيش دليل واضح على أن المراد هؤلاء النفر وليس عموم الجيش .

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين القولين بقوله « ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين ، وهو أن خالدًا لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلَّصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة ، فلما أصبح وحوَّل الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، كما ذكره الواقدي توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين ، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله والله أعلم » (٢) .

أما ما تشتمل عليه أخبار آخر المعركة من المواقف فإن خبر عطاف بن خالد الذي أخرجه الواقدي يبين براعة خالد بن الوليد الحربية حيث جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته ، فأوهم العدو أن المسلمين قد تلقَّوا مددا جديدا وأصبحت كل طائفة من الأعداء ترى وجوها غير الذي رأتها بالأمس ، وهذا مثل من أمثلة عبقريته القيادية ، فلقد كان لخُطَّته هذه - بعد توفيق الله تعالى - أبعد الأثر في إثارة الرعب لدى الأعداء وإصابتهم بالفشل ، حتى وقع ما يشبه خوارق العادات من انتصار جيش صغير على جيش ضخم يفوقه في العدد بأكثر من ست وستين مرة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥١٥ - ٥١٦ .

البداية والنهاية ٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ٤/ ٢٤٨ .

ولقد بذل خالد جهدا عظيما في تلك المعركة ، وقد صور هذا الجهد بقوله « لقد انقطعَتْ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبَرَتْ في يدي صفيحة لي يمانية » أخرجه الإمام البخاري (١) .

وهذا يدل على ضراوة هذه المعركة ، والجهد الكبير الذي بذله الصحابة رضي الله عنهم فيها .

وقد أثنى النبي ﷺ على خالد بقوله « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » ، وهذا يدل على شجاعته الفائقة ، وإخلاصه التام وتجرده من حظ النفس رضي الله عنه .

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦٥ (٧/ ٥١٥) .

٧ - موقف إداري لرسول الله ﷺ -

أخرج الإمام مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قتل رجل من حِمْيَر رجلا من العدو فأراد سَلَبه ، فمنعه خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسولَ الله ﷺ عوفُ بن مالك فأخبره ، فقال لخالد : ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال : استكثرته يارسول الله ، فقال : ادفعه إليه ، فمرَّ خالد بعوف فجرَّ رداءه ، ثم قال : هل أنجزت لك ماذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستُغْضب فقال : لا تعطه ياخالد ، لاتعطه ياخالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل اسْتُرعيَ إبلا أو غنما فرعاها ، ثم تحيَّن سقيها فأوردها حوضا فشرَبْت فيه ، فشربت صفْوه وتركت كدَره ، فَصَفْوُه لكم وكدره عليهم .

وفي رواية أخرى لمسلم من حديث عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مَدَديّ من اليمن ، قال : وساق الحديث عن النبي ﷺ بنحوه (١) .

فهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم ، فهم بشر معرضون للخطأ ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولا إهانة ، فخالد حينما منع ذلك المجاهد سلَبه لم يقصد الإساءة إليه ، وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة ، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد ، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٧٥٣ ، كتاب الجهاد (ص ١٣٧٣) .

المجاهدين ، ولم يكن يعلم أن الحكم الشرعي في ذلك يقضي للقاتل بسلب المقتول وإن كان كبيراً .

وعوف بن مالك أدَّى مهمته في الإنكار على خالد ، ثم في رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله ، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك ، لأنه - والحال هذه - قد دخل في أمر من أمور الإصلاح ، وقد تم الإصلاح على يده ، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية ، فأظهر شيئًا من التشفِّي من خالد ، ولم يقرَّه النبي ﷺ على ذلك ، بل أنكر عليه إنكارًا شديدًا وبيَّن حق الولاة على جنودهم .

وكون النبي ﷺ أمر خالدًا بعدم رد السلَب على صاحبه لايعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع ، لأنه لايمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنسانًا بجريرة غيره ، فلابد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى ، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر .

* * *

مواقف وعبر

فى سرية ذات السلاسل

١ – مثل من إخلاص عمرو بن العاص –

أخرج الإمام ابن حبان من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ياعمرو اشدُد عليك سلاحك وثيابك ، قال : ففعلت ثم أتيته فوجدته يتوضأ ، فرفع رأسه فصعَّد فيَّ البصر وصوَّبه ، ثم قال : ياعمرو إني أريد أن أبعثك وجهًا يسلِّمك الله ويغنِّمك ، وأرغب لك في المال رغبة صالحة ، قال قلت : يارسول الله لم أسلم رغبة في المال وإنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك ، قال : ياعمرو نعمًّا المال الصالح للرجل الصالح » (١) .

فهذا موقف يذكر لعمرو بن العاص رضي الله عنه في الإخلاص لله جل وعلا ولرسوله ﷺ والإسلام ، فقد كان النبي ﷺ يريد أن يتألَّفه ليزيد ثباته على الإسلام ، فتبين من جوابه قوة إيمانه وصدق نيته ، وقد أبان له النبي ﷺ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح ، لأنه يبتغي به وجه الله تعالى ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته .

* * *

(١) موارد الظمآن رقم ٢٢٧٧ ص ٥٦٦ .

٢ - موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص -

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بني عذرة ، وكان من حديثه أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر الناس إلى الشام . وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بَليّ ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يَستألفهم لذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جُذَام ، يُقال له السلسل ، وبذلك سميت تلك الغزوة ، غزوة ذات السلاسل ، فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدهُ ، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لاتختلفا .

فخرج أبو عُبيدة حتى إذا قَدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئتَ مددًا لي ، قال أبو عُبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلا لَيّنًا سَهلاً ، هيّنًا عليه أمر الدنيا فقال له عمرو: بل أنت مددٌ لي ، فقال أبو عُبيدة : ياعمرو ، إن رسول الله ﷺ قال لي : لاتختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتُك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مَدَدٌ لي ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس (١) .

وفي رواية موسى بن عقبة : « أن المحاورة كانت بين المهاجرين أصحاب أبي عبيدة وبين عمرو بن العاص » (٢) وهذه الرواية أقرب وأشبه بأخلاق أبي عبيدة رضي الله عنهم جميعا .

في هذا الخبر مواقف منها :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٥١٦ .

أولاً : في هذا الخبر مثل من الأخلاق الإسلامية التي كان يتحلى بها الصحابة رضي الله عنهم وذلك في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

إن موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص ليبين لنا سراً من أسرار انتصار المسلمين في عصرهم الأول حيث تجردوا من حظ النفس ونظروا إلى مصلحة الجماعة ، فلو أن أبا عبيدة تصرف تصرفا مضاداً فأصرَّ على التمسك بالإمرة وأصر عمرو على التمسك برأيه لحصل الشقاق والنزاع بين الطائفتين ، وهذا عامل خطير من عوامل الانهزام قبل الدخول في المعركة .

إن حب الرئاسة والإمرة أمر مركوز في بعض النفوس ، وإن مقدرة الإنسان على تحجيم نفسه وإيقافها عند حدود اعتبار المصلحة العامة وإن تعارضت مع المصلحة الخاصة . . إن ذلك أمر كبير يحتاج إلى قوة عالية من الإيمان ، وهذا ما حصل من أبي عبيدة رضي الله عنه .

ثانيًا : أمر آخر لابد من الإشارة إليه ، وهو الحكمة البالغة من وصية النبي ﷺ لأبي عبيدة بقوله حين وجَّهه « لاتختلفا » فقد كان يدرك أن مقام أبي عبيدة عند المسلمين أعلى من مقام عمرو بن العاص لسَبْق أبي عبيدة في الإسلام ودماثة خلقه التي تحبِّبه إلى الناس ، فكان يخشى أن يحمله أصحابه على التمسك برأيه ، كما أنه يخشى أن يتمسك عمرو برأيه فيحصل الخلاف ثم النزاع فقدَّم ﷺ حلا لمشكلة يتوقع حصولها فحصلت ونفع الله أبا عبيدة بهذه الوصية ، فكان فيها علاج هذه المشكلة ، وهكذا تكون البراعة في القيادة وتدبير أمور الناس .

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمرو بن العاص هو الذي صلى بالناس مع أنه حديث العهد بالإسلام ومعه في الجيش أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم من السابقين في الإسلام ، وذلك لأنه كان هو أمير السرية ، وكذلك الحال في كل القيادات والولايات في الإسلام ، وإن في ذلك لَحِكَمًا عظيمة من أبرزها ربط جميع أمور الدنيا بالدين ، وأن يكون لدى القادة والولاة إلمام بأحكام الدين وحفظ للقرآن بما يكفي للإمامة والخطابة ، وهذا يعني أن الكفاءة للولاية مرتبطة بالكفاءة في الإمامة .

* * *

٣ - خبر رافع الطائي مع أبي بكر -

قال ابن إسحاق : وكان من الحديث في هذه الغزاة : أن رافع بن أبي رافع الطائيَّ ، وهو رافع بن عميرة ، كان يحدّث - فيما بلغني - عن نفسه قال : كنت امرءًا نصرانيا ، وسُمِّيت سَرْجس . فكنت أدَلَّ الناس وأهداهم بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرملَ غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه ، حتى أمرَّ بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام فأستخرجه ، فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل .

قال : فقلت : والله لأختارنّ لنفسي صاحبا ، قال : فصحبت أبا بكر ، قال : فكنت معه في رحله ، قال : وكانت عليه عباءة له فدكية ، فكان إذا نزلنا بسطها ، وإذا ركبنا لبسها ثم شكها عليه بخلال له ، قال : وذلك الذي له يقول أهل نجد حين ارتدّوا كفَّارا : نحن نبايع ذا العباءة .

قال : فلما دنونا من المدينة قَافلينَ ، قال : قلت : يا أبا بكر ، إنما صحبتك لينفعني الله بك ، فانصحني وعلمني ، قال : لو لم تسألني ذلك لفعلت ، قال : آمرك أن توحد الله ولاتُشرك به شيئًا ، وأن تقيم الصلاة ، و أن تؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج هذا البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولاتتأمَّر على رجلين من المسلمين أبدا . قال : قلت : يا أبا بكر ، أما أنا والله فإني أرجو أن لا أشرك بالله أحدًا أبدا ، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله ، وأما الزكاة فإن يك لي مال

أؤدها إن شاء الله ، وأما رمضان فلن أتركه أبداً إن شاء الله ، وأما الحج فإن أستطع أحجّ إن شاء الله تعالى ، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله ، وأما الإمارة فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشرفُون ، عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها ، فَلِمَ تنهاني عَنها ؟

قال : إنك إنما استجهدتني لأجْهَدَ لك ، وسأخبرك عن ذلك : إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين ، فجاهَدَ عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا و كرهًا ، فلما دخلوا فيه كانوا عُوَّاذَ الله وجيرانه ، وفي ذمَّته ، فإياك لا تُخْفر الله في جيرانه ، فيتبعَك الله خُفرته [1]، فإن أحدكم يُخفر في جاره ، فَيظلّ ناتئا عَضله [2]، غضبا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير ، فالله أشدّ غضبا لجاره . قال : ففارقْته على ذلك .

قال : فلما قُبض رسول الله ﷺ ، وأُمِّر أبو بكر على الناس قال : قَدمت عليه ، فقلت له : يا أبا بكر ، ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، قال : فقلت له فما حملك على أن تلي أمر الناس ؟ قال : لا أجد من ذلك بُدًا ، خشيت على أمَّة محمد ﷺ الفرقة [3] .

في هذا الخبر وصية نافعة من أبي بكر الصديق لرافع بن أبي رافع الطائي رضي الله عنهما ، وقد ذكر في هذه الوصية أركان الإسلام مع وضوحها أمام السائل وذلك لبيان أهميتها في الإسلام ، إذ أن البناء يقوم

---

(١) أي يجازيك على غدرك بذمته .

(٢) أي تبرز عضلاته من الغضب .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩١ - ٣٩٣ .

على الأركان فإذا وقع الخلل في الأركان سقط البناء ، والوصية بإقامة هذه الأركان لا تعني مجرد أدائها وإنما تعني إقامتها كاملة مع النية الخالصة وحضور القلب مع الله تعالى ، فإذا أقيمت كاملة كما شرعها الله جل وعلا فإنها تُقَوِّي الإيمان وتبعث على التقوى ويترتب عليها السلوك الإسلامي في كل شئون الحياة ، فلا غرابة في اشتمال وصية أبي بكر على العناية بهذه الأركان .

وإن أبرز ما لفت نظر رافع الطائي في هذه الوصية أن لا يتأمر على رجلين ، وقد ناقش أبا بكر في ذلك فأفاده بأن المسلمين جيران الله تعالى العائذون به ، وإن ارتكاب الوالي الظلم معهم والتقصير في حقوقهم يعتبر إخفاراً لذمة الله تعالىٰ في عباده ، وإن كان إذا عدل فيهم وأوصل إليهم حقوقهم وأخلص النية حصل له الثواب على هذا العمل الصالح ، لكن أبا بكر قدَّم درء المفاسد على جلب المصالح ، وقد ائتمنه ذلك الرجل النصيحة فنصحه بما يراه الخير له في هذا الأمر .

* * *

٤ - خبر عوف بن مالك مع أبي بكر وعمر -

قال ابن إسحاق : أخبرني يزيد بن أبي حبيب أنه حُدِّث عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال كنت في الغَزاة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ، قال فصَحبت أبا بكر وعمر ، فمررتُ بقَوم على جَزُور لهم قد نحروها ، وهم لا يقدرون على أن يُعضُّوها (١) ، قال : وكنت امْرأ لَبِقا جازرا ، قال : فقلت أتعطوني منها عشيرا على أن أقسمها بينكم : قالوا : نعم ، قال : فأخذت الشفرتين . فجزأتها مكاني . وأخذت منها جُزْءًا فحملته إلى أصحابي . فاطَّبخناه فأكلناه . فقال لي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : أنَّى لك هذا اللحم يا عوف ؟ قال : فأخبرتهما خبره . فقال : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا . ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك .

قال : فلما قفل الناس من ذلك السفر ؛ كنت أوّل قادم على رسول الله ﷺ . قال : فجئته وهو يصلي في بيته . قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . قال : أعوْفُ بن مالك ؟ قال : قلت : نعم . بأبي أنت وأمي . قال : أصاحب الجَزور ؟ ولم يزدني رسول الله ﷺ على ذلك شيئا (٢) .

في هذا الخبر مواقف : منها ما كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من التحري الشديد عن خلو طعامهما من أي شبهة ، وهذا يعتبر قمة في السلوك الإسلامي المبني على التقوى والورع ، كما أنه يعتبر من

---

(١) أي يقتسمونها .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

المؤهلات التي جعلت من أبي بكر وعمر قمة عالية في تاريخ الإسلام ، فإن السلوك اليومي للمسلم دليل على مقدار إيمانه بالله تعالى ، فإذا حماه إيمانه من الوقوع في المحارم فهذا دليل على قوة إيمانه ، وإذا تورع عن الشبهات فإن هذا دليل على رفعة درجته في الإيمان ، والإيمان مستقر في القلوب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، وإنما يتفاضل الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح الذي يقاس به الإيمان .

* * *

٥ – موقف قائد السرية وأصحابه في جهاد الأعداء

وقد أخرج محمد بن عمر الواقدي هذا الخبر عن عدد من الرواة قالوا : بلغ رسول الله ﷺ أنّ جَمْعا من « بَلي وقضاعة » قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ . . . ثم ذكر الخبر بنحو رواية ابن إسحاق .

وقد أضاف الواقدي في روايته ما يوضح نتائج هذه السرية حيث يقول : فآب إلى عمرو جَمْعٌ – فصاروا خمسمائة – فسار الليل والنهار حتى وَطِئَ بلاد بَلِيٍّ ودَوَّخها . وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جَمْعٌ فلمّا سمعوا به تفرّقوا . حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَلِيٍّ وعُذرة وبَلقَيْن ، ولقي في آخر ذلك جَمْعًا ليس بالكثير ، فقاتلوا ساعَةً وترامَوْا بالنَّبْل ، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة بسَهم فأصيب ذراعه . وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هربًا في البلاد وتفرّقوا ودوّخ عمرو ما هناك وأقام أيامًا لايسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه[(١)] . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنَّعَم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، لم يكن في ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تُقسم إلا ماذُكر له[(٢)] .

فهذا الخبر يبين ما جرى من عمرو بن العاص ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم في جهاد الأعداء ، ولقد كان من نتائج هذه السرية أن المسلمين بثوا الرعب في قبائل شمال بلاد العرب وحالوا بينهم وبين

(١) يعني إلا سار إليهم .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٧١ .

التجمع لغزو المسلمين ، كما أنهم سيحسبون حسابا كبيرا لغزو المسلمين بلادهم مرة أخرى فيما لو أظهروا شيئًا من العداء لدولة الإسلام .

* * *

مواقف وعبر

بين ذات السلاسل وفتح مكة

١ – مثل من الفدائية ونصر الله تعالى أولياءه –
(سرية ابن أبي حَدرد إلى رفاعة الجشمي)

قال ابن إسحاق : وغزوة ابن أبي حَدرد الأسلمي الغابة وكان من حديثها – فيما بلغني – عمن لا أتهم ، عن ابن أبي حدرد قال : تزوجت امرأة من قومي ، وأصْدَقْتها مئتي درهم ، قال : فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحي ، فقال : وكم أصدقت : فقلت : مئتي درهم يارسول الله ، قال : سبحان الله ، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم ، والله ماعندي ما أُعينك به .

قال : فلبثت أياما ، وأقبل رجل من بني جُشم بن معاوية ، يقال له : رفاعة بن قيس ، أو قيس بن رفاعة ، في بطن عظيم من بني جشم ، حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة ، يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ ، كان ذا اسم في جُشم وشرف ، قال : فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين معي من المسلمين ، فقال : أخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم . قال : وقدّم لنا شارفا عجفاء (١) ، فحمل عليها أحدنا ، فو الله ما قامت به ضعفا حتى دَعَمها الرجال من خلفها بأيديهم ، حتى استقلت وماكادت ، ثم قال : تبلّغوا عليها واعتقبوها .

قال : فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبْل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريبا من الحاضر (٢) عُشَيْشيةً مع غروب الشمس ، قال : كمنْت في ناحية ، وأمرت صاحبيّ فكَمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم ، وقلت

---

(١) أي ناقة مسنة هزيلة .

(٢) أي مكان إقامة القوم .

لهما : إذا سمعتماني قد كبَّرت وشددت في ناحية العسكر فكبرا وشُدًّا معي .

قال : فو الله إنَّا لكذلك ننتظر غرَّة القوم ، أو أن نُصيب منهم شيئًا ، قال : وقد غشينا الليل حتى ذهبت فَحمة العشاء ، وقد كان لهم راع قد سرّح في ذلك البلد ، فأبطأ عليهم حتى تخوّفوا عليه . قال : فقام صاحبهم ذلك رفاعةُ بن قيس ، فأخذ سيفه ، فجعله في عنقه ، ثم قال : والله لأتبعنَّ أثر راعينا هذا ، ولقد أصابه شر ، فقال له نفر ممن معه : والله لاتذهب ، نحن نكفيك ، قال : والله لايذهب إلا أنا ، قالوا : فنحن معك قال : والله لايتبعني أحد منكم ، قال : وخرج حتى يمرَّ بي ، قال : فلما أمكنني نفحته بسهمي ، فوضعته في فؤاده ، قال : فو الله ماتكلم ، ووثبت إليه ، فاحتززت رأسه . قال : وشددت في ناحية العسكر ، وكبَّرت وشدّ صاحباي وكبَّرا قال : والله ما كان إلا النجاة ممن فيه : عندك عندك ، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم ، وماخفَّ معهم من أموالهم ، قال : واستقنا إبلا عظيمة ، وغنما كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، قال : وجئت برأسه أحمله معي ، قال : فأعانني رسولُ الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرا في صَداقي فجمعتُ إليَّ أهلي (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : موقف الرسول ﷺ من المغالاة في المهور ، حيث أنكر على من تجاوز حدَّ القصد والاعتدال في المهر ، وهذا دليل على أن المشروع

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠٠ - ٤٠٢ .

في المهر هو التيسير والاقتصار على حد الكفاية ، مع أن هذا الصحابي الجليل لم يزد على مئتي درهم ، لكنها في ذلك العهد تعتبر مقدارًا كبيراً بالنسبة لأوساط الناس ، فليت المسلمين اليوم يتعلمون من هذا الدرس النبوي الكريم ما يدفعهم إلى الاعتدال واجتناب المغالاة والتفاخر .

ثانيًا : في هذه القصة العجيبة عبرة ، حيث تغلب ثلاثة نفر على جيش كبير قد تجمَّع حول قائده ، وقَرُب من المدينة يريد أن يلتمس من المسلمين غرَّة فيغير عليهم فقضى الله أمره ورد كيده بهؤلاء الثلاثة .

إن هذه النتيجة الكبيرة تمت بتكاليف قليلة بالنسبة للمسلمين ، وهذا يدلنا أولاً على عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية ، فلقد هيأ سبحانه أسباب النصر لهؤلاء النفر . . من غياب راعي الكفار وتأخره حتى أظلم الليل ، وإصرار أمير القوم على أن يخرج هو لطلبه ، ثم إصراره على أن يخرج وحده ليموت بسهم مسدَّد من يد مسلم غامر بنفسه وبصاحبيه في ظلام ليل حالك وفي مواجهة عدو كبير متربص .

فلما تم تكبير المسلمين وهجومهم بعد غياب قائد الكفار أيقنوا بهلاكه ، ولم يكونوا يتوقعون أن المكبرِّين ثلاثة فقط ليس معهم جيش ، فأصيبوا بالرعب وكان همُّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه وأهله وماله ، ولم يفكروا بالمقاومة فذهبوا في الأرض فرارا ، وخلت دارهم لهؤلاء الثلاثة الذين ساقوا الغنائم إلى المدينة .

وإن من أهم عوامل نصر المسلمين إصابة الأعداء بالرعب القاتل ، الذي هو سلاحٌ مَنَّ الله به على هذه الأمه ، فلقد كان بإمكان هذا الجيش أن يصبر قليلا وأن يردَّ بالرماية على اتجاه عدوه ، ولكنهم لم يفكروا

بالمقاومة ، وإنما كان همهم مقصورا على النجاة بأنفسهم وماخفَّ من أموالهم لهيمنة الرعب على قلوبهم .

ثالثًا : مما ينبغي الإشارة إليه ما كان يتمتع به قائد المسلمين الثلاثة من براعة فائقة في الرمي حيث استطاع في ظلام دامس أن يصيب قلب ذلك الرجل الذي مات في الحال ، وهكذا يجب على أفراد الأمة الإسلامية أن يتمتعوا بمثل هذه المقدرة ليصونوا دينهم وأمتهم .

كما يلاحظ أن هذا القائد كان ماهرًا في التخطيط لتلك المعركة التي لم تكن متكافئة بأي ميزان ، وكان لمهارته وحسن تدبيره واغتنامه الفرص الأثر الواضح في نجاح تلك السرية .

* * *

٢ - مثل من المعاملة الكريمة في الدعوة -
(أسر ثمامة بن أثال وإسلامه)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسولُ الله ﷺ خيلا قبَل نجد . فجاءت برجل من بني حنيفة يُقال له : ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة . فربطوهُ بسارية من سواري المسجد[١] . فخرج إليه رسولُ الله ﷺ فقال « ماذا عندك ياثمامة ؟ » فقال : عندي ، يامحمد خيرٌ . إن تقتل تقتُل ذا دم . وإن تُنْعم تُنعم على شاكر . وإن كنت تُريد المال فسل تُعط منه ماشئت[٢] فتركه رسولُ الله ﷺ . حتى كان بعد الغد . فقال « ماعندك ياثمامة؟ » قال : ما قلت لك . إن تنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركهُ رسولُ الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال « ماذا عندك ياثمامة ؟ » فقال : عندي ماقلت لك . إن تنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتُل تقتُل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول الله ﷺ : « أطلقوا ثمامة » فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل . ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يامحمد والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحب الوجوه كلها إليّ . والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك . فأصبح دينك أحب الدين

---

(١) في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال : « أحسنوا إساره » .

(٢) في رواية ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أسلم ياثمامة » .

كله إليَّ . والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك . فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة . فماذا ترى؟ فبشره رسولُ الله ﷺ . وأمرهُ أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائلٌ : أصَبَوت[1] ؟ فقال : لا . ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ . ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبةُ حنطة حتى يأذن فيها رسولُ الله ﷺ [2][3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : فيه مثل من منهج النبي ﷺ الدعوي ، فقد عامل ثمامة بن أثال معاملة كريمة وأمر الصحابة رضي الله عنهم بإكرامه مع ما سبق منه من عداء للمسلمين .

وقد أثَّرت هذه المعاملة الكريمة في نفس ثمامة حتى رغب في الإسلام ، وتغيرت الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الإسلام والمسلمين إلى صورة مشرقة استنارت بها بصيرته فانجذب إلى الإسلام .

ثانيًا : موقف ثمامة في إعلان إسلامه والبيان الرائع الذي عرضه فيه، من تجلية ألوان الغشاوة التي كانت مهيمنة على قلبه ، وكيف انجلت

(١) يعني أخَرجت من دينك .

(٢) جاء في رواية ابن هشام : ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ : إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل .

(٣) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٦٤ (ص ١٣٨٦) .

صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٧٢ (٨/ ٨٧) .

وأخرجه ابن إسحاق وفيه بعض الزيادات – سيرة ابن هشام –٤/ ٤١٤–٤١٧ – .

بنور الله تعالى إلى أضدادها ، فأصبحت أبغضُ الأشياء عنده أحبَّها إليه ، وهكذا يبدأ المسلم بإعلان إسلامه تاريخًا جديدًا يمحو به آثار الجاهلية .

ثالثًا : ما قام به ثمامة من محاولة التضييق على أعداء الإسلام والمسلمين ، حيث هدد مشركي مكة بمنع بيع الحنطة لهم ، وكانت اليمامة آنذاك مَصْدراً مُهمّا لتصدير الطعام إلى مكة .

وكون ثمامة ربط السماح بتصدير الحنطة إليهم بإذن النبي ﷺ يعتبر إعزازاً منه للمسلمين وتقوية لموقفهم مع أعدائهم ، ولقد قام فعلا بتنفيذ هذا التهديد كما جاء في رواية ابن هشام المذكورة ، حتى اضطر كفار مكة إلى أن يخضعوا لرسول الله ﷺ فيكتبوا له كتابا يتوسلون إليه فيه بصلة الرحم أن يأذن بذلك .

وهكذا أشعر ثمامة المشركين بحاجتهم إلى رسول الله ﷺ ، وذلك مما يضعف من قوتهم ، وصمودهم على الوقوف في وجهه .

رابعًا : موقف ثمامة حينما أعلن إسلامه في مكة المكرمة وهي آنذاك تغلي بأهلها في عداوة الإسلام وأهله ، وفي هذا إعزاز للإسلام وتقوية للمسلمين ، وقد تعرض بسبب هذه الجرأة إلى الأذى من الكفار حتى قدموه ليضربوا عنقه ، ولم ينقذه منهم إلا تذكر أحدهم لمصالحهم الاقتصادية في بلاده .

وقد ثبت على إسلامه رضي الله عنه حينما ارتد قومه وتابعوا مسيلمة الكذاب ، وارتحل بمن أطاعه من قومه إلى البحرين فقاتل المرتدين مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه[1] .

* * *

(١) الإصابة ١/ ٢٠٤ رقم ٩٦١ .

٣ - إسلام أبي العاص بن الربيع -

قال ابن إسحاق : وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زَيْنب عند رسول الله ﷺ بالمدينة ، حتى فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قُبيل الفتح ، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام ، وكان رجلا مأمونا ، بمال له وأموال لرجال من قريش ، أبْضعوها معه ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً ، لقيتْه سرية لرسول الله ﷺ (١) ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هاربًا .

فلما قَدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ ، فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح - كما حدثني يزيد بن رومان - فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، قال : فلما سلم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : أما والذي نفسُ محمد بيده ماعلمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنه يُجير على المسلمين أدناهم ، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ ، فدخل على ابنته ، فقال : أي بُنية ، أكْرمي مثواه ، ولايخْلُصنّ إليك ، فإنك لاتحلين له .

---

(١) لم يكن هناك سرايا ولاقتال بين المسلمين ومشركي مكة بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وإنما الذين أخذوا تجارة أبي العاص هم جماعة أبي بصير وأبي جندل التي مر ذكرها ، كما جاء في رواية البيهقي لخبر تلك الجماعة - دلائل النبوة ٤/ ١٧٤ - .

ويفهم من هذا الخبر أن هجومهم على تلك القافلة كان في آخر مقامهم في « العيص » حيث قدموا إلى المدينة بأمر النبي ﷺ لما طلبت قريش ذلك ، فكان هذا الحوار معهم حول ردّ ما أخذوه من أبي العاص بن الربيع .

قال ابن إسحاق : وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسنوا وتردّوا عليه الذي له ، فإنّا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم ، فأنتم أحقّ به ، فقالوا : يارسول الله ، بل نردّه عليه ، فردّوه عليه ، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلْو ويأتي الرجل بالشنّة وبالإداوة[١] ، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ [٢] ، حتى ردوا عليه ماله بأسره ، لايفقد منه شيئًا .

ثم احتمل إلى مكة ، فأدّى إلى كل ذي مال من قُريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يامعشر قُريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : فلا فجزاك الله خيراً ! فقد وجدناك وفيًا كريمًا ، قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما مَنعني من الإسلام عنده إلا تخوُّف أن تظنّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت . ثم خرج حتى قَدم على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني داود بن الحُصين عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : ردّ عليه رسولُ الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين .

قال ابن هشام : وحدّثني أبو عُبيدة أنّ أبا العاص بن الرَّبيع لمّا قدم من

---

(١) الشنة والشن بفتح الشين القربة القديمة ، والإداوة بكسر الهمزة الإناء الذي يتوضأ به .

(٢) الشظاظ بوزن كتاب عود يشد به فم الغرارة .

الشام ومعه أموال المشركين قيل له : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي [1] .

وأخرج هذا الخبر الحاكم من خبر محمد بن إسحاق ولم يحكم عليه[2] .

في هذا الخبر مواقف :

أولاً : اهتمام النبي ﷺ بدعوة الرجال الذين يرى لهم من مكارم الأخلاق ما يؤهلهم للدخول في الإسلام ، ومن ذلك اهتمامه بأبي العاص بن الربيع ، وكانت دعوته إياه إلى الإسلام عن طريق المعاملة الكريمة حيث تشفَّع له عند أولئك المرابطين الذين استولوا على جميع مامعه من تجارة ، وهم جماعة أبي بصير .

وهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ لأبي العاص كان لها أبلغ الأثر في انجذابه إلى الإسلام .

ثانيًا : في هذا الخبر دليل على قوة إيمان أبي بصير وأبي جندل ومن معهما من المسلمين المرابطين في « العيص » وتجردهم من الهوى حيث قبلوا وساطة النبي ﷺ لأبي العاص فردوا عليه كل ما أخذوا منه من غير تلكؤ ولاتردد ، ولاشك أن الذين أظهروا الإسلام أمام عتاة الكفار وتحملوا قيودهم وتعذيبهم من أجل الله تعالى لن يغريهم بريق الدنيا وإن قوي لَمعَانه ، وما خرجوا من مكة ليجعلوا من أنفسهم عصابة هدفها

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٦ .

(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

الاستيلاء على أموال الناس ، وإنما اضطروا إلى اعتراض تجارة قريش ليتخذوا من ذلك وسيلة للضغط عليها كي تتنازل عن شرطها الجائر بلزوم رد كل من خرج منهم إلى المسلمين وإن كان مسلما .

ثالثًا : ظهر في هذا الخبر نماذج من مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها أبو العاص بن الربيع ، فمن ذلك أنه قام برد الأمانات التي تحملها لقريش مع أنه كان يريد مفارقتهم ، وكان معتزًا بالإسلام مدركا أنه دين مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة ، فلذلك لما قيل له : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ قال : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي .

* * *

مواقف وعبر

فى فتح مكة

١ - سبب مسير الجيش الإسلامي إلى مكة -

ذكر الإمام محمد بن إسحاق خبر ذلك حيث قال : حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعًا قالا : كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، فتواثبت خزاعة وقالوا : نحن ندخل في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنوبكر وقالوا : نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم .

فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا ، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلا بماء يقال له الوتير ، وهو قريب من مكة ، وقالت قريش : ما يعلم بنا محمد وهذا الليل ومايرانا من أحد ، فأعانوهم عليهم بالكراع [١] والسلاح ، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ [٢] .

* * *

---

(١) أي الخيل .

(٢) سيرة ابن كثير ٣/ ٥٢٦ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ٣ .

٢ - وفد خزاعة إلى النبي ﷺ -

اخرج ابن إسحاق بإسناده السابق من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا : وإن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبر الخبر وقد قال أبياتَ شعر ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشدها إياه :

يارب إنِّي ناشدٌ محمدًا حلفَ أبينا وأبيه الأتْلَدَا (١)
قد كُنْتُمُ وُلْدًا وكنّا والدا ثَمَّتَ أسلمنا ولم نَنْزِعِ يَدَا
فانصر رسولَ الله نصرا أيِّدا(٢) وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إنْ سيمَ خسفًا وجهه تربَّدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا إنَّ قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا (٣)
وزعموا أن لست أدعو أحدا فهم أذل وأقل عددا
هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا وقتلونا ركَّعًا وسجَّدا

فقال رسول الله ﷺ : « نصرتَ ياعمرو بن سالم » ، فما برح حتى مرَّت بنا عَنانة (٤) في السماء فقال رسول الله ﷺ « إن هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب » (٥) .

وأخرجه الواقدي من حديث حزام بن هشام بن خالد الكعبي عن

(١) أي قديم .

(٢) أي قويا .

(٣) كداء جبل بأعلى مكة .

(٤) أي سحابة .

(٥) سيرة ابن كثير ٣/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ١١ .

أبيه وذكر نحوه ، ثم قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر بن عمران بن أبي أنس ؛ عن ابن عبّاس رضي الله عنه . قال : قام رسول الله ﷺ وهو يَجُرُّ طرَف ردائه ، لا نُصِرتُ إن لم أنْصُر بني كعب ممّا أنْصُر منه نفسي !

وحدثني حزام بن هشام عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : لكأنكم بأبي سفيان قد جاءَ يقول : « جدّد العهد وزدْ في الهُدنة وهو راجعٌ بسخطه» ثم قال رسول الله ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرّقوا في الأودية ! وقام رسول الله ﷺ فدخل على عائشة وهو مُغضب . فدعا بماء فدخل يغتسل . قالت عائشة : فأسمعه يقول وهو يصبّ الماءَ عليه : لانُصرتُ إن لم أنْصُر بني كعب (١) .

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ في نصر المسلمين المستضعفين من أعدائهم، فقد وعد هؤلاء المسلمين من خزاعة المستنصرين به بنصرهم وقومهم على أعدائهم من بني بكر وقريش الذين اعتدوا عليهم، وصدق رسول الله ﷺ في وعده كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وإن للمسلمين جميعا في رسول الله ﷺ لأسوة حسنة في هذا الموقف العظيم ، فإن من واجب كل مسلم أن يهُبَّ في نصرة إخوانه المسلمين في كل مكان على قدر استطاعته ، وليس من الإسلام في شيء أن تُنْتَزع بلاد المسلمين بلداً تلو الآخر ولا يهتم بذلك إلا أهل البلد المنكوب ، لأن ذلك يتنافى مع واجبات الأخوة الإسلامية ، ولو وعى المسلمون سنة نبيهم ﷺ وطبقوها لبقيت لهم مكانتهم العالية ودام عزهم في الأرض .

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٨٩ - ٧٩١ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ١٣ .

٣ - إيذان قريش بالحرب -

أخرج مسدد بإسناده من حديث محمد بن عباد بن جعفر قال : بعث رسول الله ﷺ إلى قريش : « أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أو تدُوا خزاعة [١] ، وإلا أوذنكم بحرب » فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية : إن بني بكر قوم مشائيم ، فلا ندى ماقتلوا ، أن لا يبقى لنا سبد ، ولا لَبَد [٢] ، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم ، ولكن نؤذنه بحرب .

ذكره الحافظ ابن حجر وقال : هذا مرسل صحيح الإسناد [٣] .

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشا بالحرب وإنما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب .

* * *

---

(١) أي تدفعوا دية قتلاهم .

(٢) السَّبَد الشعر واللَّبَد الصوف ، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء .

(٣) المطالب العالية ٤/ ٢٤٣ رقم ٤٣٦١ .

٤ – موقف جهادي لحسان بن ثابت –

ولما نقضت قريش الصلح وكان الإيذان بالحرب من رسول الله ﷺ قال حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته الدالية العصماء في تبكيت الكفار ووعيدهم ، وقد ذكرها ابن إسحاق رحمه الله تعالى ، ومنها قوله :

عدمْنا خَيلنا إن لــم تروها ... تُثير النقع مـوْعـدُها كـداَء[(١)]
يُنازعـن الأعـنَّة مُصـغـيات ... عـلى أكتافـها الأسَلُ الـظماءُ[(٢)]
تظـلُّ جيـادُنا مُتمَـطِّرات ... تُـلطِّمُـهنَّ بالخُـمُـر النساءُ[(٣)]
فإمَّا تُعـرضـوا عنَّـا اعتمـرنا ... وكـان الفتحُ ، وانكشف الغطاء
وإلا فـاصبروا لجلاد يـوم ... يُعـين اللهُ فـيه مـن يشاء
وجبـريـلٌ رسـولُ الله فينا ... ورُوح القـدْس ليس لـه كفاءُ
وقال الله : قد أرسلتُ عبداً ... يقـولُ الحـق إن نفع الـبلاءُ
شهدتُ به فقوموا صدِّقـوهُ ... فقـلتمْ : لانـقـوم ولانشـاءُ
وقال الله : قد سَيَّرْتُ جُـنداً ... هـمُ الأنصارُ عُـرْضتها اللقاءُ
لنا في كل يـوم مـنْ مَعَدّ ... سباب أو قـتالٌ أو هـجـاء

(١) قوله (عدمنا خيلنا) جملة دعائية أي فقدناها ولاركبناها ، وتثير النقع أي تهيج الغبار ، وكداء بفتح الكاف ممدوداً هي الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وتسمى المَعْلَى .

(٢) ينازعن الأعنة أي يجاذبن اللُّجم إذا أُريد كفهن عن الجري ، ومصغيات أي مستمعات مصيخات ، والأسل بفتحتين الرماح ، والظماء العطاش .

(٣) متمطرات أي متسابقة مسرعة ، وتلطمهن أي تضرب خدودهن ، والخمر جمع خمار وهو ماتغطى به المرأة رأسها .

فَنُحْكِمُ بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلطُ الدِّماءُ

ألا أبْلغ أبا سفيانَ عني ... مُغَلغَلةً فقد برحَ الخَفاءُ(1)

بأن سُيوفنا تركَتكَ عَبداً ... وعبدُ الدَّار سادَتْها الإماءُ

هَجَوتَ محمداً ، وأجبتُ عنهُ ... وعند الله في ذَاك الجزَاءُ

أتهجُوه ولست لهُ بكفء ... فشرُّكما لخيركما الفداءُ

هَجوتَ مُباركا برّاً حنيفا ... أمينَ الله شيمته الوَفاء

أمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ... ويمدحه وينصرهُ سواء؟

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمَّد منكم وقاءُ

لساني صارمٌ لاعيبَ فيه ... وبحري لاتكدّره الدّلاء(2)

وقد روى الإمام مسلم أبياتا من هذه القصيدة من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقد جاء في هذه الرواية : قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » ، وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هجاهم حسان فشفَى واشتفى »(3) .

فهذه القصيدة قد حازت على إعجاب النبي ﷺ لجزالة ألفاظها

---

(1) المغلغلة الرسالة تنقل من بلد إلى بلد وبرح الخفاء أي ظهر ما كان خافيًا وأبو سفيان هو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

(2) سيرة ابن هشام ٤/ ٥٧/ ٥٩ .

(3) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، رقم ٢٤٩٠ (ص ١٩٣٥) .

وجودة معانيها ، ولما يعلمه ﷺ من الأثر القوي للشعر عند العرب ولذلك أمر شعراء الصحابة بهجاء المشركين كما جاء في حديث عائشة المذكور : أن رسول الله ﷺ قال : اهجوا قريشا فإنه أشدُّ عليها من رشق النَّبل » .

ومن شدة إعجاب النبي ﷺ بهذه القصيدة أمر أن تدخل الخيل يوم الفتح من « كداء » حيث قال حسان (١) .

وحينما رأى النساء يومئذ يلطِّمن الخيل بالخُمُر تبسم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وذكر بيت حسان بن ثابت ، فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظلُّ جيادنا متمطِّرات ... تُلطِّمهن بالخُمُر النساء (٢)

وإن في موقف حسان هذا رضي الله عنه لمثلاً عاليا للجهاد باللسان والقلم ، الذي قد يفوق أثره على الأعداء أحيانا الجهاد بالسنان لما له من الأثر البالغ في تخذيل الأعداء وتثبيط هممهم ، ودفع المسلمين إلى الجهاد وتقوية عزائمهم .

* * *

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٥٩ ، مغازي الواقدي ٢/ ٨٣١ .

٥ - سفارة أبي سفيان ومواقف للصحابة -

قال ابن إسحاق : ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخل على ابنته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس علَى فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يابُنيّة ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مُشرك نجس ، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : والله لقد أصابك يابنية بعدي شرّ .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فكلمه ، فلم يردّ عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلّمه أن يُكلم له رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه ، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ ورضي عنها ، وعندها حسنُ بن عليّ ، غُلامٌ يدبّ بين يديها، فقال : ياعليّ إنك أمسّ القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعنّ كما جئت خائبا ، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر مانستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يابنت محمد هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيُجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قلت : والله مابلغ بنيَّ ذاك أن يُجير بين الناس، وما يُجير أحدٌ على رسول الله ﷺ ، قال : يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني، قال : والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيِّد

بني كنانة، فقُم فأجْر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أوَترى ذلك مُغنيًا عني شيئًا؟ قال. لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش، قالوا: ماوراءك؟ قال: جئتُ محمدًا فكلمته، فو الله لم يردَّ عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قُحافة، فلم أجد فيه خيرًا ثم جئت ابن الخطاب، فوجدته أدنى العدو(١) ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فو الله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجلُ على أن لعب بك، فما يُغني عنك ما قلت. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك (٢).

في هذا الخبر مواقف منها:

أولاً: موقف أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك حينما طوت فراش النبي ﷺ عن أبيها حينما كان مشركا، وهذا مثل مما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين.

وقولها لأبيها «أنت رجل مشرك نجس» لا تعني بذلك النجاسة الحسية، فإن المشركين كانوا يَفدُون على رسول الله ﷺ ويجلسهم أحيانا

---

(١) قال ابن هشام: أعدى العدو.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٤ - ١٦.

على فراشه ، وإنما تعني النجاسة المعنوية ، وقد أرادت بذلك أن تُبرز عزّة النبي ﷺ والإسلام ، وأن الكافر محتقر مهان وإن كان زعيم قريش ، وكونها خاطبت أبا سفيان بذلك مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها .

لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار صفتهم الدينية ، ومحاولة إبراز معالم التميز على الكافرين ، وهذا أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية .

فأم حبيبة لاشك أنها تحب أباها حبا كبيرا من واقع حب الوالدين ، وتقدر مكانته في قومه حيث كان سيد قريش ولكنها آثرت إبراز مكانة النبي ﷺ وتضخيم شأنه في عين أبي سفيان ، حتى في هذه القضية الصغيرة انطلاقا من المفهوم الإسلامي السائد بين الصحابة الذي يقضي برفع شأن المسلم مهما كانت منزلته الاجتماعية وخفض شأن الكافر وإن كان عظيما في قومه أو ذا قرابة .

ثانيًا : موقف الصحابة الذين كلمهم أبو سفيان ليشفعوا لقومه عند النبي ﷺ وهم أبو بكر وعمر وعلي وفاطمة رضي الله عنهم ، حيث لم يتقدم منهم أحد بتحقيق هذا الطلب الذي يعتبر تجاوزا للحدود وتقدُّمًا على النبي ﷺ في خلاف ما عزم عليه ، وهذا يعتبر من كمال ورعهم وحسن أدبهم .

* * *

٦ – أمر النبي ﷺ بالتجهز –

أخرج الواقدي من طريق الزهري عن محمد بن جبير بن مُطْعم ، قال : لمّا ولّى أبو سفيان راجعًا قال رسول الله ﷺ لعائشة : جهِّزينا وأخفي أمْرَك ، وقال رسول الله ﷺ : اللّهمَّ خُذْ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بَغْتَةً ، ويقال قال : اللّهمّ خُذْ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتة ، ولا يسمعون بي إلا فجأة . قالوا : وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قَيِّمًا بهم فيقول : لا تَدَعوا أحدًا يمرّ بكم تُنكرونه إلا رددتُموه – وكانت الأنقاب مُسلمة – إلا من سلك إلى مكة فإنه يُتحفّظ به ويسأل عنه ، أو ناحية مكة .

قالوا فدخل أبو بكر على عائشة وهي تُجهِّز رسول الله ﷺ ، تعمل قمحًا سَويقًا ودَقيقًا وتمرًا ، فدخل عليها أبو بكر فقال : يا عائشة أهمَّ رسول الله ﷺ بغزو ؟ قالت : ما أدري ، قال : إن كان رسول الله همّ بسفر فآذنينا نتهيّأ له ، قالت ما أدري لعلّه يريد بني سُلَيم ، لعلّه يُريد ثَقيفًا ، لعلّه يُريد هَوازن ! فاستعجمتْ عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، أردتَ سفرًا ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : أفأتجهّزُ ؟ قال : نعم . قال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله؟ قال : قريشًا ، وأخْفِ ذلك يا أبا بكر . وأمر رسول الله ﷺ بالجَهاز ، قال : أوليس بيننا وبينهم مُدَّةٌ ؟ قال : إنهم غَدَروا ونَقَضوا العهد ، فأنا غازيهم ، وقال لأبي بكر : اطو ما ذكرتُ لك ، فظانٌّ يظن أنَّ رسول الله ﷺ يريد الشام ، وظانٌّ يظنُّ ثَقيفًا ، وظانٌّ يظنُّ هَوازِن .

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربْعيّ في ثمانية نَفَر إلى بطن إضَم[1] ليظنَّ ظانٌّ أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك الناحيةً ، ولأنْ تَذهب بذَلك الأخبار . [2]

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : التزام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالسِّرِّيَّه التامة وثباتها على ذلك حتى أمام أبيها أبي بكر رضي الله عنه لقول النبي ﷺ لها «وأخفي أمرك » ، مع أن أباها هو الرجل الثاني في الإسلام ، وهي تعلم أن رسول الله ﷺ لا يخفي عنه شيئًا من أمور الأعداء ، ولكنه حينما أمرها بالإخفاء لم يستثن أباها فالتزمت بالسرية حتى معه .

ثانيا : الاهتمام الكبير من رسول الله ﷺ بتحقيق المقصود من سرِّية هذا الأمر وهو عزمه على غزو أهل مكة حيث دعا الله تعالى أن يأخذ على قريش الأخبار والعيون ، ولا شك أن دعاء الله تعالى هو أهم الأسباب الموصلة إلى تحقيق المقصود ، ولذلك بدأ به النبي ﷺ وقدّمه على غيره .

ثم أمر النبي ﷺ مجموعة من المسلمين بأن يأخذوا بمخارج المدينة فلا يَدَعوا أحدًا يمر بهم خاصة ما كان جهة مكة وأمَّر عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يدور عليهم ويراقب عملهم .

ثم أن النبي ﷺ من باب الاحتياط للأمر أرسل سرية إلى « إضم » في

---

(١) إضم ماء يطؤه الطريق بين مكة والمدينة عند السمينة (معجم البلدان ١/ ٢٨١) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٩٦ .

طريق مكة ، لتذهب الأخبار بذلك ويتحدث الناس بأنه يريد القبائل التي بين مكة والمدينة .

وهذه دروس بالغة في إتقان السِّرِّيَّة في الأمور المهمة وأخْذ الحيطة والحذر حتى يكون أدعى لنجاح المقاصد .

* * *

٧ – موقف تربوي للنبي ﷺ –
(خبر حاطب بن أبي بلتعة)

أخرج الإمام البخاري من حديث علي رضي الله عنه قال : « بعثني رسولُ الله ﷺ وأبا مرثد والزبير – وكلنا فارسٌ – قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأةً من المشركين معها كتابٌ من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين . فأدركناها تسيرُ على بعير لها حيثُ قال رسول الله ﷺ . فقلنا : الكتاب فقالت : مامعنا كتاب ، فانخناها ، فالتمسنا فلم نر كتابا ، فقلنا : ماكذب رسولُ الله ﷺ ، لتُخرجنَّ الكتاب أو لنجرّدَنّك . فلما رأت الجدَّ أهوَت إلى حُجزَتها – وهي محتجزة بكساء – فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ .

فقال عمر : يارسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال النبي ﷺ : ماحَملَك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ ، أردتُ أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال النبي ﷺ ، صدق ، ولاتقولوا له إلا خيرا . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه . فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد وجبت لكمُ الجنة – أو فقد غفرتُ لكم – فدمعت عينا عمر وقال : اللهُ ورسوله أعلم »[(١)] .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٣٩٨٣ (٧/ ٣٠٤) .

في هذا الخبر مثل عظيم في التسامح مع أهل الفضل والتقدم في الإسلام ، والغضِّ عن سيئاتهم وإن كانت كبيرة .

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه من شدة حماسه الديني وغيرته على الإسلام وحياطته لدولته بادر إلى الإنكار الشديد على حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، ووصفه بالخيانة ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بقتله ، ولكن النبي ﷺ المربي الكبير ، الرحيم بالمؤمنين لم ينظر إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة ، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز الإسلام ، فوجد أنه قد شهد معركة بدر ، ولم يشهد بدراً إلا مؤمن صادق قوي الإيمان ، لأن الإقدام على معركة بدر كان إقداما على الموت المرجح ، ولا يصل إلى المغامرة بالأنفس إلا من ارتفع رصيده الإيماني إلى الحد الذي يجسِّم أمام ناظريه الهدف الأعلى للمسلم ، ألا وهو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة وإن كان في ذلك ذهاب النفوس والأموال .

وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة ، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال التعليم والإفتاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى ، فإن الذي يُسهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمة يستحق التقدير والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء .

هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأ محض وزلة قدم ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأيٌ علمي ناتج عن الاجتهاد وهم من أهل ذلك؟! .

إن بعض طلاب العلم في عصرنا هذا يتعجلون في نقد العلماء والدعاة لمجرد وقوعهم في آراء اجتهادية يرى بعض العلماء أنهم اخطئوا فيها، وقد يصل النقد إلى حد السخرية وانتهاك الأعراض، مُغْفلين تماما رصيدهم الماضي في الدعوة والجهاد وإنكار المنكر وتعليم العلم، وترى هؤلاء الطلاب يُجَسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ويبرزونها بشكل يوحي للسامعين والقراء أن أولئك الذين تعرَّض إنتاجهم للنقد ليس لهم أي رصيد في خدمة الإسلام والمسلمين .

والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أولاً ويعرِّف المسلمون بجهادهم وبلائهم في الإسلام وجهودهم في مجال العلم والدعوة، ثم تذكر الأمور التي يراها المنتقدون أخطاء ومايرونه من الصواب في ذلك مع لزوم الأدب في النقد العلمي، والبعد عن أسلوب السخرية والتنقيص .

هذا شيء مما يوحيه لنا سلوك النبي ﷺ في مواجهة هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه .

إن رصيد حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله كان حائلا دون إدانته وإجراء العقوبة عليه، بل كان حاميا له مما هو دون ذلك حيث لم يُسمع من مسلم كلمة واحدة في نقده والإساءة إليه بعد قول النبي ﷺ «ولا تقولوا له إلا خيرا» .

وأخيرا موقف جليل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تحوَّل في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكي من الخشية والتأثر ويقول : الله ورسوله أعلم، ذلك لأن

غضبه كان لله تعالى ولرسوله ﷺ فلما تبين له أن الذي يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ هو غضُّ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد . . لما تبيَّن له ذلك استسلم لهذا الأمر وحوَّل غضبه إلى رضى ظهرت آثاره بقطرات من الدمع الغالي الذي يشف عن كمال الرقة والرحمة بالرغم من كمال القوة والصلابة فيمن صدر منه، وهذا دليل على التوحيد الخالص والإيمان الراسخ .

* * *

٨ – موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر –

قال الواقدي : وحدثني قُران بن محمد ، عن عيسى بن عُمَيْلة الفَزاري ، قال : كان عُيَيْنَة[١] في أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يُريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج في نَفَر من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العَرْج[٢] ، فوجده رسولُ الله ﷺ بالعرج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال : يارسول الله ، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعًا ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جَلبة كثيرة ، ولستُ أرى هيأة حرب ، لا أرى ألويةً ولا رايات ! فالعمرة تُريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام ! فأين وجهك يارسول الله ؟ قال : حيث شاء الله . وذهب وسار معه .

ووجد الأقرع بن حابس بالسُّقْيا ، قد وافاها في عشرة نَفَر من قومه ، فساروا معه ، فلما نزل قُدَيد عقد الألْوية وجعل الرايات . فلما رأى عُيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله ، فقال أبو بكر : علامَ تندم ؟ قال : على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يُريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاءُ الله . فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعُيينة [٣] .

في هذا الخبر موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه في

---

(١) يعني عيينة بن حصن زعيم غطفان .

(٢) ركوبة والعرج موضعان على طريق مكة من المدينة .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٣ – ٨٠٤ .

الحفاظ على سرِّية الهدف الذي قصده رسول الله ﷺ ، وقد استمر كتمان هذا الهدف حتى وصل الجيش الإسلامي إلى مكة وهذا التخطيط المحكم كان من أسباب نجاح رسول الله ﷺ في الوصول إلى مكة من غير أن يعلم أهلها بذلك .

* * *

٩ – مثل من رحمة النبي ﷺ –
(إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية)

قال ابن إسحاق . وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله ابن أبي أُميَّة بن الْمُغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضًا بنيْق العُقاب، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدّخول عليه ، فكلمته أمّ سلمة فيهما، فقالت : يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهْرك، قال : لاحاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهَتَكَ عرضي وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بُنيّ له ، فقال : والله ليأذننَّ لي أو لآخذن بيدي بنيّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجُوعا، فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقّ لهما ، ثم أذن لهُما ، فدَخلا عليه ، فأسلما .

وأنشد أبو سُفيان بن الحارث قوله في إسلامه ، واعتذر إليه مما كان مَضى منه، فقال :

لعَمْرك إني يوم أحْـمـلُ رايةً لتغْلبَ خَيْلُ اللات خـيلَ محـمّد
لكالْمدلج الحيران أظلـم ليلُـهُ فهذا أواني حين أُهـدَى واهتـدي
هـدانيَ هاد غـيرُ نفسي ونالَني مع الله مـن طـرَّدتُ كل مُطـرَّد
أصدّ وأنأى جاهدًا عن محمد وأُدعَى وإن لم أنتسب من محمَّد
هُمُ ماهم منْ لم يقُل بهواهـمُ –وإن كان ذا رأى–يُلَم ويُفنَّد(١)

---

(١) يفنَّد يعني يُخطَّأ ويسفَّه .

أريد لأرضيهم ولستُ بـــــلائط[1] مع القوم مالم أُهْدَ في كل مقعد

فـقُل لثـقيف : لا أريـــــد قتــالها وقل لثقيف تلك غَيْريَ أوْ عدي

فما كنتُ في الجيش الذي نال عامراً وماكان عن جراًّ لساني ولايدي

قبــائل جــاءتْ مــن بــلاد بعيدة نزائع جاءت مــن سهام وسَرْدَدِ

قال ابن هشام : ويروى « ودلَّني على الحقّ من طردت كلّ مطرد » .

قــال ابن إســحــاق : فــزعــمــوا أنه حين أنشــد رســول الله ﷺ قـوله : «ونالني مع الله من طرّدت كل مطرد » ضـرب رسـول الله ﷺ في صدره ، وقال : أنت طردتني كل مطرّد ؟[2] .

أما قوله « وأدْعَى - وإن لم أنتسب - من محمد » فله قصة ذكرها الواقدي فقال : وأما قوله : وأُدعَى وإن لم أنتسب من محمد » فإنه هرب وقدم على قيصر ملك الروم ، فقال : ممن أنت ؟ فانتسب له أبو سُفيان ابن الحارث بن عبد المطلب . قال قيصر : أنت ابن عمّ محمد إن كنت صادقًا ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قال : قلت : نعم ، أنا ابن عمّه . فقلت : لا أراني عند ملك الروم وقد هربت من الإسلام ، لا أعْرَف إلا بمحمد ! فدخلني الإسلام وعرفتُ أنّ ماكنت فيه باطلٌ من

---

(١) أي لاصق .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢ - ٢٤ ، وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي - المستدرك٣/ ٤٣ - ٤٥ - ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤-١٦٧- . .

الشرك، ولكنَّا كنَّا مع قوم أهل عُقول باسقة ، وأرى فاضل الناس يعيش في عقولهم ورأيهم ، فسلكوا فَجّاً فسلكناه . ولمَّا جعل أهل الشَّرَف والسِّنّ يقتحمون عن محمد وينصرون آلهتهم ويغضبون لآبائهم اتبعناهم[1] .

في هذا الخبر مثل من رحمة رسول الله ﷺ البالغة ، فهذا ابن عمه أبو سفيان بن الحارث الذي هجاه بشعره كثيرا ، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية الذي قال له بمكة : فو الله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلَّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول ، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك[2] .

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثل عال في الرحمة والعفو والتسامح .

ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به ، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله ﷺ في معركة حنين .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨١١ - ٨١٢ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٣٠٠ .

١٠ – مثل من التخطيط الحربي الدقيق –

أخرج الواقدي رحمه الله تعالى من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما كنا بالكَديد بين الظُّهر والعَصر أخذ رسول الله ﷺ إناءً من ماء في يده حتى رآه المسلمون ، ثم أفطر تلك الساعة . وبلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ قومًا صاموا فقال : أولئك العُصاة ! وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : إنكم مُصبِّحو عدوِّكم ، والفطر أقوى لكم ! قال ذلك بمَرِّ الظَّهْران . فلما نزل رسول الله ﷺ العَرج ، والناس لايدرون أين توجَّه رسول الله ﷺ ، إلى قريش ، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف ! فهم يُحبّون أن يعلموا ، فجلس في أصحابه بالعَرْج وهو يتحدّث، فقال كعب بن مالك : آتي رسول الله ﷺ فأعلمُ لكم علم وجهه . فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على رُكبتيه ، ثم قال :

قضينا من تهامةَ كلَّ رَيْب ... وخَيْبَرَ ثم أجْمَمْنَا (١) السُّيوفا

نُسائلها ولوْ نَطقتْ لَقالتْ ... قواطعُهنَّ دَوسًا أو ثقيفا

فَلَستُ لحاضر إن لم ترَوها ... بساحة داركُم منها أُلوفا

فَنَنْتَزِعُ الخيامُ ببَطْن وَجٍّ(٢) ... ونَتْرُكُ دُورَهم منهم خُلوفا

أنشدنيها أيّوب بن النُّعمان ، عن أبيه . قال : فتبسم رسول الله ﷺ، ولم يزد على ذلك . فجعل الناس يقولون : والله ما بيَّن لك رسول الله شيئًا ، ما نَدْري بمن يبدأ ، بقريش أو ثقيف أو هَوازن (٣) .

---

(١) أجممنا : أرحنا (شرح أبي ذر ، ص ٤٠٧) .

(٢) هو وادي الطائف المشهور .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٢ .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم حائرين طوال الطريق لايدرون أين هدف النبي ﷺ ، وكان أبو بكر يعلم ذلك كما سبق أن النبي ﷺ أخبره بأنه يريد مكة وأمره بكتمان ذلك ، ومع ماكان من محاولة كعب ابن مالك رضي الله عنه بقصيدته المذكورة فإن النبي ﷺ لم يخبره بوجهته ولم يزد على أن تبسم لأنه عرف مقصده ، وهذا مثل على القدرة الإدارية العالية والتخطيط الحربي الدقيق عند رسول الله ﷺ .

* * *

١١ – مثل من رحمة النبي ﷺ بالحيوان –

قال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن محمد ، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قال : لما سار رسول الله ﷺ من العَرْج ، فكان فيما بين العَرج والطَّلوب ، نظر إلى كلبة تَهِرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها ، فأمر رجلاً من أصحابه يُقال له جُعَيل بن سُراقة أن يَقوم حذاءَها ، لايعرض لها أحدٌ من الجيش ولأولادها [١] .

وهكذا شملت رحمة النبي ﷺ الحيوان فأوقف أحد الصحابة يحرس تلك الكلبة حتى لاتتضرَّر هي وأولادها من مرور الجيش ، وهناك أمثلة أخرى من رحمته ﷺ بالحيوانات والطيور ، وإن تلك الأخبار لأبلغ بكثير وأعظم أثراً من كل جمعيات الرفق والحيوان .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٤ .

١٢ - مثل من حزم الصحابة ودقة رصدهم -

قال الواقدي : حدثني مُعاذ بن محمد ، عن عبد الله بن سعد ، قال : لما راح رسول الله ﷺ من العَرج تقدمت أمامه جَريدة(١) من خيل طليعة ، تكون أمام المسلمين ، فلمّا كانت بين العرج والطلوب أتوا بعَيْن من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته ، فتغيب عنَّا في وَهدة(٢) ، ثم جاء فأوفى على نَشَز فقعد عليه ، فركضنا إليه فأراد يهرُب منَّا ، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النَّشز وهو يُغيِّبه ، فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجلٌ من بني غفار . فقلنا : هم أهل هذا البلد . فقلنا : من أي بني غفار أنت ؟ فَعَيِيَ ولم يُنفذ لنا نسبًا ، فازددنا به ريبةً وأسأنا به الظن . فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريبًا ! وأومأ بيده إلى ناحية . قلنا : على أي ماء ، ومن معك هنالك؟ فلم ينفذ لنا شيئًا ، فلما رأينا ماخلط . قلنا : لتَصدُقَنَّا أو لنضربن عنقك! قال : فإن صدقتكم ينفعني ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم . قال : فإني رجلٌ من هوازن من بني نَصْر ، بعثتني هوازن عينًا . وقالوا : ائت المدينة حتى تَلقى محمداً فتستخبر لنا مايُريد في أمر حلفائه : أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه ، ولانراه إلا يستغورهم(٣) ، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سَرف ، فإن كان يُريدنا أوَّلاً فيسلك في بطن سَرف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يُريد قُريشًا فسيلزم الطريق .

فقال رسول الله ﷺ : وأين هوازن ؟ قال : تركتُهم ببَقْعاء وقد

(١) الجريدة من الخيل : هي التي جردت من معظم الخيل للقيام بمهمة .

(٢) الوهدة : الأرض المنخفضة .

(٣) المقصود أنه سيفاجئهم بالإغارة .

جمعوا الجموع ، وأجلبوا في العرب ، وبعثوا إلى ثَقيف فأجابتهم ، فتركتُ ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجُرَش[1] في عمل الدَّبَّابات والمنجنيق ، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا . قال رسول الله ﷺ : وإلى من جعلوا أمرهم ؟ قال : إلى فتاهم مالك بن عوف . قال رسول الله ﷺ : وكلّ هوازن قد أجاب إلى مادعا إليه مالك ؟ قال : قد أبطأ من بني عامر أهلُ الجدّ والجَلَد . قال : مَن؟ قال : كعبُ وكلابٌ . قال مافعلت هلال ؟ قال : ماأقل من ضَوى إليه منهم ، وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سُفيان بن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وَجلون[2] .

في هذا الخبر موقف لهؤلاء الصحابة الذين كانوا طليعة للمسلمين ، وذلك في دقة رصدهم وحزمهم في استجواب ذلك العين الذي بعثه الأعداء من هوازن لرصد تحرك الجيش الإسلامي ومعرفة وجهة سيره ، ويشاء الله أن ينكشف أمر ذلك الجاسوس وأن يتحول الأمر لصالح المسلمين حيث أخبرهم عن جمع هوازن وعن وضع أهل مكة .

* * *

(١) الجرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة (معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٨٤) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٤ - ٨٠٥ .

١٣ – خبر مسير النبي ﷺ إلى مكة –

أخرج الحافظ إسحاق بن راهويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لعشر مَضيْن من رمضان، فصام ، وصام الناس ، حتى إذا كان بالكديد أفطر ، فنزل مَرَّ الظهران، في عشرة آلاف من الناس ، فيهم ألف من مزينة ، وسبعمائة من بني سليم ، وقد عُمِّيت الأخبار على قريش ، فلا يأتيهم خبر عن النبي ﷺ ، ولايدرون ماهو فاعله ، وقد خرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي ، يتحسسون الأخبار .

قال العباس : فلما نزل رسول الله ﷺ حيث نزل قلت : واصباحَ قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة ، ليكونن هلاكهم إلى آخر الدهر ، فركبت بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى جئت الأراك، رجاء أن ألتمس بعض الحَطَّابة أو صاحبَ لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بأمر رسول الله ﷺ فيخرجوا إليه ، فو الله إني لأسير ألتمس ماجئت به ، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، فقال أبو سفيان : والله ما رأيت كالليلة نيرانًا، ولاعسكرًا، فقال له بديل : هذه والله خزاعة ، قد حَمَشَتْها الحرب ، فقال أبو سفيان: خزاعةُ والله أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها ، فقلت : يا أبا حنظلة، تعرف صوتي ؟ فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : مالك فداكَ أبي وأمي ؟ فقلت : هذا والله رسولُ الله في الناس، واصباح قريش! قال : فما الحيلة ، فداك أبي و أمي ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب عجُزَ هذه البغلة ، فركب ورجع صاحباه، فخرجت به فكلما مررت بنار من نيران المسلمين . قالوا : من هذا ؟ فإذا

رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمُّه ، قالوا : هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه ، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إليّ، فلما رآه على عَجُز البغلة عرفه ، فقال : والله عدوُّ الله، الحمد لله الذي أمكن منك ، فخرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ ودخل ، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئةُ الرجل البطيء ، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر، فقال : هذا عدُّو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه ، في غير عهد ولاعقد، فدعني فأضرب عنقه فقلت : قد أجرتُه يارسول الله ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لايناجيه الليلة رجلٌ دوني ، فلما أكثر عمر ، قلت : مهلاً ياعمر ، فو الله لو كان رجلا من بني عدي ماقلت هذا، ولكنه من بني عبد مناف ، فقال : مهلا ياعباس ، لاتقل هذا ، فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب أبي لو أسلم ، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ : « ياعباس ، اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتنا به » .

فذهبت به إلى الرحل ، فلما أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي وأمي ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، وأعظم عفوك، لقد كاد أن يقع في نفسي أنْ لو كان إلهٌ غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ، فقال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ » فقال : بأبي وأمي ماأحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، وأعظم عفوك، أما هذه فكأن في النفس منها حتى الآن شيءٌ ، قال العباس : فقلت :

ويلك ، أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله قبل أن يُضرب عنقك ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، قال العباس : فقلت يارسول الله ! إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا ، فقال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

فلما انصرف إلى مكة ليخبرهم ، قال رسول الله ﷺ « احبسه بمضيق من الوادي عند حطم الخيل [1] ، حتى تمر به جنود الله » فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ فمرّت القبائل على ركبانها ، فكلما مرّت قبيلة ، قال : من هذه ؟ فأقول : بنو سليم ، فيقول : ما لي ولبني سليم ، ثم تمرّ أخرى ، فيقول : ماهؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، فلم يزل يقول ذلك حتى مرّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء [2] ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايُرَى منهم إلا الحَدَق [3] ، قال : من هؤلاء؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ، والله لقد أصْبَحَ ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا ، فقلت : ويحك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فَنعم إذًا . فقلت : النَّجاءَ إلى قومك ، فخرج حتى أتاهم بمكة ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد ، قد أتاكم بما لاقبَل لكم به ، فقامت امرأته هند بنت عتبة ، وأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحَميت الدَسم الأحمس [4] قُبِّح من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان : لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم ، من دخل دار

(١) أي ازدحامها (فتح الباري ٨/ ٨) .

(٢) قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٣) أي العيون .

(٤) الحميت وعاء السمن ، والأحمس الكثير اللحم ، تريد وصفه بضخامة الجسم .

أبي سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله، وما تغني عنّا دارك ؟ قال : ومن أغلق بابه فهو آمن .

ذكره الحافظ ابن حجر ونسبه إلى إسحاق بن راهويه وقال : هذا حديث صحيح (١) .

وهكذا وصل رسول الله ﷺ مكة المكرمة بذلك الجيش الكثيف ولم يعلم به أهل مكة ، وهذا يرجع أولاً إلى عناية الله تعالى ولطفه حيث استجاب جل وعلا دعاء رسوله ﷺ السابق ، ويرجع ثانيًا إلى دقة التخطيط وحسن التدبير من رسول الله ﷺ .

وفي هذا الخبر موقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه « والله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم ، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب » وهذا تعبير بليغ عن عمق محبة عمر لرسول الله ﷺ حيث قدَّم ما يحبه وهو إسلام العباس على ما يحبه هو وهو إسلام الخطاب .

* * *

---

(١) المطالب العالية ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٨ ، رقم ٤٣٦٢ ، وأخرجه الإمام الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وذكر نحوه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧ .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من حديث عروة بن الزبير - صحيح البخاري ، المغازي، رقم ٤٢٨٠ (٨/ ٥) .

وأخرجه ابن إسحاق والواقدي وذكرا نحو رواية إسحاق بن راهويه ، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء من روايتي ابن إسحاق والواقدي .

سيرة ابن هشام ٤/ ٢٤ - ٢٩ - .

مغازي الواقدي ٢/ ٣١٦ - ٣٢٠ - .

١٤ - أمثلة من تواضع النبي ﷺ -

١ - أخرج الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداءُ ، ورايته سوداءُ، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طُوًى وتوسط الناس و إن عُثْنُونَه[١] ليمس واسطة الرَّحل أو يَقْرُب منه ، تواضعا لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين . ثم قال : العَيشُ عيْشُ الآخرة ![٢] .

وهكذا دخل رسول الله ﷺ مكة وتحت قيادته عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرج منها مستخفيا قبل ثمان سنوات وليس معه إلا صاحبه أبو بكر رضي الله عنه ، وإنه لفرق شاسع بين وضعه في خروجه ودخوله .

إنه لموقف يستهوي النفوس البشرية أن تبلغ الذروة في الكبرياء والجبروت والتعالي على الناس ، خصوصا إذا علمنا أن من قدم عليهم رسول الله ﷺ بهذه الجموع الكثيرة هم الذين آذوه كثيرا وحاولوا قتله حتى خرج من بين أظهرهم مستخفيا ، فكان الوضع البشري المعتاد أن تبرز مظاهر الأبَّهة والخيلاء والرغبة في الانتقام لإذلال من سبقت منهم العداوة والإهانة ، ولكنه ﷺ دخل مكة مُطَأْطًا رأسه تواضعا لله تعالى حتى ليكاد ذقنه يمس رحل بعيره ، وهذا مشهد رائع مثير لايكاد يتصف

---

(١) أي ذقنه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٨٢٣ - ٨٢٤ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩ - ٣٠ - .

وأخرجه البيهقي من طريقين عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم - دلائل النبوة ٥/ ٦٨ - .

بـه إلا مـن اصـطـفاهـم الله تـعـالـى لـرسـالته .

وإن رسول الله ﷺ بهذا الخلق الإسلامي الرفيع ليضرب المثل للقادة من أمته كي يتشبهوا به في التواضع لله عز وجل ، والانتصار الكبير على هوى النفوس المخالف للمبادئ الإسلامية .

فهل أفرزت جميع الانتصارات الكبرى التي دوَّنها التاريخ مثل هذا الخلق الرفيع ؟ اللهم لا ، بل إنه من المستحيل أن يوجد مثل هذا الخلق بغير الإسلام .

إن هذا المشهد الرائع ليدلنا على عمق استحضار النبي ﷺ لعظمة الله عز وجل حتى كأنه يراه ماثلاً أمامه ، وإن من النتائج المسلَّمة في هذا أن يحتقر كل مظاهر الدنيا لأنها لاتساوي شيئًا أمام عظمة الله جل وعلا ، وإنه على قدر وجود الإيمان بالله تعالى في قلب المؤمن واستحضاره لعظمته تكون درجة إيمانه ، ولاشك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم رسول الله ﷺ - قد بلغوا الكمال الأعلى في ذلك .

٢ - أخرج الحافظ البيهقي بإسناده عن قيس بن أبي حازم البجلي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلِّمه فأُرعد الرجل ، فقال له : هوِّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

ورواه من طريق آخر موصولا عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولكنه قال عن المرسل هو المحفوظ (١) .

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ ، وقوله ﷺ « أنا ابن امرأة من قريش » لايعارضه ما اشتهر من أن بني النجار من الأنصار أخواله فإن أمه من بني زهرة من قريش وليست من بني النجار ، وإنما بنو النجار أخوال جده عبد المطلب لأن أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو من بني النجار .

فهذا مثل من تواضع النبي ﷺ للناس، فهو في هذه القصة لم يغتنم فرصة هيبة الناس له المبنية على الحب البالغ والإعجاب الكبير بأخلاقه العالية . . لم يغتنم ذلك ليرسِّخ لنفسه مظاهر العظمة والتعالي، وحاشاه أن يفعل ذلك ، بل سارع في هذه القصة إلى محو ما قد يعلق في بعض النفوس من تصور المظاهر التي تعارف الناس عليها بالنسبة للسادة والزعماء، وإلى تقليص الحواجز التي قد تحول بين الرعية والراعي، فذكر لذلك الرجل أنه ﷺ ابن امرأة من قريش قد نشأت على التواضع والزهد حيث كانت تأكل اللحم المجفف .

أقول : بل أنت صلى الله عليك وسلم إمام الدنيا وهادي البشرية ومحييها بشرع الله بعد موتها ومُرَوِّيها بعد جفافها . . ولكنه التواضع العظيم الذي يحمل أصحاب النفوس الكبيرة على التهوين من شأنهم ليرفعوا من شأن الآخرين ، ويزيلوا الحواجز والكلفة من نفوسهم .

لم يذكر ﷺ لذلك الرجل أنه هادي البشرية وقائدها نحو النجاة، بل لم يذكر ماهو أقل من ذلك حيث لم ينسب نفسه إلى النسب الشريف والحسب الرفيع وأنه سليل السادة النجباء من قريش ، وذلك ليمحو من قلبه أثر الرعب الذي خالطه وهو يحدثه ، وليثبت له ولسائر الناس أن أعظم الناس هداية للأمة هو أشدهم تواضعا و أكرمهم أخلاقًا .

إن عظمة الرجل ليست في مقدرته على إرهاب من يقدر عليهم ، وإنما في رفع معنوياتهم حتى يستطيعوا التعبير عما في أنفسهم .

ولقد كان من عادة العرب أن ينتسبوا إلى آبائهم عند التفاخر ، لكن النبي ﷺ انتسب إلى أمه في خطابه لهذا الرجل ، وهذا منتهى التواضع الذي يعتبر في القمة من مكارم الأخلاق .

٣ - أخرج ابن إسحاق من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يارسول الله ، هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قال : قالت : فأجلسه بين يديه ، ثم مَسح صدره، ثم قال له : أسلم ، فأسلم ، قالت : فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة ، فقال رسولُ الله ﷺ : غيروا هذا من شعره[١] .

وهذا مثال آخر على تواضع النبي ﷺ للناس ، فقد كان على استعداد لزيارة والد أبي بكر رضي الله عنهما في بيته مع ما هو فيه من قيادة الأمة وما ينتظره من مهام الأمور .

وقد سنَّ النبي ﷺ في هذا الخبر سنة توقير كبار السن واحترامهم ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٢] ، وقوله « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم . . » الحديث[٣] .

كما أن مما سنَّه رسول الله ﷺ في هذا الخبر إكرام أقارب ذوي البلاء والتقدم في الإسلام مكافأة لهم على ما قدموه من خدمة للمسلمين ونصر للدعوة الإسلامية .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٠ - ٣١ .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمامين أحمد والطبراني عن أسماء رضي الله عنها ، وذكر نحوه وقال : ورجالهما ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٥٧ ، سنن الترمذي ، كتاب البر ، باب ١٥ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ٢٠ .

١٥ - دخول المسلمين مكة -

١ - قال ابن إسحاق : وقد حدثني عبد الله بن أبي نَجيح في حديثه أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد ، فدخل من اللِّيط ، أسفل مكة ، في بعض الناس ، وكان خالد على المُجنَّبة اليمني ، وفيها أسلمُ وسُليم وغفار ومُزينة وجُهينة وقبائل من قبائل العرب ، وأقبل أبو عُبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدَي رسول الله ﷺ ، ودخل رسولُ الله ﷺ من أذاخر ، حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له هنالك قُبته .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نَجيح وعبد الله بن أبي بكر : أن صفوان بن أميَّة وعكرمة بن أبي جهل وسُهَيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسا بالخَندمة ليقاتلوا ، وقد كان حماس بن قَيس بن خالد، أخو بني بكر ، يُعدّ سلاحا قبل دُخول رسول الله ﷺ ، ويُصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تعدّ ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إني لأرجو أن أُخدمك بعضهم ثم قال :

إنْ يُقبلوا اليوم فما لي علَّهْ ... هذا سلاحٌ كامل وألّهْ (١)

وذو غرارين سريع السَّلة (٢)

ثم شهد الخَندمة مع صفوان وسُهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون

---

(١) الألّة الحربة ذات السنان الطويل .

(٢) ذو غرارين يعني السيف ، والغرار بكسر الغين معناه الحد ، وسريع السلة يعني سريع الخروج من الغمد .

من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئًا من قتال ، فَقُتلَ كُرز بن جابر ، أحد بني محارب بن فهر ، وخُنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم ، حليف بني مُنقذ ، وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذّا عنه فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا ، قُتل خنيس بن خالد قبل كرز بن جابر ، فجعله كرز بن جابر بين رجليه ، ثم قاتل عنه حتى قتل : وهو يرتجز ويقول :

قد علمتْ صفراء من بني فهرْ   نقيَّة الوَجه نقيَّة الصَّدرْ
لأضربنَّ اليومَ عن أبي صَخرْ

وقال ابن هشام : وكان خُنيس يُكنى أبا صخر ، قال ابن هشام : خُنيس بن خالد من خزاعة .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر ، قالا : وأصيب من جُهينة سلمة بن الميلاء ، من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثنى عشر رجلا ، أو ثلاثة عشر رجلا ، ثم انهزموا ، فخرج حماسٌ منهزما حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقي عليّ بابي ، قالت . فأين ماكنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمهْ   إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
وَابُو يزيدَ قائم كالمؤتمهْ   واستَقْبلتهُمْ بالسُّيوف المُسْلمه(١)
يقطعنَ كلّ ساعد وجُمجمه   ضربا فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم نَهيتٌ خَلْفنا وهَمهمه   لم تنطقي في اللَّوم أدنى كلمه(٢)

(١) أبو يزيد هو سهيل بن عمرو ، والمؤتمة بكسر التاء هي المرأة التي قتل زوجها في الحرب وترك لها أولادا صغارا .

(٢) النهيت نوع من زئير الأسد ، والهمهمة الصوت الذي يخرج من الصدر .

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحُنين والطائف، شعارُ المهاجرين : يابني عبد الرحمن، وشعار الخزرج : يابني عبد الله، وشعار الأوس : يابني عبيد الله .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ قد عَهِدَ إلى أمرائه من المسلمين- حين أمرهم أن يدخلوا مكة - أن لا يُقاتلوا إلا من قاتلهم (١) .

٢ - أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : ومكث رسول الله ﷺ في منزله ساعةً من النهار(٢) واطمأنّ واغتسل ، ثم دعا براحلته القَصواء فأدنيت إلى باب قُبَّته ، ودعا للُبْس السلاح ، والمغفر على رأسه، وقد صَفَّ له الناسُ ، فركب براحلته والخيل تمْعج بين الخَنْدمَة إلى الحَجون، ومرَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه يسير يُحادثه ، فمرّ ببنات أبي أحَيْحَة بالبطْحاء حذاء منزل أبي أحَيحة وقد نشرن رُءوسهنَّ، يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسَّم ، وذكر بيت حَسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّرات تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النِّساءُ(٣)

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ، ومعه المسلمون ، تقدّم على راحلته فاستلم الرُّكن بمحْجنه ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، فرجَّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل رسول الله ﷺ يُشير إليهم: اسكتوا ! والمشركون فوق الجبال ينظرون (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢ - ٣٥ .

(٢) يعني في المكان الذي نزل فيه وذلك في الحجون .

(٣) وذلك من قصيدته الهمزية العصماء التي سبق ذكرها .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٨٣١ .

وهكذا دخل الرسول ﷺ إلى الكعبة ولم يكن قتال إلا ما كان من طائفة من المشركين لم يقبلوا أمان النبي ﷺ فقاوموا عند الخندمة وتصدى لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيشه حتى هزمهم .

وكون النبي ﷺ يصل إلى الكعبة بدون مقاومة تُذكر ولا قتال دليل على حسن إدارته وتدبيره للأمور وتعظيمه لحرمات الحرم .

وبهذا تم فتح مكة المكرمة وتلاشى أكبر عدو للإسلام والمسلمين ، ودخل أهل مكة بعد ذلك في الإسلام وكانوا من أعظم المجاهدين في سبيل الله تعالى .

وقد أضاف النبي ﷺ كما جاء في هذا الخبر أمانًا آخر لأهل مكة وذلك بأمره قادته أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم ، وبذلك أمِنَ الذين انهزموا من لقاء الخندمة والذين صعدوا على الجبال .

وفي هذا الخبر إشادة بحسان بن ثابت رضي الله عنه حيث وقع ما أخبر به في شعره بقوله :

تظل جيادنا متمطرات　　تلطمهن بالخمر النساء

وذلك حينما خرجت النساء يلطمن وجوه الخيل بخمرهن في البطحاء ، مما أثار إعجاب النبي ﷺ حيث نظر إلى أبي بكر رضي الله عنه وتبسم وذكر بيت حسان هذا ، وهذا من إلهام الله تعالى لحسان .

* * *

١٦ – مثل من أمانة النبي ﷺ ووفائه –
(رد مفتاح الكعبة لبني شيبة)

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُبيد الله ابن عبد الله ابن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأنّ الناس، خرج حتى جاء البيتَ، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففُتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفّ له الناس[1] في المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثُرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قَدَميّ هاتين، إلاَّ سدَانة البيت وسقاية الحجاج، ألا وقتيلُ الخطأ شبه العمْد بالسوط والعصا، ففيه الدّيُة مغلظة : مئة من الإبل، أربعون منها في بُطونها أولادها. يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية، وتعظُّمها بالآباء، الناسُ من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [**الحجرات** : ١٣] الآية كلها . ثم قال : يامعشر قريش، ماتُرَون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

---

(١) أي اجتمعوا له .

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السِّقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فُدعيَ له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليومُ يوم برّ ووفاء(١) .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح(٢) .

وروى نحوه عبد الرزاق الصنعاني ، ثم قال : فحدثت به ابن عيينة فقال : أخبرني ابن أبي مُلَيكة أن النبي ﷺ قال لعلي يومئذ - حين كلمه في المفتاح - : « إنما أعطيتكم ما تُرْزَؤُون ولم أعطكم ما تَرْزَؤُون» يقول : أعطيتكم السقاية لأنكم تَغْرَمون فيها ، ولم أعطكم البيت ، أي أنهم بأَخْذه يأخذون من هديته (٣) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : ردُّ النبي ﷺ مفتاح الكعبة إلى بني شيبة ، لقد كانت السلطة الكاملة آنذاك بيد النبي ﷺ وكان باستطاعته أن يمنح بني هاشم شرف حجابة البيت ، ولكنه يعلم أن ذلك يتعارض مع خلق الوفاء والبر ، فبنو شيبة لهم حق التوارث في ذلك فمن البرِّ بهم أن لاينزعه منهم ، ومن الوفاء أن يرد المفتاح إليهم ولذلك قال لعثمان بن طلحة الشيبي : « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠ - ٤٢ ، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٨/ ١٨ - .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٨٣ - ٨٤ ، رقم ٩٠٧٣ .

وفي هذا الخبر مثل واضح لتمييز النبي ﷺ بين بر الأقارب وإقرار العدالة في إعطاء الناس حقوقهم .

إن للقرابة حقا ثابتا من البر والإحسان ، ولكن يجب أن لايطغى لزوم ذلك على مبدإ إقرار العدالة في الأرض ، لأن ذلك من الظلم ، وقد يحدث بسبب عدم تطبيق العدالة فساد في الأرض ، وقد كان رسول الله ﷺ يراعي هذا المبدأ في كل توجيهاته وأحكامه .

ثانيًا : ماجاء في خطبة النبي ﷺ من بيان بعض العقائد والأحكام ومخاطبة قريش بالعفو والتسامح ، فمن ذلك إلغاء مآثر الجاهلية التي تتنافى مع الإسلام ، ولقد كان النبي ﷺ قويا حازما في هذا القرار لأن بعض المآثر يعتز بها المشركون .

ومن ذلك إقرار المساواة بين المسلمين في الأنساب التي يعتز بها أهل الجاهلية ، فالناس يجمعهم جميعا آدم عليه السلام ، وإنما أحدث الناس التميز في الأنساب حسب أهوائهم ، وقد بين النبي ﷺ الشيء الوحيد الذي يتفاضل فيه المسلمون ، ألا وهو التقوى ، حيث تلا قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [**الحجرات** : ١٣] .

وقد ختم النبي ﷺ خطبته بموقفه العظيم في العفو عن قومه والتسامح معهم حيث قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

لقد قابل ﷺ إساءة قومه بالإحسان ، وعداوتهم بالعطف والرحمة ، وغض الطرف عن كل ماوصل إليه منهم من أذى وإهانة .

تُرَى لو كانوا هم الذين ظفروا بالنبي ﷺ ماذا كانوا يصنعون به ؟!

إن كل ما يتصوره البشر من وسائل التعذيب والإهانة يمكن أن يجعلوها مقدمة لقتله والتخلص منه .

لكنه ﷺ أطلقهم كاملي الحرية من غير أن يمس كرامتهم ولا أن يجرح مشاعرهم .

ولقد كان لهذا السلوك الكريم الأثر الكبير في هدايتهم حيث أسلموا جميعا على فترات .

وهذا منهج عال يرسم معالمه النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى ليسير المسلمون على نهجه في التجرد من حظ النفس والنظر الخالص إلى مافيه هداية الناس وإعزاز الإسلام .

* * *

١٧ – مثل من إعزاز الإسلام والمسلمين –
(أذان بلال فوق الكعبة)

قال ابن هشام : وحدثني[١] أن رسول الله ﷺ، دخل الكعبة عام الفَتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذّن ، وأبو سُفيان بن حَرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه مايغيظه ، فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتبعته، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا ، لو تكلمت لأخبرَتْ عني هذه الحَصى، فخرج عليهم النبي ﷺ ، فقال : قد علمت الذي قُلتم . ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب : نَشْهَد أنك رسول الله ، والله ما اطّلع على هذا أحدٌ كانَ معَنا ، فنقُول أخْبركَ[٢] .

في هذا الخبر مثل على اهتمام النبي ﷺ بإظهار عزة الإسلام وإغاظة المشركين ، وإكرام المؤمنين .

لقد أراد النبي ﷺ من أمر بلال بالأذان فوق الكعبة أن يُظهر عزة الإسلام حيث ارتفع نداؤه فوق أقدس مكان، وأن يُعلم المشركين بأن الشرك لم يَعُدْ لَه بقاء في تلك الأراضي المقدسة بعد أن ارتفع نداء التوحيد.

وفي أمر بلال بذلك إشعار لسادة قريش الذين لازالوا يعتزون بسيادتهم الجاهلية أنه بإمكان بلال ونحوه من الذين كانوا مستضعفين

(١) يعني من يثق به من أهل العلم الذي ذكره في خبر سابق .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٣ .

تحت أيديهم أن يتبوؤوا في الإسلام مكانا عاليا .

وقد كان من نتائج هذا الموقف أن صدرت من عَتَّاب بن أسيد هذه المقالة التي تمخض عنها إسلامه هو والحارث بن هشام حينما أخبرهم النبي ﷺ بما قالوا وهو غائب عنهم فعرفوا أنه رسول الله حقا بهذه المعجزة النبوية .

وهكذا قال عتاب هذه المقالة حال كفره حينما كانت القيم العالية عنده هابطة ، والموازين مقلوبة ، ولكن حينما نور الله تعالى بصيرته بالإسلام فلا شك أنه سيتمنى أن أباه كان من المهتدين ، وأن يشهد عظمة الإسلام وعزة المستضعفين .

لقد تحول هذا المشهد في عيني عتاب إلى بَرْد وسلام بعد أن كان لهيبًا وأحقادًا ، وهكذا تكون عظمة الإسلام في علاج النفوس المريضة الهابطة ودفعها إلى الآفاق العالية .

ولقد كان إيمان عتاب بن أسيد قويا ، مما جعل النبي ﷺ يثق به فيوليه إمرة مكة ، وقد كان موضع الثقة ، حيث كان قويا في تنفيذ أحكام الدين ، شديدا على المتهاونين بتنفيذ هذه الأحكام .

* * *

١٨ - مثل من وفاء النبي ﷺ -
(إشفاق الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة)

أخرج الإمام مسلم بإسناده حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه في فتح مكة وقد جاء فيه : « فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة : وجاء الوحي ، وكان إذا جاء الوحي لايخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : يامعشر الأنصار ، قالوا : لبيك يارسول الله ، قال : قلتم أما الرجل فأركته رغبة في قريته ، قالوا : قد كان ذاك ، قال : كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، والمحيا محياكم والممات مماتكم ، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنَّ بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله ورسوله يُصَدِّقَانكم ويعذرانكم »(١) .

وهكذا أشفق الأنصار رضي الله عنهم من أن يقيم رسول الله ﷺ بمكة ويتركهم ، لكن النبي الكريم الوفي لن يخلف وعده الذي وعدهم به يوم بيعة العقبة من عدم التحول عنهم إذا نصره الله تعالى وظهر أمره ، وحتى لو لم يكن هناك وعد فإن وفاءه لأولئك الأماجد الكرام الأسود الأشاوس الذين نصر الله بهم الإسلام وأقام بهم دولته . . إن وفاءه لهم يمنعه من أن يتحول عنهم ، ولذلك قال : « المحيا محياكم والممات مماتكم » وبهذا اطمأن الأنصار وامتلؤوا سعادة وحبورا .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٨٠ (ص ١٤٠٥) .

١٩ - تحطيم الأصنام في مكة وخارجها -

١ - أخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب [١] فجعل يطعنها بعود في يده ويقول﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩][٢] .

وقد سقطت هذه الأصنام كلها كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم ، قال : فأخذ قضيبه فجعل يُهْوِي به إلى صنم صنم وهو يَهْوِي حتى مر عليها كلها [٣] .

٢ - أخرج الواقدي من حديث سعيد بن عمرو الهذلي قال : قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رمضان إلى أن قال : وبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى يهدمها ، فخرج خالد في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى انتهى إليها وهدمها ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : هُدمتْ ؟ قال : نعم يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئًا ما ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها . فارجع إليها فاهدمها .

---

(١) يعني الأصنام ، سميت بذلك لأنها تنصب للعبادة .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٢٨٧ (٨/ ١٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٨١ (١٤٠٨) .

(٣) دلائل النبوة ٥/ ٧١ .

وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦ - وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

فرجع خالد وهو متغيظ ، فلما انتهى إليها جرَّد سيفه ، فخرجت إليه امرأةٌ سوداءُ عُريانة ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، قال خالد : وأخذني اقشعْرارٌ في ظهري ، فجعل (١) يصيح :

أيا عُزَّ شُدّي شدَّةً لاتُكــذِّبي ... على خالد ألقي القناعَ وشَمِّري

أيا عُزَّ إن لم تقتلي المرءَ خالدًا ... فبوئي بذنب عاجل أو تَنَصَّري

قال : وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

يـاعُزَّ كفــرانك لاسبحـانك ... إني وجـدت الله قـد أهانك

قال : فضربها بالسيف فجزلها باثنين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العُزَّى وقد يئسَتْ أن تُعبد ببلادكم أبدًا .

ثم قال خالد : أي رسولَ الله : الحمد لله الذي أكرمنا وأنقذنا من الهَلَكة ! إني كنت أرى أبي يأتي إلى العُزَّى بحتْره (٢) ، مائة من الإبل والغنم ، فيذبحها للعُزَّى ، ويُقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسرورًا ، فنظرت إلى ما مات عليه أبي ، وذلك الرأي الذي كان يُعاش في فضله ، كيف خُدع حتى صار يذبح لحَجَر لايسمع ولايُبصر ، ولايضرّ ولاينفع . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ هذا الأمر إلى الله ، فمن يسّره للهُدى تيسر ، ومن يسره للضَّلالة كان فيها .

قال : وكان هدْمها لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان (٣) .

---

(١) يعني السادن .

(٢) أي بعطيته .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٨٧٣ - ٨٧٤ .

وأخرج خبر هدم العزى ابن إسحاق بأخصر من هذا [1]

وأخرجه كذلك البيهقي من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه . . وفيه «فرجع خالد ، فلما نظرت إليه السدنة – وهم حُجَّابها – أمعنوا في الجبل ، يقولون : ياعُزَّى خبِّليه ، ياعزى عوِّريه » [2]وإلا فموتي برَغْم» [3] .

٣ – أخرج الواقدي من حديث سعيد بن عمرو الهذلي قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بث السرايا . . إلى أن قال : وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هُذيل – سُواع – فهدمه ، فكان عمرو يقول : انتهيت إليه وعنده السادن ، فقال : ماتُريد ؟ فقلت : هَدْم سُواع . فقال : مالك وله؟ فقلت : أمرني رسول الله ﷺ ! قال : لاتقدر على هَدْمه . قلت : ولمَ ؟ قال : يمتنع . قال عمرو : حتى الآن أنت في الباطل! ويحك هل يسمع أو يُبصر ؟ قال عمرو : فدنوت إليه فكسرته ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، ولم يجدوا فيها شيئًا ، ثم قال للسادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت لله .

ثم نادى مُنادي رسول الله ﷺ بمكة : من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدَعنَّ في بيته صنَمًا إلا كسره . قال : فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٧٩ – ٨٠ .

(٢) أي أصيبيه بعقله وجسمه .

(٣) دلائل النبوة ٥/ ٧٧ .

وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لا يسمع بصَنَم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره [1] .

٤ - قال محمد بن سعد رحمه الله تعالى :

قالوا : بعث رسول الله ، ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مَناة ، وكانت بالمُشَلَّل للأوس والخزرج وغسّان. فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي يهدمها فخرج في عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال السادن : ماتريد؟ قال : هدْمَ مَناة ! قال : أنت وذاك ! فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليه امرأة عُريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال السادن : مَناة دونَك بعْضَ غضباتك ! ويضربها سعد بن زيد الأشهلي وقتلها ويُقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا وانصرف راجعا إلى رسول الله ﷺ ، وكان ذلك لستّ بقين من شهر رمضان [2] .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولا : مبادرة النبي ﷺ إلى إزالة معالم الوثنية منذ أن قدر على إزالتها لأن الدعوة إلى التوحيد مع بقاء معالم الشرك لاتنفع إلا قليلا، حيث لايتأثر بالدعوة إلا قلة من الناس ، فإن السواد الأعظم منهم قد تعلقت قلوبهم بمعالم الوثنية التي توارثوا تقديسها ، وتحُول بينهم وبين التأثر بدعوة الحق .

لقد شاهد الكفار أصنامهم التي ورثوا تعظيمها كابرًا عن كابر وهي

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٦٩ - ٨٧٠ . وانظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٦ - ١٤٧ .

تَهْوي وتتحول إلى حطام من الحجارة والخشب ، وثبت لكل ذي عقل سليم أنها لاتضر ولاتنفع ، وإنما هي مجرد وسائل يتلبس بها شياطين الإنس والجن ليهيمنوا بها على قلوب الناس .

كان شياطين الإنس يحرسون هذه الأصنام ويقاتلون دونها ، لأنها كانت تؤمِّن لهم سلطة روحية على الناس ، وباسمها يشرعون للناس على حسب ماتمليه عليهم أهواؤهم المنحرفة .

وكان شياطين الجن يستترون وراء هذه الأصنام فيخاطبون عابديها أحيانًا ، ويقضون لهم بعض حوائجهم التي هي في مقدورهم مقابل عبادتهم إياهم ، كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي عن ابن أبزَى قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيسَتْ أن تعبد ببلدكم هذا أبدا» (١) .

ونائلة اسم صنم حول الكعبة ، فهذا دليل على أن المعبودين حقيقة هم شياطين الجن ، وقد ماتوا كمدا وحسرة حينما فتحت مكة وانقطع الناس عن عبادتهم ، وزالت الأصنام التي كانت وسائط بينهم وبين الناس .

ومما يدل أيضًا على أن شياطين الجن كانوا من وراء الأصنام اعتمادًا على سذاجة بعض الإنس ماجاء في الخبر الثاني الذي فيه أن خالد بن الوليد رضي الله عنه هدم العزى فخرجت له امرأة من الجن فقتلها وكذلك ماجاء في الخبر الرابع الذي فيه أن سعد بن زيد الأشهلي رضي

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٧٥ .

الله عنه خرجت له امرأة من الجن من صنم مناة فقتلها .

وهكذا تبين لنا كيف أن أولئك العرب في جاهليتهم كانوا يركعون ويتذللون لنساء من الجن . . فما أحقر العقول وأهونها حينما تكون بعيدة عن الله تعالى !

لقد كانوا مجتمعين بمالَهُم من قوة ومنعة لايستطيعون أن يتفوهوا بكلمة سوء لهذه الأصنام خوفا من أن تضرهم بينما يستطيع القضاء عليها رجل واحد من الموحدين كما فعل خالد وسعد رضي الله عنهما .

فما أعلى هذا الأفق الذي رفع الناسَ إليه رسولُ الله ﷺ بدعوة التوحيد ! !

وما أبلغ هذا المستوى الفكري الذي وصل إليه المسلمون بهذه الدعوة!!

إنها الدعوة السامية التي تهدف إلى إعتاق الفكر البشري وتحريره من قيود الجاهلية الخانقة لينطلق في ساحات الإيمان الرحيبة فيضع الأمور في مواضعها ، ويقدر الله تعالى حق قدره ، ويعطي لكل كائن حي ما يلائم تكوينه الذي خلقه الله عليه .

* * *

٢٠ - مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه ودعوته - (خبر فضالة بن عمير وإسلامه)

قال ابن هشام : وحدثني (١) أن فضالة بن عُمير بن المُلَوّح الليثيَّ أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عامَ الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ : أفَضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله، قال : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء، كنت أذكر الله، قال : فضحك النبي ﷺ، ثم قال : استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول : والله مارفع يده عن صدري حتى مامنْ خلق الله شيٌ أحبُّ إليّ منه . قال فضالة : فرَجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها، فقالت : هَلمَّ إلى الحديث، فقلت : لا، وانبعث فَضالة يقول :

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك اللهُ والإسلامُ
لو مارأيت محمداً وقَبيله ... بالفتح يومَ تكسَّر الأصْنامُ
لرأيت دينَ الله أضْحَى بَيِّنًا ... والشِّركَ يغشى وجهَه الإظلامُ (٢)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : ما اشتمل عليه من أخلاق النبي ﷺ العالية في العفو والتسامح والحلم حيث واجه من كان يريد قتله بالبشاشة وعفا عنه وتوجه لدعوته إلى الإسلام الحق .

إن الذي كان يشغل بال النبي ﷺ هو أن يهدي الله تعالى على يديه

---

(١) يعني من يثق به، فالضمير يعود على ماذكره في الرواية السابقة .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٨ - ٤٩ .

أكبر قدر ممكن من البشر ، وكانت هذه المهمة تطغى في حياته على كل أمر دنيوي ، ولهذا حينما علم بما كان يضمره فضالة من إرادة الفتك به لم يُلْق لأمر حمايته منه بالا ، ولم يشغل فكره بكيفية الانتقام منه، وإنما توجه فكره حالاً لمحاولة هدايته من الضلال .

ولقد كان لمظهر النبي ﷺ وهو يبتسم له ويأمره بالاستغفار مع شعوره بأنه قد عرف مقصده وما يتضمنه ذلك من حلم النبي ﷺ وعفوه عنه أثر ظاهر في محو كل أثر للشرك والكراهية من قلب فضالة إلى جانب بركة يد النبي ﷺ التي وضعها على صدره ، لقد تحول أبغض الناس إليه إلى رجل هو أحب الناس إليه في لحظات يسيرة، وماذاك إلا لأنه ﷺ عامله بأعلى ما يُتصوَّر من مكارم الأخلاق من الحلم والعفو والبشاشة ، في الوقت الذي كان يتوقع لو انكشف أمره أن يعامل بأقسى مايمكن أن يُتصوَّر من المعاملة .

ثانيًا : موقف فضالة بن عمير ا الليثي رضي الله عنه في الورع والاستقامة رغم حداثة عهده بالإسلام فقد رفض أن يتحدث مع تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه وأشعرها بأن ذلك لا يحل له في الإسلام .

لقد كان إسلامه قويا وإيمانه صادقا حيث تكوَّن لديه بهذه السرعة الوازع الديني الذي جعله يرفض الاستجابة للحرام إجلالاً لله تعالى ولشرف الشهادتين اللَّتين نطق بهما عن يقين وقناعة .

وهذا مثل ظاهر على أثر إيمان الصحابة رضي الله عنهم البالغ في سلوكهم ومعاملتهم مع الناس .

* * *

٢١ – مواقف عالية لرسول الله ﷺ في الدعوة –

١ – إسلام سهيل بن عمرو –

قال الواقدي : فحدّثني موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : قال سُهَيل بن عمرو : ولمّا دخل رسول الله ﷺ مكة وظَهَر ، انقحمتُ(١) ببيتي وأغلقتُ عليّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سُهيل(٢) أن اطلب لي جوارًا من محمد ، وإني لا آمن أن أُقتل ، وجعلتُ أتذكَّر أثري عند محمد وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثرًا مني ، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحُديبية بما لم يلقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حُضوري بدرًا وأحُدًا ، وكلما تحرَّكتْ قريش كنت فيها .

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، تُؤمّنه ؟ فقال : نعم ، هو آمنٌ بأمان الله ، فليظهر ! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : من لقي سُهيل بن عمرو فلا يَشُدُّ النَّظرَ إليه . فليخرج ، فلعَمري إنّ سهيلاً له عَقْلٌ وشَرَف ، وما مثل سُهيل جَهلَ الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع ! فخرج عبد الله إلى أبيه

(١) أي رميت بنفسي .

(٢) هو عبد الله بن سهيل بن عمرو رضي الله عنهما أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة في المرة الثانية ، ثم قدم مكة للهجرة إلى المدينة فحبسه أبوه ، فأظهر له الرجوع إلى دينه والشدة على المسلمين حتى أخرجه معه إلى بدر في نفقته وحملانه وهو لايشك أنه على دينه ، فلما تواقفوا إنحاز إلى المسلمين قبل القتال ، فغاظ ذلك أباه ، ثم كان يقول بعد إسلامه حين أسلم يوم فتح مكة : لقد جعل الله لي في إسلام ابني عبد الله خيرًا كثيرًا ، استشهد في معركة جُواثى في البحرين أيام الردة وله ثمان وثلاثون سنة ، فلقي سهيل أبا بكر رضي الله عنه فعزاه أبو بكر فقال سهيل : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « يشفع الشهيد في سبعين من أهله » وأنا أرجو أن لايُقَدِّم عليّ ابني أحدا – أنساب الأشراف ١/ ٢٥٢ – .

فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سُهَيل : كان والله بَرّا ، صغيراً وكبيراً ! فكان سُهيل يُقبل ويُدبر ، وخرج إلى حُنَين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة (١) .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعرف الرجال ويقدر كرام القوم، ولقد عرف مادخل أصحابَه من الغل على سهيل بن عمرو حيث كان هو الذي تولى عقد ذلك الصلح الجائر يوم الحديبية الذي بسببه مُنع المسلمون من العمرة في ذلك العام ، فخشي ﷺ أن ينظر إليه الصحابة نظرات جارحة ، فيكون ذلك سببا في تمنُّعه من الإسلام ، فأمر أصحابه أن لا ينظروا إليه نظرات حادَّة ، ووصف سهيلا بالعقل والشرف، وبَنَى على ذلك أن من كان في مثل عقله وشرفه فإنه لايجهل الإسلام .

لقد كان لهذه الكلمات التربوية العالية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره ، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك .

إن هذا السلوك العالي من رسول الله ﷺ في معاملة سهيل يعتبر قدوة عليا للدعاة من بعده وخاصة القادة منهم ، وذلك في سلوك السبل التي تسُلُّ سخائم الصدور وترفع الحرج عن الأعزة الأكابر الذين وقعوا في شيء من الذل حتى لايتعرضوا لجرح المشاعر .

لقد نهى رسول الله ﷺ الصحابة أن يشفوا غليلهم من سهيل بالنظرات الحادة ، لاحتمال أن يقع ذلك من بعضهم مادام سهيل على كفره، لأن هذا الأمر هو الذي يقدرون عليه، إذ أنهم لايقدرون على

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧ ، وانظر المستدرك للحاكم ٣/ ٢٨١ .

قتله، ولا على إيذائه بأكثر من ذلك وهو في الأمان ، فنهاهم عن ذلك لأنه يريد كسبه للإسلام ، وكسبُ مثله يعني كسب الكثيرين ممن ألفوا التبعية للأكابر .

وبهذا وأمثاله كان رسول الله ﷺ في أعلى قمم الدعوة إلى الله تعالى .

هذا وقد حسن إسلام سهيل بن عمرو ، وكان مكثرا من الأعمال الصالحة ، يقول الزبير بن بكار : كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدا ، ويقال : إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير ، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرا على كردوس (١) يوم اليرموك (٢) .

وسيأتي بيان موقفه العظيم يوم وفاة النبي ﷺ حيث ثبَّت الله تعالى به أهل مكة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

* * *

---

(١) أي فرقة كبيرة .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩٥ .

٢ - إسلام صفوان بن أمية -

أخرج الواقدي من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : وأما صَفوان بن أُمية ، فهرب حتى أتى الشُّعَيبة(١) . وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره : وَيْحك ، انظر مَن ترى ! قال : هذا عُمَير بن وَهب . قال صَفوان : ما أصنع بعُمَير؟ والله ماجاءَ إلا يُريد قتلي ، قد ظاهر محمداً عليّ . فلحقه فقال : ياعمير ، ماكفاك ماصنعت بي؟ حمّلتني دَينك وعيالك ، ثم جئت تُريد قتلي ! قال : أبا وَهْب ، جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرّ الناس وأوصل الناس . وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، سيد قومي خرج هاربًا ليقذفَ نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه ، فأمِّنه فداك أبي وأمّي ! فقال رسول الله ﷺ : قد أمنته .

فخرج في أثره ، فقال : إنَّ رسول الله ﷺ قد أمّنك . فقال صفوان: لا والله ، لا أرجع معك حتى تأتيني بعَلامة أعرفها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، جئت صَفوان هاربًا يُريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنتَه : فقال : لا أرجع حتى تأتي بعَلامة أعرفها ، فقال رسول الله ﷺ : خذ عمامتي .

قال : فرجع عُمَير إليه بها ، وهو البُرْد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ

---

(١) الشعيبة : مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٧٦)، وهو معروف الآن بهذا الاسم .

يومئذ مُعتجراً [1] به ، بُرْد حبَرَة[2] . فخرج عُمير في طلبه الثانية ، حتى جاء بالبُرْد فقال : أبا وَهْب ، جئتك من عند خير الناس ، وأوصل الناس ، وأبرّ الناس . وأحلم الناس ، مَجْده مَجْدك ، وعزه عزُّك ، ومُلْكه مُلْكك . ابن أمك وأبيك . أذكرك الله في نفسك . قال له : أخاف أن أقتَل . قال : قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيّرك شهرين ، فهو أوفى الناس وأبرُّهم . وقد بعث إليك ببُرْده الذي دخل به معتجراً ، تعرفه ؟ قال : نعم . فأخرجه ، فقال : نعم ، هو هو ! فرجع صَفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يُصلّي بالمسلمين العصر في المسجد ، فوقفا . فقال صفوان : كم تُصلُّون في اليوم والليلة ؟ قال : خمس صلوات ، قال : يُصلّي بهم محمد؟ قال : نعم . فلما سلَّم صاح صَفوان : يامحمد ، إنَّ عُمير بن وهب جاءني ببُرْدك ، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك . فإن رضيت أمراً وإلا سيّرتَني شهرين . قال : انزل أبا وَهب . قال : لا والله ، حتى تُبين لي . قال : بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان .

وخرج رسول الله ﷺ قبَلَ هوازن ، وخرج معه صَفوان وهو كافر ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها ، فقال : طوْعًا أو كَرْهًا ؟ قال رسول الله ﷺ : عارية مُؤَدّاة ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حُنين ، فشهد حُنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، فبينا رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه

---

(١) الاعتجار بالعمامة : هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولايعمل منها شيئًا تحت ذقنه (النهاية ، ج٣ ، ص ٦٩) .

(٢) الحبرة : ضرب من ثياب اليمن . (شرح أبي ذر ، ص ٣٦٩) .

صفوان بن أمية ، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلئَ نَعَمًا وشاءً ورعاءً، فأدام إليه النظر ، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : أبا وهب ، يُعجبك هذا الشِّعْب ؟ قال : نعم . قال : هو لك ومافيه . فقال صفوان عند ذلك : ماطابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبيّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ! وأسلم مكانَه (١) .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عروة بن الزبير وذكر نحوه (٢) .

في هذا الخبر موقف دعوي جليل لرسول الله ﷺ فقد حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان أولاً ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثم بإعطائه من المال العطايا الكبيرة التي لاتصدر من إنسان عادي ، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه مافي أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال : ماطابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ، ثم أسلم مكانه .

هذا الرجل الذي عمل الأعمال الكثيرة في عداء الإسلام ومحاولة اغتيال النبي ﷺ يكافئه الرسول ﷺ بهذه الأعطيات الجزيلة ، ويتناسى كل أعماله السابقة ، ويهتم بشيء واحد هو أن يدخل في الإسلام لأنه زعيم قومه ، وبإسلامه سيسلم من لم يسلم بعد من بني جمح ، حتى نجح أخيرا في جذبه إلى الإسلام بشيء اعترف هو بأنه لايصدر إلا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٥٣ - ٨٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٩ - ٥٠ .

وهكذا رأينا مثلا من اهتمام النبي ﷺ الكبير بدعوته وبذل المحاولات المتعدده من أجل هداية الناس إلى الإسلام .

وفي وصف عطاء النبي ﷺ لصفوان وتأثر صفوان بذلك يقول عن نفسه : والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي» أخرجه الإمام مسلم(١) .

* * *

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل رقم ٢٣١٣ (ص ١٨٠٦) .

٣ - إسلام عكرمة بن أبي جهل -

أخرج الواقدي بإسناده إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قالت أمّ حَكيم امرأة عكْرمة بن أبي جهل: يارسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تَقتله فأمِّنْه، فقال رسول الله ﷺ: هو آمن، فخرجت أمّ حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تُمنِّيه حتى قدمت على حَيّ من عَكّ[1]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلصْ! فقال: أيّ شيء أقول: قال: قل لا إله إلا الله. قال عكْرمة: ماهربتُ إلا من هذا.

فجاءَت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تُلحّ إليه وتقول: ياابن عمّ، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لاتُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد أستأمنت لك محمداً رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك. فرجع معها وقال: مالقيت من غلامك الروميّ؟ فخبّرته خبره فقتله عكْرمة، وهو يومئذ لم يُسلم.

فلمّا دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: يأتيكم عكْرمة بن أبي جهل مُؤمنًا مُهاجرًا، فلا تَسُبّوا أباه، فإنّ سبّ الميّت يُؤذي الحي ولايبلغ الميت.

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول:

---

(١) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية (معجم ما استعجم، ص ٢٢٣).

إنك كافر وأنا مُسلمة . فيقول : إنّ أمرًا منعك مني لأمرٌ كبير .

فلمّا رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه - وماعلى النبي ﷺ رداء - فَرَحًا بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه ، وزوجته مُنتقبة ، فقال : يامحمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني . فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، فأنت آمن ! فقال عكرمة : فإلى ماتدعو يامحمد ؟ قال : أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن تُقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة - وتفعل ، وتفعل ، حتى عدّ خصال الإسلام .

فقال عكرمة : والله مادعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل ، قد كنتَ والله فينا قبل أن تدعو إلى مادعوتَ إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرُّنا برًّا . ثم قال عكرمة : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . فسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال : يارسول الله ، علمني خيرَ شيء أقوله . قال : تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله . قال عكرمة : ثم ماذا ؟ قال رسول الله ﷺ : تقول : أشهد الله وأُشهد من حضر أني مُسلمٌ مُهاجرٌ ومُجاهدٌ . فقال عكرمة ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : لاتسألُني اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه ، فقال عكرمة : فإني أسألك أن تستغفر لي كلّ عداوة عاديتُكها ، أو مسيروَضَعْتُ فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكلّ مسير سار فيه إلى موضع يُريد بذلك المسير إطفاءَ نورك ، فاغفر له ما نال منِّي من عرْض ، في وجهي أو وأنا غائب عنه! فقال عكرمة :

رضيت يارسول الله . ثم قال عكرمة : أما والله يارسول الله ، لاأدَعُ نفقة كنت أُنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعْفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أُقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله .

ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيداً (١) .

فردّ رسول الله ﷺ امرأته بذلك النّكاح الأوّل (٢) (٣) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : مواقف عظيمة لرسول الله ﷺ في الدعوة والرغبة الشديدة في هداية الناس ، وخصوصا من لهم تأثير في قومهم ، فقد أعطى الأمان لعكرمة بن أبي جهل بالرغم من كونه ظل يقاتل المسلمين حتى آخر لحظة حينما دخل المسلمون مكة المكرمة .

ثم أخبر الصحابة رضي الله عنهم بأن عكرمة سيأتي مسلمًا مُهاجراً وقال : « فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت» ، وإن من أسوإ نتائج الأذى من ذلك أن يحصل من عكرمة تَمنّع من الإسلام بسبب ذلك .

وهكذا تنبَّه النبي ﷺ إلى أمر قد يقع فعمل الاحتياط له حتى يزيل أي عقبة تحول بين عكرمة والإسلام ، أو تجعله ضعيف الشخصية في الإسلام لما يحصل له من التذكير بالماضي الذي لايُشرِّف المسلم، وإذا

---

(١) يعني يوم اليرموك .

(٢) يعني بعد إسلامه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٥١ - ٨٥٣ .

ضعفت شخصية المسلم تضاءلت طاقته وضعف عطاؤه .

ومن ذلك قيامه ﷺ في استقبال عكرمة حتى أعجل نفسه عن أخذ ردائه من شدة فرحه بمجيء عكرمة ، وقال له كما جاء في بعض الروايات : « مرحبا بالراكب المهاجر »(١) .

إن هذا السلوك من رسول الله ﷺ يعتبر قمة في التواضع واللطف . .

إن قيامه لعكرمة مع كونه آنذاك كافراً يشبه قيامه لأعز أحبابه المسلمين ، وماذاك إلا ليمحو من نفس عكرمة أيَّ شعور يخالج فكره من الخوف والرهبة مما سيواجهه من السلوك الخشن والمعاملة الجافة من المسلمين بسبب ترسُّب أحداث الماضي في أفكارهم .

إن هذا السلوك اللطيف الحاني من رسول الله ﷺ نحو عكرمة يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام .

رجلٌ تراكمت في سجلٍّ تاريخه وتاريخ أبيه أحداث مُرَّة مؤلمة نحو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ثم يَقْدُم عليهم بثياب الوَجل المتردد الذي ينتظر مواجهات ومعاملات مبنية على تراكمات الماضي ، فإذا به يفاجأ برسول الله ﷺ يقوم إليه مستقبلا قد أعجل نفسه عن لبس ردائه ، يبتسم له ويرحب به ترحيب من غُمر بفضائل من قام لاستقباله ! !

إنه موقف عظيم هائل . . لو جسِّم ثم وُجِّه إلى الجبال الراسيات

(١) ذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني بإسنادين قال عن أحدهما : مرسل ورجاله رجال الصحيح ، وقال عن الآخر : رجاله رجال الصحيح إلا أن مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة - مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٥ - ، وانظر - تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٩٨ - .

لفتّتها ، فكيف لا يؤثر في الإنسان الذي يملك الأحاسيس والمشاعر ؟! .

لقد أسلم عكرمة رضي الله عنه حالاً من حين أن عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وأثنى على النبي ﷺ من قبل أن يبعث رسولا .

ثانيًا : موقف أم حَكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة التي أخذت لزوجها الأمان من رسول الله ﷺ ، ثم غامرت بنفسها فخرجت تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام الذي هداها إليه ، خرجت إلى البحر وليس معها إلا غلامها الرومي الذي خان الأمانة معها فأخذته بالسياسة والحكمة حتى وجدت قوما منعوها منه ، ثم سارت حتى أدركت عكرمة على السفينة ، فأنقذته من الضلال والهلاك بإلحاحها وأسلوبها المؤثر حتى رجع معها إلى رسول الله ﷺ .

وحينما أرادها زوجها امتنعت منه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة ، فعظُم الإسلام في عينيه وأدرك أنه أمام دين عظيم .

هذه المرأة المُحبَّة لزوجها التي غامرت بنفسها وعرَّضتها للهلاك من أجله تمتنع منه بالإسلام ! .

إنه دين عظيم يحمل معتنقيه على مقاومة أهوائهم التي تتنافى مع تشريعاته .

إن دينًا يصل بالمرأة إلى أن تمتنع من زوجها لايمكن أن يكون من وضع البشر ، لأن مفكري البشر حريصون على أن يحققوا للبشر رغباتهم وإن كانت جامحة عن سَنَن الاعتدال .

إنه دين أعظم من ذلك . . إنه لايمكن أن يكون إلا الدين الإلهي . .

كل ذلك توحيه كلمة عكرمة . . إن أمرًا مَنَعَك مني لأمر كبير .

وهكذا تَخَطُّ أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام .

إنها رضي الله عنها امرأة عظيمة مجاهدة وفيَّة لزوجها، قوية في تمسكها بدينها رغم حداثة إسلامها .

ثالثًا : كان عكرمة رضي الله عنه صادق الإسلام قوي الإيمان من حين أن أسلم ، ولذلك لما برَّه النبي ﷺ بتحقيق مطلبه في أي شيء يريده مما أعطاه غيره لم يسأله دُنيا ، وإنما سأله أن يستغفر الله تعالى له في كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية .

ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعْف ماكان ينفق في الجاهلية ، وأن يُبْليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ماكان يبذله في الجاهلية .

وهذا دليل على صدقه وإخلاصه ، ولقد صدق في وعده فكان من أبرز المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في حروب الروم حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعدما أبلى بلاء عظيما رضي الله عنه .

* * *

٤ - إسلام هبَّار بن الأسود -

قال الواقدي : حدثني هشام بن عُمارة ، عن سعيد بن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن أبيه ، عن جده قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ في أصحابه في مسجده ، مُنْصَرَفَه من الجعرانة ، فطلع هبار بن الأسود من باب رسول الله ﷺ . فلما نظر القوم إليه قالوا : يارسول الله هَبّار بن الأسود! قال رسول الله ﷺ : قد رأيته ، فأراد بعض القوم القيام إليه ، فأشار النبي ﷺ أن اجلس ، ووقف عليه هَبّار فقال : السلام عليك يارسول الله ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولقد هربتُ منك في البلاد وأردت اللُّحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرّك وصفحك عمّن جَهل عليك ، وكنا يارسول الله أهل شرك، فهدانا الله عزّ وجلّ بك ، وأنقذنا بك من الهَلَكَة ، فاصفح عن جهلي وعمّا كان يبلغك عنّي ، فإني مُقرّ بسوء فعلي، مُعترف بذنبي . فقال رسول الله ﷺ : قد عفوتُ عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام، والإسلام يَجُبُّ ماكان قبله .

وأخرجه من طريق آخر عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وفيه قال الزبير : فجعلت أنظر إلى النبي ﷺ وإنه ليطأطئ رأسه استحياء مما يعتذر هبار (١) .

فهذا الخبر فيه موقف لرسول الله ﷺ في العفو والتسامح ، فهبَّار بن الأسود هو الذي أشار بالرمح إلى زينب بنت رسول الله ﷺ وهي مهاجرة فأسقطت حملها وقد تأثر النبي ﷺ كثيرًا من إساءته تلك .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/٨٥٨ - ٨٥٩ .

ويشاء الله أن يأتي إلى النبي ﷺ مسلما ويعتذر إليه بهذه الكلمات الرقيقة فيتأثر النبي ﷺ من اعتذاره ويطأطئ رأسه حياء من هبار ، من شدة تواضعه في الاعتذار ، ويجيبه بالعفو عنه وتهنئته بالإسلام .

فما أعظم أخلاق النبي ﷺ الذي حوّله الاعتذار الرقيق إلى التأثر حياء من ظالمه الذي كان سابقا قد تأثر من إساءته ! !

* * *

٢٢ - موقف لهند بنت عتبة -

قال الواقدي : حدّثني عبد الله بن يزيد ، عن أبي حُصَين الهُذَليّ ، قال : لَمَّا أسلمت هند بنت عُتبة أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية - وهو بالأبطَح - مع مولاة لها ، بجَدْيين مرْضوفَين (١) وقَدٍّ (٢) . فانتهت الجارية إلى خَيْمة رسول الله ﷺ فسلَّمت واستأذنت ، فأذن لها فدخلت على رسول الله ﷺ ، وهو بين نسائه أم سلمة زوجته وميمونة ، ونساء من نساء بني عبد المطلب ، فقالت : إنَّ مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية ، وهي مُعتذرة إليك وتقول : إنَّ غَنَمنا اليوم قليلة الوالدة ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لكم في غنمكم ، وأكثر والدتَها .

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرَّتْ بذلك ، فكانت المولاة تقول : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتنا مالم نكن نَرَى قبلُ ولا قريبًا ، فتقول هند : هذا دُعاءُ رسول الله ﷺ وبركته ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام ! ثم تقول : لقد كنت أرى في النوم أني في الشمس أبدًا قائمة ، والظلّ منِّي قريبٌ لا أقدر عليه ، فلمّا دنا رسول الله ﷺ منَّا رأيت كأني دخلت الظلّ (٣) .

في هذا الخبر موقف كرم من هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها سليلة بيت الكرم ، حيث أهدت إلى رسول الله ﷺ تلك الهدية مع الاعتذار بأن غنمهم في ذلك الوقت قليلة الولادة .

---

(١) أي مشويين على الحجارة وهي الرضف .

(٢) القَدُّ جلد السخلة .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٦٨ - ٨٦٩ .

وقد كسبت هند أكثر مما جادت به حيث كسبت دعوة النبي ﷺ لغنمهم بالبركة ، فلاحظوا بعد ذلك كثرة واضحة في غنمهم ببركة دعاء النبي ﷺ .

* * *

٢٣ - اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة - (خبر المخزومية التي سرقت)

أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير « أن امرأةً سرقَت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أُسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروةُ : فلما كلمهُ أسامةُ فيها تَلوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ فقال : أتكلمُني في حدٍّ من حدود الله ؟ قال أُسامة استغفر لي يارسول الله . فلما كان العشيُّ قام رسولُ الله ﷺ خطيبًا فأثنى على الله بما هوَ أهله ثم قال : أما بعدُ فإنما أهلَكَ الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوهُ ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ . والذي نفسُ محمد بيده ، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرَقَت لقطعتُ يدها . ثمَّ أمر رسولُ الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعت يدُها . فحسُنَت توبتها بعد ذلك وتزوَّجَت .

قالت عائشة : فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتَها إلى رسول الله ﷺ (١) .

هذا الحديث من الأمثلة التي تدل على اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة بين الناس ، وتطبيق الحدود الإسلامية على جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم .

إنه موقف عظيم للنبي ﷺ أمام مدخل خطير للانحراف الذي يؤدي في نهايته إلى تعطيل إقامة الحدود ، ومن ثمَّ سيادة الفوضى والجرائم في المجتمع ، وقد بين النبي ﷺ أن التفريق بين الأكابر والضعفاء في تطبيق

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٠٤ (٨/ ٢٤ - ٢٥) .

الحدود كان سبب هلاك الأمم من قبلنا ، وفي هذا تحذير بليغ لهذه الأمة من أن تسلك نفس هذه السبل المعوجة حتى لاتصل بها في النهاية إلى النتائج المشئومة نفسها ، ويزيد الأمر تأكيداً بالقَسَم على تطبيق الحدود حتى على أقرب الناس إليه فيما لو وقعت منه المخالفة ولو كان ذلك من ابنته العفيفة الطاهرة ، حتى لاتضعف نفوس الحكام عن تطبيق الحدود على أقاربهم .

وإن في هذا الموقف الذي أثار غضب النبي ﷺ الشديد واهتمامه الكبير لعبرةً للمسلمين حتى لايتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحكام من أجل تعطيل الحدود الإسلامية .

* * *

تم بحمد الله تعالى الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله

مواقف وعبر

في غزوة حنين وحصار الطائف

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٥ – سفارة أبي سفيان ومواقف للصحابة	١٦٨
٦ – أمر النبي ﷺ بالتجهز	١٧١
٧ – موقف تربوي للنبي ﷺ	١٧٤
(خبر حاطب بن أبي بلتعة)	
٨ – موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر	١٧٨
٩ – مثل من رحمة النبي ﷺ	١٨٠
(إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية)	
١٠ – مثل من التخطيط الحربي الدقيق	١٨٣
١١ – مثل من رحمة النبي ﷺ بالحيوان	١٨٥
١٢ – مثل من حزم الصحابة ودقة رصدهم	١٨٦
١٣ – خبر مسير النبي ﷺ إلى مكة	١٨٨
١٤ – أمثلة من تواضع النبي ﷺ	١٩٢
١٥ – دخول المسلمين مكة	١٩٦
١٦ – مثل من أمانة النبي ﷺ ووفائه	٢٠٠
(رد مفتاح الكعبة لبني شيبة)	
١٧ – مثل من إعزاز الإسلام والمسلمين	٢٠٤
(أذان بلال فوق الكعبة)	
١٨ – مثل من وفاء النبي ﷺ	٢٠٦
(إشفاق الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة)	
١٩ – تحطيم الأصنام في مكة وخارجها	٢٠٧
٢٠ – مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه ودعوته	٢١٣
(خبر فضالة بن عمير وإسلامه)	

الموضوع	الصفحة

السيرة النبوية

٨

التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

السيرة النبوية

الجزء الثامن

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شـارع منشـا - محـرم بك - الإسـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر
في غزوة حنين
وحصار الطائف

١ - اجتماع الأعداء من هوازن وأحلافها -

قال ابن إسحاق : ولما سمعتْ هوازن برسول الله ﷺ ومافتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النَّصرى ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كُلها ، واجتمعت نَصْر وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عَيلان إلا هؤلاء ، وغاب منها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له اسم ، وفي بني جُشم دُرَيْد بن الصمة شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجرَّبا ، وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن مُعتِّب ، وفي بني مالك ذو الخمار سُبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف النصْرى .

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة في شجار (١) له يُقَاد به ، فلما نزل قال : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعمَ مجالُ الخيل ! لاحَزْن ضرْس ، ولاسَهْلٌ دَهس(٢) ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودُعي له ، فقال : يامالك قد أصبحتَ رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعدَه من الأيام ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبُكاء الصغير ، ويُعار

(١) هو بوزن كتاب مركب يشبه الهودج لكنه غير مغطى .

(٢) يعني لاغليظ صلب ولاتراب ناعم تغوص فيه الأقدام .

الشَّاء ؟ قال : سُقْت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : ولمَ ذلك ؟ قال : أردت أن أجعل خَلْفَ كلّ رجل منهم أهله وماله ، ليُقاتل عنهم ، قال : فَانقَضَّ به[1] . ثم قال : راعي ضأن والله ! وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك ، ثم قال : مافعلت كعبٌ وكلاب؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد ، قال : غاب الحَدُّ والجدُّ ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوَددتُ أنكم فعلتم مافعلت كعبٌ وكلابٌ ، فمن شهدها منكم؟ قالوا : عمروُ بن عامر ، وعوف بن عامر ، قال : ذانكَ الجذَعان من عامر ، لاينفعان ولايضران ، يامالك ، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضَة بيضة هوازن[2] إلى نحور الخيل شيئًا ، ارفعْهُم إلى مُتمنَّع بلادهم وعُلْيا قومهم ، ثم الْقَ الصُّباءَ[3] على مُتُون الخيل فإن كانت لك لَحقَ بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . قال : والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرتَ وكبر عقلك . والله لتطيعُنَّني يامعشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون لدُرَيْد بن الصمة فيها ذكر أو رأي ، فقالوا : أطعناك ، فقال دُريد بن الصمة : هذا يوم لم أشْهَدْهُ ولم يَفُتْنى :

يــالَيـتني فيـها جَـذَعْ   أخُــبُّ فيــها وأضَــعْ
أَقُــودُ وَطْـفاءَ الـزَّمَـعْ   كــأنها شــاةٌ صَــدَعْ

(١) يعني زجره وعاب رأيه .

(٢) يعني النساء والذرية التي تحتاج إلى حماية .

(٣) يعني المسلمين ، وكان المشركون يسمونهم بذلك بدعوى خروجهم عن دين قومهم .

قال ابن إسحاق : ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكْسروا جُفُون سيوفكم ، ثم شُدُّوا شَدَة رجل واحد [1] .

هذا الذي حصل في تجهيز جيش الأعداء فيه عبرة ، حيث حشدوا معهم نساءهم وذراريهم وأنعامهم ، وكأنما ساقوها لتكون غنيمة للمسلمين، ولقد كان رأي دريد بن الصمة سديداً حينما أشار بقوة ووضوح إلى الخطأ الذي ارتكبه مالك بن عوف في حشد النساء والذراري والأنعام ، ولكنَّ مالكًا استبدَّ برأيه وأصر عليه فأطاعه قومه وحلفاؤهم .

ولم يكن العرب يعرفون الشورى إلا بنسبة ضئيلة وإنما كانوا يطيعون زعماءهم من غير تفكير أحيانا يطيعونهم حتى لو عرفوا أنهم مخطؤون .

وقد أطاع أفراد هذه القبائل زعيمهم مالك بن عوف طاعة عمياء ، إما بدون تفكير أو مع معرفة خطئه بحمل النساء والذراري والأنعام .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٨١ – ٨٤ ، وقال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى ورواه البزار باختصار ، وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية ورجال أحمد رجال الصحيح – مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ –١٨٠ ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي – المستدرك ٣/ ٤٨ – ٤٩ – .

٢ - عبرة فيما أصاب جواسيس المشركين -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : وانتهى رسول الله ﷺ إلى حُنين مساءَ ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال . وبعث مالكُ بن عوف رجالاً من هَوازن ينظرون إلى محمد وأصحابه - ثلاثة نَفَر - وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر . فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالهم . فقال: ما شأنكم ويلكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضًا على خيل بُلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترَى ! وقالوا له : مانُقاتل أهل الأرض ، إن نقاتل إلا أهل السموات - وإنَّ أفئدة عيونه تخفُق - وإن أطعتنا رجعتَ بقومك ، فإنَّ الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا . قال : أفٍّ لكم ! بل أنتم قومُ أجبن أهل العسكر ، فحبسهم عنده فرقًا أن يشيع ذلك الرُّعْب في العسكر ، وقال : دُلُّوني على رجل شجاع ، فأجمعوا له على رجل ، فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضًا على خيل بُلق ، ما يُطاق النظر إليهم ، فو الله ما تماسكتُ أن أصابني ماترى ! فلم يَثْنه ذلك عن وجهه (١) .

في هذا الخبر عبرة لهؤلاء الأعداء المتحزِّبين ضد المسلمين لو كانوا يستفيدون من العبر ، لكن زعيمهم مالك بن عوف قد صمم على الحرب لأمر قد أراده الله تعالى ، وقد كان يدفعه إلى الحرب الحفاظ على سمعته ، لأنه لو تراجع لانحطت سمعته عند القبائل ، كما أنه في اعتقاده أن النبي ﷺ لن يتركهم وقد حزَّبوا الأحزاب ضده وأنه سيقصدهم في

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٢ .

بلادهم متفرقين ، فلعله رأى أن مواجهة الجيش الإسلامي وهم مجتمعون أقرب إلى النصر .

وهذا الخبر من الأخبار التي تثبت مشاركة الملائكة مع المسلمين يوم حنين .

* * *

٣ - موقف لابن أبي حدرد الأسلمي في التجسس على الكفار -

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه قالوا : ودعا رسول الله ﷺ ابن أبي حدرد الأسلمي فقال : انطلق فادخل في الناس حتى تأتي بخبر منهم، ومايقول مالك : فخرج عبد الله فطاف في عسكرهم ، ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساءَ هَوازن : فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يُقاتل قطُّ قبل هذه المرّة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لاعلم لهم بالحرب فيُنصر عليهم ، فإذا كان في السَّحر فصُفّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفُّوا صفوفكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جُفون سيوفكم فتلقَونه بعشرين ألف سيف مكسور الجَفْن ، واحملوا حملةَ رجل واحد . واعلموا أنَّ الغلبة لمن حمل أوّلاً ! فلما وعى ذلك عبد الله بن أبي حَدْرَد رجع إلى النبيّ ﷺ فأخبر بكلّ ماسمع(١) .

في هذا الخبر موقف جريء لابن أبي حدرد الأسلمي ، حيث غامر بنفسه ودخل في وسط جيش الأعداء إلى أن وصل إلى مركز القيادة ، فسمع قائدهم مالك وهو يخطط للهجوم على المسلمين مع فجر اليوم التالي .

وهكذا استطاع بمغامرته ودهائه أن يأتي النبي ﷺ بخطة الأعداء الحربية ، وهو رجل المغامرات المعروف الذي سبق ذكره في سرية الغابة .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٣ ، وأخرجه الحاكم مختصراً ضمن خبر عن حنين وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٤٨-٤٩ - .

٤ – موقف لأنس الغنوي في حراسة ا لمسلمين –

أخرج الإمام أبو داود من حديث سهل بن الحنْظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنُين، فأطنبوا السير [١] حتى كانت عشيَّة ، فحضرتُ الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس، فقال: يارسول الله ، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فاذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم [٢] بظُعُنهم [٣] ونعَمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » ثم قال : « من يحرسُنا الليلة » ؟ قال أنس بن أبي مرْثد الغنَوي : أنا يارسول الله ، قال « فاركب» فركب فرسًا له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه ولانُغَرَّنَّ من قبَلك الليلة » فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مُصلاه فركع ركعتين ثم قال : « هل أحسسْتم فارسكم» ؟قالوا: يارسول الله ما أحسسْناه ، فثُوّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال : « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطّلعتُ الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة » ؟

---

(١) أي أسرعوا .

(٢) يعني جميعًا وهو كناية عن كثرة العدد .

(٣) يعني بنسائهم .

قال : لا ، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجَبت فلا عليك أن لاتعمل بعدها » (١) .

في هذا الخبر موقف جليل لأنس الغنوي رضي الله عنه حيث وقف طوال الليل يحرس المسلمين فوق الجبل .

ولقد حاز بعمله هذا على إعجاب النبي ﷺ حتى قال : « ماعلى هذا أن لايعمل بعد هذا عملا » وهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدرجات ، والمقصود أنه عمل عملا صالحا كبيرا يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنة ، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات .

* * *

(١) سنن أبي داود ، رقم ٢٥٠١ ، الجهاد(٣/ ٢٠) وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٨٣ ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٢٧ - .

٥ – ابتداء المعركة والمفاجأة [١] –
ومثل من شجاعة النبي ﷺ

١ – قـال ابن إسحـاق : فحدثني عاصـم بـن عـمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما استقبلنا واديَ حُنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطوط[٢] ، إنما ننحدر فيه انحدارا ، قال : و عماية الصُّبح [٣] ، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا في شعابه وأحنائه ومَضَايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فو الله ماراعنا ونحن منحطون إلا الكتائبُ قد شَدُّوا علينا شدّة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين ، لا يَلوي أحد على أحد .

وانحاز رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين ، ثم قال : أين الناس؟ هَلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضُها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نَفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته عليٌّ ابن طالب ، والعباسُ بن عبد المطلب ، وأبو سفيانَ بن الحارث ، وابنهُ ، والفضلُ بن العباس ، وربيعةُ بن الحارث ، وأسامةُ بن زيد ، وأيمنُ بن عُبيد ، قُتل يومئذ[٤] .

---

(١) كانت هذه المعركة في اليوم الخامس من شهر شوال من السنة الثامنة – البداية والنهاية ٤/ ٣٢٢ – .

(٢) أي شديد الانحدار .

(٣) أي ظلامه .

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٨٩–٩٠ .

٢ - وأخرج الإمام مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حُنين . فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ . فلم نفارقهُ . ورسولُ الله ﷺ على بغلة لهُ بيضاء أهداها له فروةُ بن نفاثة الجذامي ، فلما التقى المسلمون والكفار ، ولَّى المسلمون مُدبرين . فطفق رسول الله ﷺ يركضُ بغلتهُ قبَلَ الكفار ، قال عباسٌ : وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ، أكُفُّها إرادَةَ أن لاتُسرع ، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ « أي عباسُ نادِ أصحاب السَّمُرة (١) » . فقال عباس وكان رجلا صيِّتًا ، فقلت بأعلى صوتي : أين أصحابُ السمُرة؟ قال : فو الله لكأنَّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يالبيك يالبيك قال : فاقتتلوا والكفار ، والدعوةُ في الأنصار ، يقولون : يامعشر الأنصار يامعشر الأنصار قال : ثم قُصرت الدعوةُ على بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يابني الحارث بن الخزرج يابني الحارث ابن الخزرج ، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمُتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسولُ الله ﷺ « هذا حين حمي الوطيس(٢) » . قال : ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد ! » قال : فذهبتُ أنظرُ فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى ،

= وذكر الحافظ الهيثمي أن هذا الخبر رواه الأئمة أحمد وأبو يعلى والبزار ، قال : وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ - ١٨٠ - .

(١) هي الشجرة التي بايع تحتها الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية .

(٢) أي اشتدت الحرب ، تشبيها للحرب بالتنور الذي تسجَّر فيه النار .

قال : فو الله ماهو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حَدَّهم كليلا وأمرهم مُدبرا[1] .

٣ - وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال : جاء رجلٌ إلى البراء فقال : أكنتم ولَّيتم يوم حنين يا أبا عُمارة؟ فقال : أشهدُ على نبيِّ الله ﷺ ما ولَّى ، ولكنهُ انطلق أخفَّاءُ من الناس ، وحُسَّرٌ إلى هذا الحيِّ من هوازن ، وهم قومٌ رماةٌ ، فرموهم برشق من نبل كأنها رجلٌ من جراد[2] ، فانكشفوا ، فأقبل القومُ إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلتهُ ، فنزل ودعا واستنصر ، وهويقول :

« أنـــا النــبيُّ لا كـــذب أنـــا ابـــن عـــبد المطلب

اللهم نزِّل نصرك »

قال البراء : كُنا والله إذا احمرَّ البأسُ[3] نتقي به ، وإن الشجاع منَّا للذي يُحاذي به ، يعني النبي ﷺ[4] .

٤ - و أخرج الإمامان البزار والطبراني من حديث أبي عبد الرحمن الفهري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين . . وذكر شيئا من خبرها إلى أن قال : فقال رسول الله ﷺ : ياعباد الله أنا

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٧٥ (ص ١٣٩٨) .

وانظر مصنف عبد الرزاق رقم ٩٧٤١ (٥/ ٣٧٩) .

وسيرة ابن هشام ٤/ ٩٣ .

(٢) يعني قطعة عظيمة من الجراد .

(٣) كناية عن شدة الحرب ، والتعبير بالاحمرار من تشبيه الحرب بالنار .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٧٦ ، (ص ١٤٠١) .

وانظر صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣١٧ (٨/ ٢٨) .

عبد الله ورسوله ، واقتحم عن فرسه فنزل فأخذ كفًّا من حصى ، قال : فحدثني من هو أقرب إليه مني أنه ضرب وجوههم وقال : شاهت الوجوه، فهزم الله المشركين، قال : فحدثني أبناؤهم أن آباءهم قالوا : فما بقي منا يومئذ أحد إلا امتلأت عينه وفمه ترابا ، وسمعنا صلصلة من السماء إلى الأرض كإمرار الحديد على الطست .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجالهما ثقات (١) .

وأخرج الإمام الطبراني من حديث يزيد بن عامر السوائي - وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم - أنه سئل عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم يوم حنين كيف كان ! فأخذ حصاة فرمى بها طستا فَطَنَّ ، قال : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات (٢) .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولا : موقف النبي ﷺ أمام تلك المفاجأة ، حيث كان الأعداء قد سبقوا المسلمين إلى وادي حنين وكمنوا لهم في منعطفاته ، فلما انحدر المسلمون إلى الوادي رماهم المشركون رميًا كثيفا متتابعا ، حتى كأنَّ النبل قطعة عظيمة من الجراد قد ملأت الجو ، ولم يكن بعض الذين في مقدمة جيش المسلمين قد استعدوا بالدروع فانهزموا وحالوا بين بقية الجيش والتقدم إلى الأمام ، لكن النبي ﷺ نزل إلى الوادي واستقر في يمينه ، ثم نزل عن دابته ودعا الله تعالى واستنصره وقال : « اللهم نزِّل نصرك» .

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٨٣ .

ونقف قليلا لنتأمل كيف أن النبي ﷺ لم يشغله هول تلك المفاجأة عن دعاء الله تعالى ، ولم يقم أولاً يعمل الترتيبات اللازمة التي يعملها القادة عادة لتلافي الهزيمة والحصول على النصر ، بل ارتفع فكره قبل كل شيء إلى السماء فدعا الله تعالى واستنصره، ثم قام بنداء الخلَّص من أصحابه ليجتمعوا حول مركز القيادة ، ذلك لأنه ﷺ يعلم أن النصر والهزيمة بيد الله تعالى وحده، وأن تميُّز المسلمين على غيرهم إنما هو بكون الله تعالى معهم بنصره وتأييده، ويخشَى أن يكون وقع من المسلمين خلل يقتضي تخلف نصر الله تعالى إياهم ، فكان دعاء الله تعالى أهم شيء فكر فيه النبي ﷺ .

وقد كان سبب الفشل في غزوة حنين في بداية المعركة أن بعض المسلمين أُعجبوا بكثرتهم فقالوا : لن نغلب اليوم من قلة، ولعل الذين قالوا هذه العبارة من حديثي العهد بالإسلام، فوقع الخلل بسبب تخلف عنصر مهم من عناصر النصر لدى بعض المسلمين، ألا وهو التوكل على الله وحده ، حيث اعتمدوا بعض الشيء على كثرة عددهم وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦] .

وحينما عاد المسلمون وصدقوا مع الله نصرهم الله تعالى نصرا مؤزرا ، وأثابهم غنائم عظيمة إلى جانب مايُدَّخر لهم من الثواب في الآخرة .

ثانيًا : هذه المعركة تبين بوضوح شجاعة النبي ﷺ الفائقة وثباته الراسخ ، فحينما حدث الهجوم المفاجيء على المسلمين لم ينهزم، بل اختار مكانا من الوادي مناسبا وثبت فيه ، وصار ينادي أصحابه بأن يفيؤوا إليه .

لم يستْخفْ النبي ﷺ بنفسه حتى لايكون عرضة لهجوم الأعداء بل كان ينادي بأعلى صوته يقول :

أنــا النبي لاكـــذب | أنــا ابــن عبـد المطلب

وقوله « لاكذب » قال الحافظ ابن حجر : فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب ، فكأنه قال : أنا النبي ، والنبي لايكذب ، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم ، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر حق فلا يجوز عليَّ الفرار [1] .

ومما يبين شجاعة رسول الله ﷺ الفذة في هذه الأخبار ماجاء في رواية مسلم الأخيرة من قول البراء بن عازب رضي الله عنهما : « كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقي به ، وإن الشجاع منا لَلذي يحاذي به » .

وكذلك قول العباس رضي الله عنه في رواية مسلم الأولى « فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبَلَ الكفار ، قال وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادة أن لاتسرع » وكان هذا في المرحلة الأولى التي أُفرد فيها النبي ﷺ بقلة من أصحابه .

إن رسـول الله ﷺ حينما يقود المعارك بنفسه ويتعرض لبأسها وضراوتها إنما يسنُّ السنة الحسنة للقادة من بعده .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣١ .

إنه لايقود المعارك من أبراج محميَّة وهو لايدري عما يدور من تفاصيل المعركة فيُصدر الأوامر على غير هدى . بل كان ﷺ يتقدم مع أصحابه ويُنظم الصفوف ويتفقد جيشه ، فإذا أصيب الجيش بشيء من الخلل فتفرق ثبت في مركز القيادة ونادى بالناس ليجتمعوا إليه كما في هذه الغزوة وما سبق بيانه في غزوة أحد .

ثالثًا : جرت في هذه المعركة مواقف للصحابة رضي الله عنهم في الثبات والجهاد ، فمن ذلك موقف القلة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ في المرحلة الأولى من المعركة وهم بعض الذين كانوا قريبين منه أثناء هجوم الأعداء ، وكذلك الذين استجابوا لنداء الرسول ﷺ الذي ألقاه إلى عمه العباس رضي الله عنه لكونه جهوري الصوت ، وقد جاء في حديث العباس المذكور وصف عودتهم بالسرعة الشديدة ، وذلك لما علموا بمكان النبي ﷺ ، وعلى هؤلاء والذين ثبتوا مع النبي ﷺ دارت رحى الحرب في مرحلتها الثانية التي انتهت بانهزام الأعداء وانتصار المسلمين .

رابعًا : في رمي الرسول ﷺ الأعداء بالحصيات ثم إدبار أمرهم بعد ذلك عبرة عظيمة ، وقد قال الله تعالى عن مثل ذلك يوم بدر ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**الأنفال** : ١٧] فالله تعالى هو الذي رمى الأعداء بواسطة رسوله ﷺ فانهزموا ، وهذا نوع من نصر الله تعالى للمؤمنين في تلك المعركة ، فإن تلك القبضة من التراب أصابت جميع الأعداء كما جاء في الرواية الأخيرة عن الذين شهدوا المعركة منهم أنهم قالوا : فما بقي منا يومئذ أحد إلا امتلأت عينه وفمه ترابا .

كما أن الله تعالى أصاب المشركين بالرعب الذي وجدوه في أجوافهم كصوت الحصاة يُرمَى بها الطست ، كما جاء في الرواية الأخيرة .

وذلك من نصر الله تعالى لأوليائه المؤمنين ، وفي ذلك عبرة للمسلمين في كل زمن إذا نصروا الله جل وعلا **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾** [**محمد** : ٧] .

ومما يلاحظ أن النبي ﷺ رمى الكفار بالحصيات بعد عودة المسلمين إلى المعركة واحتدامها بينهم ، وذلك يشير إلى أنه ليس من سنة الله تعالى أن ينصر المسلمين بخوارق العادات من غير أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا جهدهم في قتال الأعداء ، فإذا حققوا الأسباب التي شرعها الله تعالى وجعلها وسائل لتحقيق النصر فإن شاء الله جل وعلا أكرمهم بالنصر بخوارق العادات .

* * *

٦ - موقفان جهاديان لعلي وأبي دجانة -

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن ابن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحبُ الراية على جمله يصنع ما يصنع، إذ هَوَى له عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه عليّ بن أبي طالب من خلفه، فضرب عُرْقُوبَي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل، فضربه ضربة أطن قَدَمَه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله، قال: واجْتَلَد الناس، فو الله مارجعتْ راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ(١).

وأخرجه الواقدي بنحوه وذكر أن الأنصاري الذي كان مع علي هو أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما (٢).

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الأئمة أحمد وأبي يعلى والبزار من طريق ابن إسحاق وقال: وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح (٣).

في هذا الخبر موقف جهادي لعليّ بن أبي طالب وأبي دجانة رضي الله عنهما حيث خلَّصا المسلمين من أذى ذلك القائد الذي يفتك بالمسلمين ويقود طائفة من جيش الأعداء، والقضاء على القائد يعني ارتباك الجنود من خلفه وتفرقهم، فيسهل القضاء عليهم متفرقين.

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٩٤.

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٠٢.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ - ١٨٠.

والوصول إلى القادة يكلف من سيهاجمهم جهدا كبيرا لأنهم عادة يكونون محميين من خلفهم ومن جوانبهم ، فالهجوم عليهم يعتبر نوعا من المغامرة ، ولقد غامر هذان البطلان بأنفسهما حتى وصلا إلى ذلك القائد فقضيا عليه .

*   *   *

٧ – موقف جهادي لأبي قتادة ودفاع عن الحق من أبي بكر –

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال « لما كان يوم حُنين نظرتُ إلى رجل من المسلمين يقاتلُ رجلاً من المشركين، وآخرُ من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعتُ إلى الذي يختله، فرفع يده ليضربني، وأضربُ يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًا شديدًا حتى تخوفتُ، ثم برك فتحلل، ودفعته ثم قتلتهُ، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلتُ له: ماشأنُ الناس؟ فقال: أمر الله. ثم تراجع الناسُ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: من أقام بيِّنة على قتيل قتلهُ فله سلبه. فقمتُ لألتمس بيِّنة على قتيلي، فلم أر أحدًا يشهدُ لي، فجلستُ. ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ، فقال رجلٌ من جُلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكرُ عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا، لايُعطه أصيبغ من قريش (١)، ويدعَ أسَدًا من أُسد الله يُقاتل عن الله ورسوله. قال فقام رسولُ الله ﷺ فأداهُ إليّ، فاشتريت منه خرافًا (٢)، فكانَ أول مال تأثلتُهُ في الإسلام(٣).

---

(١) رُوي بالصاد والغين وهو نوع من الطير أو نبات ضعيف، ورُوي بالضاد والعين تصغير الضبع على غير قياس، وعلى كلا الروايتين فهو تعبير عن الضعف والمهانة (فتح الباري٨/ ٤١).

(٢) أي بستانا من النخل.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٣٢٢ (٨/ ٣٦).

وأخرجه الواقدي وذكره نحوه – مغازي الواقدي ٣/ ٩٠٨ – ٩٠٩ –.

في هذا الخبر موقفان :

أولهما : لأبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه الذي أنقذ ذلك الرجل المسلم وقتل ذلك الكافر الذي كان يريد قتله بعد جهد كبير .

وثانيهما لأبكر الصديق رضي الله عنه حيث دافع عن أبي قتادة مع أنه ليس من قومه ، وعنَّف ذلك الرجل الذي يريد أخذ حق أبي قتادة مع أنه من قوم أبي بكر ، وهذا يبين لنا رسوخ إيمان أبي بكر وعمق يقينه حيث اعتبر رابطة الدين فوق أي رابطة .

* * *

٨ – مثل من عفو النبي ﷺ و حلمه –

(خبر شيبة بن عثمان الحجبي)

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : وذكر ابن سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي . قال : لما كان عامُ الفتح . دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، قلت : أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنين . فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرَّة . فأثأر منه ، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ، وأقول : لو لم يبقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ، ماتبعته أبدًا .

وكنت مُرْصداً لما خرجتُ له لايزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً ، فلما اختلط الناسُ ، اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغلته ، فأصْلَتُّ السيف ، فدنوت أريدُ ما أريدُ منه ، ورفعتُ سيفي حتى كدتُ أشعره إياه . فرُفع لي شواظٌ من نار كالبرق كاد يمحشُني ، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه ، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ ، فناداني : « ياشَيْب ادنْ منِّي» فَدَنوت منهُ ، فمسَحَ صدْري ، ثم قال : « اللهم أعذهُ من الشيطان» قال : فو الله لهو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي . وبصري ، ونفسي ، وأذهب الله ما كان في نفسي ، ثم قال : « ادن فقاتل» .

فتقدمت أمامه أضرب بسيفي ، الله يعلمُ أني أحب أن أقيه بنفسي كلَّ شيء ، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيّا لأوقعتُ به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون ، فكرُّوا كرةَ رجل واحد ، وقُرِّبتْ بغلة رسول الله ﷺ ، فاستوى عليها ، وخرج في أثرهم حتى تفرَّقوا في كلِّ وجه ، ورجع إلى معسكره ، فدخل خباءه ، فدخلت

عليه ، مادخل عليه أحدٌ غيري حبًا لرؤية وجهه ، وسروراً به ، فقال : «ياشيْبَ الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك» ، ثم حدثني بكلٍّ ما أضمرت في نفسي مالم أكن أذكره لأحد قط ، قال : فقلت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله ، ثم قلت : استغفر لي ، فقال : «غفر الله لك » (١) .

وهكذا أطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما أضمره له شيبة بن عثمان الحجبي من إرادة الفتك به وحماه ﷺ منه بملائكته ، فلما انكشف أمره ووقع بين يديه لم يعاقبه ولم يعنِّفه وإنما قصد هدايته من الضلال فمسح بيده على صدره ودعا له ، فتحوَّل شيبة في لحظة من مبغض حاقد بلغ به الغيظ من النبي ﷺ إلى محاولة الإقدام على قتله . . تحوَّل إلى محب للنبي ﷺ حبا يفوق حب نفسه ، وبعد أن كان يتصيد الفرص للفتك به أصبح يقاتل بين يديه ويقيه بنفسه .

وهذا مثل مما تُنتجه الهداية إلى الدين الحق من تحوُّل جذري في السلوك والفكر .

هذا التحول من محاولة طمس مصدر النور الذي أضاء الدنيا كلها إلى بذل كل الجهد في حماية ذلك المصدر كان من أهم دوافعه ما جُبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق .

* * *

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٧٠ .

وذكره الحافظ ابن حجر وعزاه إلى ابن أبي خيثمة وابن إسحاق والبغوي - الإصابة ٢/ ١٥٧ ، رقم ٣٩٤٥ - .

٩ - بعث أبي عامر الأشعري إلى المنهزمين في أوطاس -

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال « لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دُريد بن الصمة ، فقُتل دُريدٌ ، وهزم الله أصحابه . قال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبو عامر في ركبته ، رماه جُشميٌّ بسهم فأثبتهُ في رُكبته . فانتهيتُ إليه فقلتُ : ياعمِّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدتُ له ، فلحقته ، فلما رآني ولّى ، فأتبعتهُ وجعلت أقولُ له : ألا تستحي ، ألا تثبت فكفَّ . فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتهُ ، ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك . قال : فانزع هذا السهم ، فنزعتهُ فنزا منه الماء .

قال : ياابن أخي ، أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له : استغفر لي . واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته علي سرير مُرمل [(١)] ، وعليه فراشٌ قد أثر رمالُ السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرتهُ بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : اللهم اغفر لعُبَيد أبي عامر ، ورأيتُ بياض إبطيه . ثم قال : اللهم اجعلهُ يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس ، فقلتُ : وليْ فاستغفر ، فقال : اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريما .

قال أبو بردة[(٢)] : إحداهما لأبي عامر ، والأخرَى لأبي موسى »[(٣)] .

---

(١) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصر .

(٢) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٢٣ ، (٨/ ٤١ - ٤٢) .

في هذا الخبر بيان أن بعض المنهزمين من جيش الأعداء اجتمعوا في أوطاس وهو قريب من حنين ، وقد جاء ذكر دريد بن الصمة وأنهم أصحابه ، وهذا يعني أن الذين اجتمعوا هم بنو جُشَم وقد يكون معهم من غيرهم ، وقد هزم الله الأعداء وقُتل دريد وهو شيخ كبير لم يصحبوه معهم إلا لرأيه وخبرته الحربية كما سبق .

وفي هذا الخبر موقف لأبي موسى الأشعري حيث تبارز مع قاتل أبي عامر الأشعري فقتله .

وفيه خبر عن زهد النبي ﷺ حيث كان ينام على سرير من خوص النخل المعمول بالحبال وقد أثرت الحبال في ظهره وجنبيه حيث نام عليه بدون فراش .

* * *

١٠ - مواقف جهادية في حصار الطائف -

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : ولما قدم فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال .

ثم قال - بعد أن ذكر مسير النبي ﷺ من حنين - ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبا من الطائف ، فضرب به عسكره ، فقُتل به ناس من أصحابه بالنبل ، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النبل تنالهم ، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوا دونهم ، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم ، فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة .

ثم قال : حتى إذا كان يوم الشَّدخة(١) عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة(٢) . ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكَك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمَتْهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون .

ثم قال : وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو محاصر ثقيفًا : يا أبا بكر إني رأيت أني أهْديَتْ لي قَعْبة(٣) مملوءة زُبدا فنقرها ديك فهراق مافيها ، فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ وأنا لا أرى ذلك .

---

(١) سمي بذلك حيث أصيب به بعض المسلمين .

(٢) هي آلة تصنع من الجلود والخشب يدخل فيها الرجال فيدفعونها نحو الحصون ويتقون بها من سهام العدو (لسان العرب / مادة دب) .

(٣) أي إناء كبير .

ثم ذكر أمر النبي ﷺ بالرحيل [(١)] .

وقال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى فيما روى عن شيوخه: فنصب النبي ﷺ المنجنيق، قال: وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فقال سلمان الفارسي: يارسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن المنجنيق طال الثواء، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقًا بيده، فنصبه على حصن الطائف . . إلى أن قال: ودخل المسلمون تحت الدبابة وهي من جلود البقر [(٢)] .

وأخرج الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: لقد بعث رسول الله ﷺ يوم الطائف حنظلة بن الربيع إلى أهل الطائف فكلمهم، فاحتملوه ليدخلوه حصنهم، فقال رسول الله ﷺ: «من لهؤلاء؟ وله مثل أجر غزاتنا هذه» فلم يقم إلا العباس بن عبد المطلب، حتى أدركه في أيديهم قد كادوا أن يدخلوه الحصن، فاحتضنه العباس - وكان رجلا شديداً - فاختطفه من أيديهم، وأمطروا على العباس الحجارة من الحصن، فجعل النبي ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبي ﷺ .

ذكره العلامة علاء الدين علي المتقي الهندي[(٣)] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٤٢ - ١٥٠، وانظر مغازي الواقدي ٣/ ٩٢٢ - ٩٣٧ .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٢٧ .

(٣) كنز العمال ١٠/ ٣٦١ - ٣٦٢ .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : اهتمام النبي ﷺ بالاستفادة من الوسائل الحربية المتاحة في عصره، فقد جاء في هذا الخبر ذكر استعمال المنجنيق في حصار أهل الطائف، وهذه أول مرة يستعمل فيها المنجنيق في الإسلام، وفي هذا تعليم للصحابة رضي الله عنهم ولسائر الأمة بأن يبادروا إلى تعلم الصناعات الحربية وإعداد الأسلحة المناسبة للعصر .

ثانيًا : موقف جهادي كبير لأولئك الفدائيين الذين زحفوا إلى حصن العدو داخل الدبابة، فهذا موقف يغلب على الظن فيه الهلاك، ولكنه في نظر المؤمنين المتقين موطن من مواطن الشهادة ، فلا غرابة في أن يسارع هؤلاء الصحابة إلى هذا العمل الجهادي الذي يتردد الأمر فيه بين نصر كبير للمسلمين أو استشهاد في سبيل الله تعالى .

ثالثًا : أنْهَى النبي ﷺ الحصار عن الطائف فجأة مع أنه كان يستطيع أن يبقى مدة طويلة في حصار أهله من غير أن يخشى من نقص في المُؤَن ولا من مساعدة لأعدائه من خارج حصنهم، وهم أعجز من أن يخرجوا للقتال، وإذا طال عليهم الحصار فإن المتعارف عليه حربيًا أن يسلِّم المحاصَرون خشية نفاذ المؤن عندهم، إضافة إلى أنه كان بإمكان النبي ﷺ أن يستخدم عددًا من المجانيق في رمي ذلك الحصن، فهو الأقوى من الناحية المعنوية والمادية، ومع ذلك فكَّ الحصار لأنه فهم من الرؤيا التي رآها أن الله تعالى لم يأذن له في فتح الطائف في ذلك الحصار ، فاستسلم لأمر الله جل وعلا وأمر أصحابه بالرحيل .

وهذا يدلنا على عظمة النبي ﷺ في توحيده لله تعالى والتقيد بأمره

والتجرد من حظ النفس ، ذلك لأن تراجع القائد عن القتال يعتبر منقصة وإساءة لسمعته عند أنصاره وأعدائه ، خصوصًا إذا كان هو الأقوى ، لكن النبي ﷺ لم يبال بما يترتب على هذا الأمر من تساؤل وانتقاد ، لأنه بتصرفه هذا ينفِّذ أمر الله جل وعلا ، وفي هذا تربية عالية لقادة الحروب من هذه الأمة ، وذلك بأن يجعلوا نُصب أعينهم تطبيق شريعة الله جل وعلا مهما كلفهم ذلك من نتائج .

رابعًا : في الخبر الأخير موقف جليل للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حيث أنقذ حنظلة بن الربيع الأسَيِّدي التميمي رضي الله عنه من أيدي الكفار، ولقد كان في موقفه هذا مغامرة جريئة مما يدل على شجاعته وإقدامه ، كما يدل موقفه هذا على قوة إيمانه حيث أقدم على عمل خطير يترتب عليه الهلاك غالبًا ابتغاء رضوان الله جل وعلا وثوابه الجزيل .

* * *

١١ - نماذج من عدالة النبي ﷺ وورعه -

١ - أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ ممن شهد معه حنينا قال: والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلي نعل غليظة، إذ زحمَتْ ناقتي ناقةَ رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه، قال: فقرع قدمي بالسوط وقال: أوجعتني فتأخَّرْ عني، فانصرفت فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، قال: قلت: هذا والله لَمَا كنت أصبت من رجْل رسول الله ﷺ بالأمس، قال: فجئته وأنا أتوقع، فقال لي: إنك قد أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك عنها، فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني (١).

٢ - قال الواقدي في سياق رواية لهَ:

وكان عبد الله بن أبي حَدرد الأسلمي يقول: كنت مع النبي ﷺ في مسيره وهو يُحادثني. فجعلت ناقتي تلصق بناقته، وكانت ناقتي ناقة شهمة، فجعلت أريد أن أنحّيها فلا تُطاوعني، فلصقت بناقة النبي ﷺ وأصيبت رجلهُ فقال: أخْ! أوجعتني! فرفع رجله من الغرز كأنها جُمَّارة(٢)، ودفع رجلي بمحجن في يده. فمكث ساعة لايتحدث، فو الله مانزلتُ حتى ظننت أن سينزل فيَّ عذابٌ.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٩٣.

(٢) الجمارة أصل عذق النخل وهي بيضاء والمقصود وصف رجله بالبياض.

قال : فلما نزلنا قلتُ لأصحابي : إنِّي أرعى لكم ! ولم يكن ذلك يوم رعيتي ، فلما أرحتُ الظهر عليهم قلت : هل جاء أحدٌ يبغيني ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك ، فقلت في نفسي : هي والله هي ! قلت : من جاء ؟ قالوا رجلٌ من الأنصار . قال : فكان أكره إلي ، وذلك أنَّ الأنصار كانت فيهم علينا غلظة .

قال : ثم جاء بعدُ رجلٌ من قريش يبتغيني . قال : فخرجتُ خائفًا حتى واجهتُ رسولَ الله ﷺ ، فجعل يبتسم في وجهي وقال : أوجعتك بمحجني البارحة . ثم قال : خُذْ هذه القطعة من الغَنَم . قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاةً ضائنة (١) (٢) .

٣ - قال الواقدي في سياق رواية له : وكان أبو زرعة الجُهني يقول : لما أراد ﷺ أن يركب من قَرْن راحلتَه القصواء وطئتُ له على يديها . والزِّمام في يدي مطوىّ ، فركب على الرَّحل وناولته الزمام . ودرْتُ من خلفه فخلف الناقة بالسوط ، كل ذلك يُصيبني . فالتفت إليّ فقال : أصابك السَّوطُ ؟ قلت : نعم بأبي وأُمِّي ! قال : فلما نزل الجعرانة إذا ربضةٌ (٣) من الغنم ناحيةً من الغنائم ، فسأل عنها صاحب الغنائم فخبره عنها بشيء لا أحفظه ، ثم صاح : أين أبو زرعة ؟ قال : قلت : ها أنا ذا! قال : خُذ هذه الغَنَم بالذي أصابك من السَّوط أمس ، قال : فعددتها فوجدتها عشرين ومائة رأس ، قال : فتأثَّلتُ بها مالاً (٤) .

---

(١) أي ذات صوف .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٣٩ - ٩٤٠ .

(٣) أي مجموعة .

(٤) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٠ .

هذه الأمثلة الثلاثة تبين لنا عدل النبي ﷺ وورعه وتحرِّيه الشديد في حقوق الناس ، فبالرغم من أن الإصابة التي أصاب كل واحد منهم بها تعتبر طفيفة وبسيطة فإنه لم ينس ذلك ، بل أعطى كل واحد منهم عطية كبيرة من خُمُس الغنيمة لئلا يخرج من الدنيا وعليه حق لأحد .

ولقد كان ماجرى منه ﷺ في حق الأول والثاني إنما كان مقابل ماجرى منهما من خطأ في حقه ، ولذلك كان كل واحد منهما يخشى أن ينزل فيه شيء بسبب ذلك ، فالأمر إصابة مقابل إصابة، ولكن لما كان الأمر بالنسبة لهما من قبيل الخطأ ، وهو منه ﷺ تعمد على سبيل التنبيه خشي أن يلحق ذمته شيء من ذلك فأعطاهم ما أعطاهم لتبرأ ذمته من حقوقهم .

* * *

١٢ - مثل من وفاء النبي ﷺ -

قال الواقدي في سياق رواية له : وقال سراقة بن جُعْثُم : لقيت رسول الله ﷺ وهو منحدرٌ من الطائف إلى الجعرانة فتحصَّلتُ[١] ، والناس يمضون أمامه أرْسالاً[٢] فوقعت في مقْنَب[٣] من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرِّماح ويقولون : إليك ! إليك! ماأنت؟ وأنكروني . حتى إذا دنوت وعرفت أنه يسمع صوتي أخذت الكتاب الذي كتب أبو بكر ، فجعلته بين إصبعين من أصابعي ، ثم رفعتُ يدي وناديتُ : أنا سراقة بن جُعْثُم . وهذا كتابي ! فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء ، أدنوه ! فأُدْنيت منه فكأني أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ في غرزه كأنها جُمارة[٤]، فلما انتهيتُ إليه سلَّمت . وسقتُ إليه الصَّدقة، فما ذكرت شيئًا أسأله عنه إلا أنِّي قلت : يارسول الله أرأيت الضالَّة من الإبل تَغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجر إن أسقيتُها؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم في كل ذات كبد حَرَّى أجرٌ[٥] .

هذا هو الكتاب الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه لسراقة بن مالك بن جعثم يوم الهجرة ، حينما لحق برسول الله ﷺ فدعا عليه فساخت فرسه في الأرض ، فعلم أن النبي ﷺ سينتصر فطلب منه كتاب أمان فكتب له

(١) أي ثبتُّ ووقفت .

(٢) أي أفواجا يتبع بعضهم بعضا .

(٣) أي مجموعة مابين الثلاثين إلى الأربعين .

(٤) الجمارة أصل عذق النخل وهي بيضاء ، والمقصود وصف رجله بالبياض .

(٥) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤١ ، وأخرجه الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده بنحوه-٢/ ٤٠١ ، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مختصرا - ٤/ ١٧٥- .

أبو بكر ذلك الكتاب ، ومازال محتفظًا به حتى يوم الفتح ، وقد عرفه النبي ﷺ فقرَّبه إليه ووفَّى له بالأمان الذي أعطاه إياه .

تُرى ماذا كان شعور سراقة وهو يقارن بين الصورتين ؟ ! صورته وهو يلاحق رسول الله ﷺ يريد أن يقبض عليه ويسلِّمه لقريش ، وصورته وهو يحاول الوصول إلى رسول الله ﷺ والصحابة يَمَسُّونه برماحهم مسًّا خفيفًا لأنهم أنكروه ، حتى وصل إليه من بين تلك الجحافل العظيمة بجهد جهيد !! .

لاشك أنه سيحمد ذلك اليوم الذي كف فيه عن رسول الله ﷺ وطلب منه الأمان .

ومادام قد رأى هذا الموقف العظيم الذي احتاج فيه لإبراز كتاب الأمان فإنه موقن ببشرى النبي ﷺ له بأنه يلبس سوارَيْ كسرى ، وقد دارت الأيام دورتها ولبسهما كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

* * *

١٣ - مثل من رحمة النبي ﷺ -

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، والسَّبْي والغنائم بها مَحبوسة ، وقد اتخذ السَّبْيُ حَظائر يستظلون بها من الشمس ، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحظائر سأل عنها فقالوا : يارسول الله ، هذا سَبْي هوازن استظلوا من الشمس ، وكان السَّبْي ستَّةَ آلاف ، وكانت الإبل أربعةً وعشرين ألف بعير ، وكانت الغَنَم لايُدْرَى عددها ، قد قالوا أربعين ألفا وأقلّ وأكثر ، فلما قدم رسول الله ﷺ أمَرَ بُسْر بن سُفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسَّبْي ثيابًا يكسوها ، ثياب المعقَّد [١] ، فلا يخرج المرءُ منهم إلا كاسيًا ، فاشترى بُسْر كسوة فكسا السَّبْي كلَّهم[٢] .

هذا مثل من رحمة النبي ﷺ بالأسرى وقد كان يأمر أصحابه بالإحسان إليهم ، بينما كانوا يعاملون في عصره بالإساءة والاحتقار ، وهذا مثل مما تميز به المسلمون عن غيرهم في المعاملة ، حتى إن بعضهم يُرَدُّ إلى أهله حسب الاتفاق فيأبى أن يرجع إليهم .

* * *

(١) نوع من الثياب يجلب من هجر .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٣ .

١٤ - نماذج من منهج النبي ﷺ في الدعوة -

١ - قال الواقدي في سياق رواية له : وبدأ[١] بالأموال فَقَسَمها ، وأعطى المُؤَلَّفة قُلوبهم أول الناس . وكان رسول الله ﷺ قد غَنم فضة كثيرةً ، أربعة آلاف أوقية ، فجُمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ ، فجاءَ أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة ، فقال : يارسول الله ، أصبحت أكثر قُريش مالاً ! فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أعطني من هذا المال يارسول الله ! قال : يابلال ، زن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابني يزيد أعطه ! قال رسول الله ﷺ : زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : ابني معاوية ، يارسول الله ! قال : زن له يابلال أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك الكريم ، فداك أبي وأمي ، ولقد حاربتُك فنعم المحاربُ كنتَ ، ثم سالمتُك فنعم المُسالمُ أنت . جزاك الله خيراً ![٢] .

٢ - قال الواقدي : حدثني معمر . عن الزهري . عن سعيد بن المسيب . وعروة بن الزبير ، قالا : حدثنا حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله ﷺ بحُنين مائةً من الإبل فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : ياحكيم ابن حزام ، إنَّ هذا المال خَضرةٌ حُلوةٌ . فمن أخذه بسَخاوة نفس بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولايشبع ، واليد

---

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٤ - ٩٤٥ .

العليا خيرٌ من السفلى ، وابدأ بمن تعول! قال : فكان حكيم يقول : والذي بعثك بالحقّ ، لا أرزأ [1] أحدًا بعدك شيئًا ! فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعوه إلى عطائه فيأبى يأخذه ، فيقول عمر : أيها الناس ، إني أُشهدكم على حكيم أني أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه .

قال : حدثنا ابن أبي الزناد قال : أخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك[2] .

٣ - قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : أن قائلا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه : يارسول الله ، أعطيت عُيينة بن حصن والأقرع ابن حابس مئةً مئة ، وتركت جُعَيل بن سُراقة الضَّمْري ! فقال رسول الله ﷺ : أما والذي نفس محمد بيده لجُعيل بن سُراقة خيرٌ من طلاع الأرض [3] كلهم مثل عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ولكني تألفتهما ليُسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه[4] .

هذه الأخبار وأمثالها تبين منهجا من مناهج رسول الله ﷺ في الدعوة، وهو أنه كان يتألف الكفار إلى الإسلام بالمال وخاصةً سادتهم وأشرافهم الذين لهم أتباع يأخذون برأيهم ، وذلك أن هؤلاء الكبار إذا أسلموا أسلم أتباعهم ، فلذلك أعطى عددًا من زعماء أهل مكة وبعض

---

(١) أي لا أطلب أحدا .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٥ .

(٣) يعني مايملؤها حتى يطلع عنها ويسيل .

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧١ - ١٧٢ .

وأخرجه الواقدي وذكر مثله - مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٨ .

القبائل ، ولقد كان لهذه العطايا أثر في إسلام بعضهم كما سبق في خبر إسلام صفوان بن أمية ، وفي ثباتهم على الإسلام كما في خبر أبي سفيان وحكيم بن حزام .

وفي الخبر الأخير إشارة إلى أنه ﷺ أعطى من أعطى ليتألفه إلى الإسلام وأنه وكل المؤمنين الصادقين إلى إسلامهم .

* * *

١٥ – مثل من أخلاق النبي ﷺ وورع الصحابة –

قال ابن إسحاق : ولما فرغ رسول الله ﷺ من ردِّ سبايا حُنين إلى أهلها ، ركب واتبعه الناس يقولون : يارسول الله ، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حتى ألجؤوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه ، فقال : أدُّوا عليّ ردائي أيها الناس ، فو الله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولاكذابا ، ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرَة من سنامه ، فجعلها بين أُصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولاهذه الوبرة إلا الخُمس ، والخُمس مردود عليكم فأدُّوا الخياط والمخيط ، فإنّ الغلول يكون على أهله عاراً ونارا وشنارا [١] يوم القيامة . قال : فجاء رجل من الأنصار بكبة من خُيوط شعر [٢] ، فقال : يارسول الله ، أخذت هذه الكبة أعملُ بها برْذعة بعير لي دبر [٣] ، فقال : أما نصيبي منها فلك ! قال : أمّا إذا بلغتْ هذا فلا حاجة لي بها ، ثم طرحها من يده [٤] .

قال ابن هشام : وذكر زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، وسيفه

---

(١) الشنار أقبح العيب .

(٢) الكبَّة اللفيفة من الخيوط .

(٣) أي ليصلح بها رحل بعيره الذي اصابته الدبرة وهي القروح .

(٤) وأخرجه الإمام أحمد بإسنادين ، ذكره الهيثمي وقال : ورجال أحد إسنادَيه ثقات – مجمع الزوائد ٦/ ١٨٧ – ١٨٨ – .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا – صحيح البخاري ، رقم٣١٤٨، كتاب فرض الخمس(٦/ ٢٥١) – .

متلطخ دما ، فقالت : إني قد عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع مُنادي رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شيئًا فليردّه ، حتى الخياط والمخيط . فرجع عقيل ، فقال : ماأرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها ، فألقاها في الغنائم[1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : حلم النبي ﷺ على أولئك الذين ألحُّوا عليه بقسمة الفيء حتى ألجؤوه إلى تلك الشجرة التي خطفت رداءه فلم يغضب عليهم وإنما أجابهم بتلك الكلمات البليغة « فو الله أنْ لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولاجبانا ولاكذابا » .

وحاشا للنبي ﷺ أن يتصف بهذه الصفات التي تثلم الشرف وتحجب السيادة ، فإن من أبرز صفات السيادة الكرم والشجاعة والصدق، ولقد كان لرسول الله ﷺ أعلى ما يمكن أن يتخلق به بشر من هذه الصفات وغيرها من مكارم الأخلاق .

ثانيًا : دقة النبي ﷺ في الأمور المالية وحقوق الناس ، فحينما ذكر الوعيد على من أخذ شيئًا من الغنيمة فقال : « أدُّوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا ونارا وشنارا يوم القيامة » جاء رجل من الأنصار بلفيفة من الخيوط أخذها من المغنم ليصلح بها رحل بعيره فكان جواب النبي ﷺ « أما نصيبي منها فلك » .

لقد أخذها هذا الأنصاري وهو لايظن أن ذلك غلول لقلة ثمنها

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦٣ - ١٦٥ .

وعدم تعلق أنظار الناس بها ، ولكن النبي ﷺ المربِّي العظيم الذي يعتبر قمة عليا في الورع لم يحتقر تلك اللفيفة ، بل سمح لذلك الرجل بنصيبه منها الذي هو الخمس ، أما أربعة أخماسها فإنه حق المسلمين المجاهدين فكيف يعطيه حقهم منها ! .

إنه درس تربوي مؤثر في تعليم الورع والدقة في محاسبة النفس واحترام حقوق الناس .

ثالثًا : مثلان من ورع الصحابة رضي الله عنهم :

الأول : خبر ذلك الأنصاري الذي جاء بلفيفة الخيوط ولم يسكت عليها لما خشي أن يكون ذلك من الغلول .

والثاني : خبر عقيل بن أبي طالب حينما سمع منادي رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط والمخيط » فرد إبرة كان أخذها من المغنم بالرغم من أنه كان حديث عهد بالإسلام .

وفي خبر سابق جاء أن الغنائم اشتملت على أربعة آلاف أوقية من الفضة ، ولقد كان بإمكان الذين غنموها أن يخفوا شيئا منها لسهولة ذلك ولكنهم كانوا مُـثُلاً عليا في الأمانة والورع ، فأدَّوا ما غنموه بأمانة وإخلاص ، وبهذا أصبحوا مثالا يحتذى لمن جاء بعدهم .

* * *

١٦ - أمثلة من أخلاق النبي ﷺ وأصحابه العالية - (وفادة هوازن وإطلاق الأسرى)

١ - قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن سبي كثير ، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : يارسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم .

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء مالا يُدرى ماعدَّتهُ .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جدّه عبد الله بن عمرو : أنّ وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخفَ عليك ، فامنن علينا ، مَنَّ الله عليك . قال : وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بني سعد بن بكر ، يقال له زُهير ، يكنى أبا صُرَد ، فقال : يارسول الله ، إنما في الحظائر عمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كُنَّ يكفلنك ، ولو أنّا ملَحْنا للحارث بن أبي شمر ، أو للنعمان بن المنذر(١) ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين .

---

(١) يعني لو كان أحدهما رضع فينا كما رضعت .

قال ابن هشام : ويُروى ولو أن مالحنا الحارث بن أبي شمر ، أو النعمان ابن المنذر .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظُّهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرعُ بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سُلَيم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ماكان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبني سليم : وهَّنتموني .

فقال رسول الله ﷺ : أمَّا من تمسك منكم بحقه من هذا السَّبي فله بكل إنسان ستُّ فرائض ، من أوّل سَبي أصيبه ، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٥٦ - ١٥٩ .

=

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : سياسة النبي ﷺ الحكيمة وحسن تصرفه ومقدرته على الإقناع ، فقد جاء إليه وفد من قبيلة هوازن التي نُكبت في نسائها وأبنائها وأموالها ، جاؤوا إليه مسلمين راغبين في فكاك أسراهم وإعادة أموالهم إليهم ، فخلَّص لهم النبي ﷺ نساءهم وأبناءهم من الرق في موقف واحد وكلمات معدودات ، من غير أن يغتصب هذا من المسلمين الغانمين بعدما امتلكوه ، بل بحسن السياسة والقدوة الحسنة والتدبير المحكم .

إن تصرف النبي ﷺ هذا يعتبر مثالا عاليا للتربية بالقدوة الحسنة ، فقد ضرب المثل في البذل والتضحية بنفسه وقرابته الأدنين ، ولسان حاله يقول : ارتفعوا أيها المسلمون إلى هذا المستوى العالي الذي رفعت إليه نفسي وقرابتي ، ولاشك أن هذا من أبلغ الأساليب في التأثير على النفوس ، خاصة إذا صدر ممن هو محطُّ الأنظار وموضع القدوة .

ولقد نجح النبي ﷺ نجاحا كبيرا حيث حل هذه القضية المشكلة بعد صلاة الظهر في كلمات . . نجح حينما حمل أكثر المسلمين على التنازل عما في أيديهم من الأسرى تأسِّيًا به ﷺ ، ونجح حينما حل مشكلة المتمنِّعين المتمسكين بما في أيديهم حيث ألزمهم بتسليم ما في أيديهم من

= وأخرجه الإمام البخاري من حديث مروان والمسور بن مخرمة مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٣١٨ ، ٤٣١٩ (٨/ ٣٢ - ٣٣) .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ، ذكره الهيثمي وقال : رجال أحد إسناديه ثقات ٦/ ١٨٨ .

وأخرجه الواقدي عن شيوخه وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٤٩ - ٩٥٢ - .

الأسرى في مقابل ستة أسهم من أول فيء يفيئه الله تعالى عليه ، فهو في هذه الحال لم يقرَّ التفرقة بين الأسرى بحيث يُعتَق فريق ويبقى فريق على الرق، ولم يجبر أصحاب الحق على تسليم مافي أيديهم بدون مقابل، بل أعطاهم ما أرضاهم مقابل حقهم .

فما أحكم هذه السياسة ! وما أعظم هذه القدوة ! وما ألطف هذا التدبير ! .

ثانيًا : موقف جليل للصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار وبني سليم حيث تنازلوا حالاً عما في أيديهم من الأسرى تأسيا برسول الله ﷺ وبني عبد المطلب ، وهذا دليل على قوة إيمانهم وتجردهم من حظوظ النفوس وتنافسهم في الخير وعمل الآخرة .

ومما يلاحظ أنهم بادروا إلى هذا العمل الصالح من غير تردد، وكان السابقون إلى التنازل هم المهاجرين وهذه منقبة تُذكر لهم .

كما أنه يلاحظ أن هذه الطوائف كانت متحدة الكلمة فيما بينها حيث لم يقم أحد من الأتباع يخالف ما أمضاه السادة الذين يتكلمون عادة بلسان قومهم ، وهذه فضيلة تذكر لهؤلاء الأماجد الكرام ، إلا ما كان من بني سليم وزعيمهم فقد تداركوا الموقف وخالفوه ووافقوا المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

١٧ - نموذج من دعوة النبي ﷺ وسياسته العالية - (إسلام مالك بن عوف)

قال ابن إسحاق : قال رسول الله ﷺ لوفد هوزان ، وسألهم عن مالك بن عوف مافعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكا أنه إن أتاني مُسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مئة من الإبل ، فأُتيَ مالكٌ بذلك ، فخرج إليه من الطائف - وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ماقال ، فيحبسوه - فأمر براحلته فهُيِّئَتْ له ، وأمر بفرس له ، فأُتيَ به إلى الطائف ، فخرج ليلا ، فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبَس ، فركبها ، فلحق برسول ﷺ ، فادركه بالجعرانة أو بمكة ، فردّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مئة من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناس كلِّهمُ بمثل محمد
أوفَى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدي ... ومتى تشأ يُخبركَ عما في غد
وإذا الكتيبةُ عرَّدَت أنيابُها ... بالسّمهريّ وضرب كل مُهنَّد(١)
فكأنه ليثٌ على أشباله ... وسْط الهباءة خادرٌ في مَرصد (٢)

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل : ثُمالة ، وسلمةُ ، وفَهْم ، فكان يُقاتل بهم ثقيفا ، لايخرج لهم سرحٌ إلا

(١) عردت أنيابها أي خرجت كلها واشتدت ، وهو كناية عن كمال استعدادها ، والسمهري : الرمح ، والمهند : السيف .

(٢) الهباءة : الغبار ، والخادر : المقيم في عرينه ، والمرصد : مكان الرصد .

أغار عليه ، حتى ضيق عليهم ، فقال أبو محجَن بن حبيب بن عمرو ابن عمير الثقفي :

هـابت الأعـــداءُ جانبنا ثـــم تـغزونا بنو سلَمَهْ
وأتــانــا مــالكٌ بــهــمُ نــاقـضًا للعهد والحُرَمَهْ
وأتــوا فـــي منازلـنـا ولــقد كـــنا أولي نقَمَهْ (١)

وأخرج الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجمحي قال : وهو - يعني مالك بن عوف - على هوازن حين لقيهم مع رسول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم وذراريهم ، فخالفه دريد بن الصمة فلجَّ وأبَى ، فصاروا إلى أمره فلم يحمدوا رأيه ، وكان يومئذ رئيسهم ، فلما رأى هزيمة أصحابه قصد نحو النبي ﷺ - وكان شديد الإقدام - ليصيبه - زعم - فوافاه مرثد بن أبي مرثد الغنوي فقاتله ، وحمل فرسه فعاج فلم يُقدم ، ثم أراده وصاح به فلم يقدم . . .

قال : ثم انهزم من حنين فصار إلى الطائف فقال رسول الله ﷺ : لو أتاني لأمَّنته وأعطيته مائة ، فجاء ففعل به ذلك ، ووجَّهه على قتال أهل الطائف .

وقال في أخباره بعد ذلك : وكتب سعد بن أبي وقاص (٢) إلى عمر

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق ، ذكره الهيثمي وقال : ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ - .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٥٤ - ٩٥٦ - .

(٢) يعني يوم أن كان واليا على العراق وقائدًا لمعركة القادسية .

ابن الخطاب رضي الله عنهما يستمدُّه ، فكتب إليه : تستمدني وأنت في عشرة آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة - وهو الذي يقال له حنظلة الكاتب - .

قال ابن إسلام : فحدثني بعض قومه أنه قال لعمر بن الخطاب : إنَّ رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجراً فأنا أردها ، قال : إنه لم يعطكَها إلا وهو يرى أنها لك حق .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني عن خليفة بن خياط عن محمد بن سلام الجمحي وكلاهما ثقة [1] .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولا : موقف عظيم لرسول الله ﷺ في حسن السياسة والحكمة في إدارة الأمور الحربية ، والتخطيط العالي في الدعوة ، وذلك حينما خطط لاجتذاب الزعيم الكبير الذي استطاع أن يسود عددا من القبائل وأن يجمع ذلك الجيش الكثيف مع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ألا وهو مالك بن عوف النصري .

لقد كان النبي ﷺ يخطط لهذا الأمر قبل مجيء وفد هوازن ، ومما يدل على ذلك أنه عزل أهل مالك وماله فلم يقسم ذلك مع الغنائم ، فلما جاء وفد هوازن اغتنم الفرصة وقال لهم : « أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل » .

تُرَى ماهي مشاعر مالك بن عوف حينما انهزم قومه وذهب منهم كل

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨٤ - ١٨٥ .

شيء حتى نساؤهم وأبناؤهم ، وكان هو السبب في كل ماجرى لهم؟! .

وكيف سيواجه انتقادات القبائل اللاذعة ؟ !وكيف سيستعيد سمعته العالية بين القبائل ؟ ! وماهي مشاعره حينما أصبح بعيدا عن قومه لاجئا عند ثقيف ؟ !

وماهي أفكاره نحو ما سيقوم به رسول الله ﷺ من مطاردته ومحاولة القضاء عليه ؟ !

كل هذه الأفكار وأضعافها من المفترض أن تفرض نفسها على مالك .

ولكن بينما هو في خضَمِّ هذه الأفكار ، وإذا بيد حانية وصوت رحيم من عدوه الذي أجلب عليه قبائل العرب يدعوه إلى أخذ أهله وماله إضافة إلى رفده بمائة من الإبل .

كل هذا في مقابل ماذا ؟ في مقابل أن يدخل في الإسلام ! .

سبحان الله ! هذا النبي الكريم والسيد العظيم الذي أشعل في وجهه تلك الحرب الضروس يتنازل عن كل ما يُتصوَّر عادة من الغضب والحقد وإرادة الانتقام ، ومحاولة إذلال الخصم ، ثم لايكتفي بذلك بل يرد على مالك أهله وماله مع مائة من الإبل في مقابل أن يسلم !! .

إن هذا أمر خارج عن ما اعتاده البشر وإن هذا الدين الذي سيُجعل عوضا عن كل هذه التنازلات ، وعن كل هذه المكرمات لدين عظيم يفرض على العقلاء أن يعتنقوه .

وهكذا أسلم مالك حالاً لأنه من عقلاء الرجال وحكمائهم .

إن هذا التخطيط المحكم ، والتدبير المنظَّم من رسول الله ﷺ له مابعده من النتائج العالية في مجال الدعوة ، وذلك أنه إذا أسلم زعيم القبيلة يسلم أفرادها أو أكثرهم ، وكذلك في مجال الحرب ، حيث ولاه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل المجاورة ، فصار مشْعَل حرب على قبيلة ثقيف التي امتنعت عن الإسلام حتى دوَّخهم وألجأهم إلى التفكير في مسالمة النبي ﷺ ، الأمر الذي قادهم إلى الإسلام كما سيأتي .

كل هذه النتائج الضخمة ساقها ماخطط له النبي ﷺ من اجتذاب مالك بن عوف إلى الإسلام .

فما أعظمه ﷺ من قائد محنَّك ، وداعية مسدد ، وإداري حكيم !!

ثانيًا : موقف مالك بن عوف الذي أخلص في خدمة الإسلام ودولته ، وقطع أحلافه التي كانت في الجاهلية ، وأبدلها برابطة الإسلام ، واستعمل ذكاءه وسياسته وشجاعته النادرة في غزو أعداء الإسلام من قبيلة ثقيف حتى حصرهم داخل حصنهم ، وأصبحوا لايأمنون على أموالهم خارجه ، فدفع بهم إلى محاولة مسالمة النبي ﷺ ثم إلى الإسلام .

لقد دخل بإسلامه عهدا جديداً ذهبت معه كل تلك الأفكار الضاغطة التي حولت الليث الهزَبر إلى حَمَل وديع يعيش في كنف قبيلة أخرى ، ليعود القائد الحربي البارع بعد أن ولاه الرسول ﷺ على قبيلته والقبائل المجاورة ، وليمارس كفاءاته الإدارية والحربية في نصر الإسلام ودولته .

ومما يذكر له قصيدته البليغة في مدح النبي ﷺ التي جاءت في هذه

الرواية ، وهي تدل على حبه البالغ لرسول الله ﷺ وإعجابه به .

ثالثًا : أما الرواية الأخيرة التي رواها الإمام الطبراني من حديث محمد بن سلام الجمحي فهي مجموعة من أخبار مالك بن عوف وفيها ما يتعلق بحنين وفيها ماجرى بعد ذلك ، ومادام الحديث هنا عن مالك فلا بأس من التعليق على ماجاء في هذا الخبر عنه .

فقد ذكر قيادة مالك لقومه يوم حنين وأنه لما رأى هزيمة قومه توجه لقتل النبي ﷺ وأن فرسه أبى عليه أن يُقدم .

فهذا الذي حصل لفرسه أمر غير معتاد فلعل جنود الله تعالى التي نزلت ذلك اليوم حالت دون الفرس فلم يُقدم فكان ذلك خيرا لمالك .

وذكر منقبة عالية لمالك في الشجاعة وذلك حينما كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يستمد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فكتب إليه «تستمدني وأنت في عشرة آلاف ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة» وهذا يعني شهرة مالك بالشجاعة والإقدام ، ولايقال هذا غالبا إلا في البطل الذي يعدل بألف .

ثم ذكر أخيرًا خبرًا عن ورع مالك وذلك حينما قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إن رسول الله ﷺ أعطاني يتألفني على الإسلام فلم أحب أن آخذ على الإسلام أجرا فأنا أردها ، ولكن عمر أبى أن يأخذها وقال : إنه لم يعطكها إلا وهو يرى أنها لك حق .

ولقد طابت نفس مالك بذلك حينما أفتاه عمر باستحقاقه لذلك المال لغزارة علم عمر ولكونه شديد التحري في أمور المال ، ويكفي مالكا

بهذا ماذكَّره به عمر من أن النبي ﷺ حينما أعطاه المال كان يرى أنه حق له .

وهذا يدل على قوة إيمان مالك وورعه في أمور دينه ، رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

١٨ – مثل من مقدرة النبي ﷺ على الإقناع –
(خبر شكوى الأنصار)

قال ابن هشام : حدثني زياد بن عبد الله ، قال : حدثنا ابن إسحاق : قال : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمو د بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا ، في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم : لقد لقي والله رسولُ الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد ابن عُبادة فقال : يارسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمْتَ في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، قال : فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة .

قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار ، فأتاهم ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يامعشر الأنصار ، ماقالةٌ بلغتني عنكم ، وَجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلاَّلا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله

ولرسوله المنُّ والفضلُ . قال ﷺ أمَا والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدِّقتم : أتيتنا مُكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوَجَدْتم يامعشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكَت الأنصارُ شعبًا ، لسلكتُ شعبَ الأنصار ، اللهُم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظا . ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا[2] .

وقال الحافظ ابن كثير بعدما ذكره : وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه ، وهو صحيح[3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : ما قام به النبي ﷺ من إقناع الأنصار رضي الله عنهم ، وذلك

---

(١) هي البقية اليسيرة من الشراب في الإناء .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٥ - ١٧٨ .

وأخرجه الإمام البخاري وذكر نحوه - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٣٠(٨/٤٧)، وأخرجه الإمام مسلم وذكر نحوه - صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠٥٩ (ص ٧٣٣) .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ٩٥٦ - ٩٥٨ - .

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

ببيانه البديع الذي غير به مشاعرهم وذلك بعدما بين بأسلوبه الرائع السبب الذي من أجله تصرف ذلك التصرف في قسمة الفيء ، الأمر الذي كان غائبا عن الأنصار تصورُه ، فلما فهموا مراد النبي ﷺ اقتنعوا حالاً ، وعلموا أنه ماتركهم إلا إعلاءً لشأنهم واعتقادا منه بعلو كعبهم في الإيمان بهذا الدين .

ومن هنا نعلم أن الخطأ في تصور الأمور على حقيقتها والقصور في إدراك المقاصد قد يتعرض له بعض أقوياء الإيمان مما ينجم عنه اعتراض على تصرفات القادة ، الأمر الذي قد يترتب عليه الخلل في سير العمل ، ولكن سرعان مايزول هذا التصور الخاطيء وتعود المياه إلى مجاريها إذا وفِّق المسلمون بالقادة الحكماء ، الذين يزنون الأمور ويضعونها في مواضعها .

ولقد قدَّم النبي ﷺ لبيان السبب في إعطاء تلك العطايا الكبيرة في بعض زعماء القبائل بمقدمة بين بها فضل الأنصار ، كما ختم كلمته ببيان فضلهم والدعاء لهم ولذرياتهم ، ولقد وُفِّق ﷺ تمام التوفيق في إقناع الأنصار بوجهة نظره ، فتغيرت مشاعرهم وملامحهم من إضمار السخط وإظهار النقد إلى إضمار الرضى واظهار الفرح والسرور والتأثر البالغ مما صدر منهم الذي عبَّروا عنه بالدموع الغالية التي انسكبت على لحاهم وبقولهم : رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثانيًا : موقف يُذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه حينما قال له رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » قال : يارسول الله ما أنا

إلا من قومي ، فهذا يدل على اتصافه بخلق الصراحة والصدق ، فهو لم يبرِّئ نفسه من المَوْجدة على رسول الله ﷺ مع علمه بأنه يكره ذلك ، مادام أنه قد أضمر في نفسه هذا الأمر .

وقد جاء في إحدى روايات مسلم ، فقال - يعني رسول الله ﷺ «مالذي بلغني عنكم ؟ قالوا : هو الذي بلغك ، وكانوا لايكذبون .

وهكذا كانت أخلاق الصحابة رضي الله عنهم على الصدق والوضوح والصراحة ، بينما نجد أبناء الدنيا يشاركون في الإنكار على المسئول ، ثم إذا جاء التحقيق في الموضوع بَرَّؤوا أنفسهم قبل أن يكون تحقيق بل لمجرد علمهم بأن الموضوع أثار نقمة المسئول وتساؤله .

* * *

١٩ – مثل من أثر الجهاد في الدعوة وتصحيح الاعتقاد –

مما يلاحظ أن النبي ﷺ في غزوة حنين خرج معه بأناس بقوا على شركهم من أهل مكة مع أنه كان يرفض أن يستعين بأهل الشرك على قتال أهل الشرك كما سبق ، والظاهر أن خروجه بالمشركين معه في تلك الغزوة من أجل أن يتألفهم للإسلام ، وذلك بما يرون من انتظام المسلمين واستقامتهم ، وتخلقهم بمكارم الأخلاق .

كما أنه خرج معه بمسلمة الفتح مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أنه لايشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماما من غبش الجاهلية ، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى ، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيرا من العقائد والأحكام والآداب ، وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث وتلاقح ا لأفكار .

ولقد حدث من بعض مسلمة الفتح هؤلاء أمر يُخلُّ بتوحيد الألوهية ، وذلك كما أخرج الإمام أحمد من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبَلَ حنين فمررنا بسدرة فقلت : يانبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط[١] كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون بسلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سَنَن الذين من قبلكم »[٢] .

(١) أي ذات تعاليق .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢١٨ .

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث أبي واقد رضي الله عنه وذكر نحوه[1] .

وهذا يدل على أن هؤلاء المسلمين الذين قالوا هذا الكلام لم يكونوا يفرقون بين التوحيد والشرك في بعض الصور ، ومع ذلك لم يؤخر النبي ﷺ مشاركتهم في الجهاد حتى يتعلموا أمور العقيدة ، بل كان خروجهم للجهاد سببا في حدوث هذه المناسبة التي تعلموا منها أصلا من أصول العقيدة .

* * *

(١) سنن الترمذي ، الفتن ، رقم ٢١٨٠ (٤/ ٤٧٥) .

وأبو واقد الليثي أسلم يوم الفتح على القول الراجح ، وقد جاء في إحدى الروايات « ونحن حديثو عهد بكفر » - الإصابة رقم ١٢١١ (٤/ ٢١٢) .

مواقف وعبر

ما بين حنين وتبوك

١- إسلام كعب بن زهير ومدحه رسول الله ﷺ -

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ من مُنْصَرَفه عن الطائف كتب بُجَير بن زُهير بن أبي سُلْمى إلى أخيه كعب بن زهير يُخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ، ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقي من شُعراء قريش كابن الزِّبَعرَى وهُبيرة بن أبي و هب ، قد هربوا في كلِّ وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة ، فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لايقتل أحدًا جاءه تائبًا ، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض .

قال ابن إسحاق : فلما بلغ كعبا الكتابُ ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرْجَف به من كان في حاضره من عدُوِّه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شيء بُدّا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجافَ الوشاة به من عدوّه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينةَ - كما ذُكر لي - فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله ﷺ ، فقم إليه فاستأمنه . فذُكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ ، حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لايعرفه ، فقال : يارسول الله ، إنَّ كعب بن زُهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مُسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال : أنا يارسول الله كعبُ بن زُهَير .

ثم ذكر قصيدته التي مدح بها رسول الله ﷺ ومطلعها :

بانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبُولُ مُتيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبُولُ

إلى أن قال :

وقال كـــل صديق كنت آمله | لا ألهينَّك إني عنك مشغول
فقلت : خلُّوا سبيلي لا أبالكم | فكلُّ ماقدر الرحمن مفعول
كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامته | يوما على آلة حدباء[1] محمول
نُبِّئت أن رسول الله أوعدني | والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ | ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لاتأخذنِّي بأقوال الوشاة ولم | أذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويل
لقد أقوم مقامًا لو يقوم به | أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لَظَلَّ يرعد ، إلا أن يكون له | من الرسول بإذن الله تنويل
مازلت أقتطع البيداء مُدَّرعًا | جنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتى وضعت يميني ما أُنازعه | في كفِّ ذي نقمات قيلُه القيل[2]
فَلَهْوَ أخوف عندي إذ أكلمه | وقيل إنك منسوبٌ ومسئول
من ضَيغَم بَضَراء الأرض مَخْدَرُهُ | في بطن عَثَّر غيلٌ دونه غيل[3]

(١) يعني النعش .

(٢) نقمات جمع نقمة بفتح فكسر وهي المكافأة بالعقوبة والمؤاخذة على الذنب ، وقيله يعني قوله ويقصد به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الضيغم الأسد ، وضَرَاء الأرض أرض مستوية تأوي إليها السباع وبها نبذ من الشجر ، والمخدر العرين ، وبطن عَثَّر اسم مكان ، والغيل الشجر الملتف .

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به　　　مهنَّد من سيوف الله مسلول(١)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : مثل من أمثلة كثيرة مر بعضها في عفو النبي ﷺ عن الذين أساؤوا إليه تألفًا لهم إلى الإسلام ، ومنهم كعب بن زهير الذي كان هجا النبي ﷺ من قبل ، فتغاضى ﷺ عن ذلك لما جاء مسلما .

وهكذا كان النبي ﷺ لاينتصر لنفسه ، بل كان يغض الطرف عن الإساءات التي تُوَجَّه إليه من أجل أن يكسب الناس للإسلام .

ثانيًا : موقف لبجير بن زهير حيث دعا أخاه إلى الإسلام بالطريقة التي تؤثر عليه فهدده بقوة دولة الإسلام ، وهو يعلم أنه إذا جاء مستسلما بدافع من الخوف على نفسه سيتفهم الإسلام ويقتنع به ، وهذا قد حدث فعلاً حيث حسن إسلام كعب وكان له ذكر حسن في الإسلام .

ثالثًا : موقف لكعب بن زهير في هذه القصيدة العصماء المشهورة التي مدح بها رسول الله ﷺ وأشاد فيها بعزته وشجاعته ورفعة مقامه وهيبته التي خلعت قلوب الأبطال مع ماهو فيه من التواضع العظيم .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٨٠ - ١٩٥ .

وأخرجه الإمام البيهقي موصولا إلى عبد الرحمن بن كعب بن زهير - دلائل النبوة -٥/٢٠٧-٢١١- .

٢ – مثل من الفداء والتضحية في سبيل الدعوة – (إسلام عروة بن مسعود ودعوته قومه)

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : كان عُروة بن مسعود حين حاصر النبي ﷺ أهل الطائف بجُرَش ، يتعلَّم عمل الدَّبَّابات والمُنْجَنيق ، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولَّى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والمُنجنيق والعرّادات (١) وأعد ذلك حتى قذف الله عز وجل في قلبه الإسلام .

فقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم ، ثم قال : يارسول الله ائذن لي فآتي قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، فو الله مارأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب . فأقدُم على أصحابي وقومي بخير قادم ، وما قدم وافدٌ قَطُّ على قومه إلا من قدم بمثل ماقدمتُ به ، وقد سُبقتُ يارسول الله في مواطن كثيرة . فقال رسول الله ﷺ : إنَّهم إذًا قاتلوك ! قال : يارسول الله ، لأنا أحبّ إليهم من أبكار أولادهم ، ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : إنهم إذًا قاتلوك . قال : يارسول الله ، لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني . واستأذنه الثالثة فقال : إن شئت فاخرج .

فخرج إلى الطائف فسار إليها خمسًا ، فقدم على قومه عشاءً فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتي الرَّبة (٢) : ثم قالوا : السفر قد حَصَره . فجاؤوا منزله فحيّوه تحية الشِّرْك ، فكان أوّل ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحيّة أهل الجنة . ثم دعاهم إلى الإسلام .

---

(١) العرادات من آلات الرماية وهي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني صنم اللات .

وقال : ياقوم ، أتتَّهمونني ؟ ألستم تعلمون أنِّي أوسطكم نَسَبًا ، وأكثركم مالاً ، وأعزُّكم نَفَرًا ؟ فما حملني على الإسلام إلا أنِّي رأيتُ أمرًا لايذهب عنه ذاهب ! فاقبلوا نُصْحي ، ولاتَستَعصوني . فو الله ماقدم وافدٌ على قوم بأفضل مما قدمتُ به عليكم ، فاتهموه واستغشُّوه وقالوا : قد واللاَّت وقع في أنفسنا حيثُ لم تَقْرُب الربَّة . ولم تحلق رأسك عندها أنَّك قد صَبَوْتَ(١) ! فآذَوْه . ونالوا منه ، وحَلُم عليهم .

فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوْفَى على غرفة له فأذَّن بالصلاة . فرماه رجلٌ من رَهْطه من الأحلاف يقال له وَهْب بن جابر - ويقال : رماه أوس بن عوف من بني مالك ، وهذا أثبت عندنا - وكان عُروة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكحَلَه فلم يرْقأ دَمُه (٢) . وحشد قومُه في السلاح . وجمع الآخرون وتجايشوا ، فلما رأى عُروة ما يصنعون قال : لاتقتتلوا فيّ ، فإنّي قد تصدقت بدمي على صاحبه - ليُصلحَ بذلك بينهم - فهي كرامة الله أكرمني الله بها ، الشهادة ساقها الله إليّ ، أشهد أن محمداً رسول الله . خبّرني عنكم هذا أنَّكم تقتُلونني ، ثم قال لرَهْطه : ادفنوني مع الشهداء الذين قُتلُوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفنوه معهم ، وبلغ رسول الله ﷺ قَتْلُه فقال : مثل عُروة مَثَل صاحب ياسين . دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه (٣) .

(١) أي تركت دين قومك ودخلت في الإسلام .

(٢) أي لم يقف ، والأكحل عرق معروف في اليد .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٩٦٠ - ٩٦١ .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني أخرجه من طريقين مرسلا بإسناد حسن - مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٦ - .

=

وهكذا رأينا كيف جاد عروة بن مسعود رضي الله عنه بنفسه في سبيل الله تعالى ابتغاء هداية قومه إلى سبيل الرشاد بعد أن لقي من قومه مالقي من الإهانة والأذى ، ولم يكن خافيا عليه صعوبة الأمر الذي سيواجهه من قومه وهو يدعوهم إلى الإسلام الذي قاتلوا من أجله رسول الله ﷺ ، ولكن صاحب الإيمان القوي لايهدأ له بال ولايقر له قرار وهو يرى أقرب الناس إليه لم ينعموا بعدُ بنعمة الإيمان التي أصبح يتفيأ ظلالها ، وكيف يشعر بالسعادة وهو يوقن بأن أقرب الناس إليه سيكونون بعد الموت من حطام جهنم وبئس القرار ؟ .

من أجل هذا الشعور القوي المتدفق ضحَّى بصحبة النبي ﷺ التي هي أغلى مايمكن أن يطلبه المسلم في ذلك العهد وسارع لمحاولة هداية قومه وإنقاذهم من ضلال الكفر ، ولكنَّ تمكُّن الجاهلية من قلوبهم وتعصبهم الأعمى لموروثاتهم حال بينهم وبين الهداية ، ولقد كان هذا التعصب مستحكما في عقولهم إلى الحد الذي لم يُبق فيها منفذًا للتفكير في كونها حقا أو باطلا ، ولهذا لم يتيحوا الفرصة لمن أراد أن يبصرهم بماهم عليه من باطل ، ولم يفتحوا معه باب الحوار حتى للدفاع عن باطلهم ، بل عجَّلوا بالقضاء عليه وإن كان سيدًا من ساداتهم فأطفأوا النور الذي ساقه الله لهم لإخراجهم من الظلمات .

وفي قوله لقومه لما حشدوا السلاح لقتال من اعتدوا عليه « لاتقتتلوا فيّ فإني قد تصدقت بدمي على صاحبه » دلالة على مبلغ استهانة المؤمن الحق بنفسه ودنياه في سبيل رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فهو

= وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٦ - ٢٣٧ - .

يبين لقومه أنهم إن كانوا يهتمون بقضية الثأر التي هي إشباع لغريزة التشفِّي والانتقام ، فإنه لايهتم بشيء من ذلك لأنه لايريد إلا الجزاء من الله تعالى ، ويعتبر أن هذا القتل كرامة أكرمه الله بها .

وهكذا يرفع الإسلام من تفكير معتنقيه ويشدهم إلى الاهتمام بمعالي الأمور .

إن موقف عروة بن مسعود رضي الله عنه في دعوة قومه والتضحية بنفسه في سبيل ذلك جعله جديرا بثناء النبي ﷺ عليه بقوله « مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه » .

وإنه ليجدر بنا أن نورد موجزاً لقصة صاحب ياسين رحمه الله لتتم المقارنة بين المشبه والمشبه به .

وقد ذكر الله سبحانه قصته بقوله ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [يس : ٢٠ - ٢٥] .

وقد ذكر ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه : أن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه ، قالوا : وهو حبيب ، وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : اسم صاحب ياسين حبيب النجار .

قال ابن إسحاق في روايته : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه [1] .

قال تعالى ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦، ٢٧] .

وهكذا تكون عاقبة المتقين ، أما عاقبة الكافرين المكذبين فقد ذكرها الله جل وعلا بقوله ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس : ٢٨, ٢٩] .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩٢ .

٣ - سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء -

قال الواقدي : حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز قال : سمعت عبد الله بن أبي بكر بن حزم يقول لموسى بن عمران بن منَّاح ، وهما جالسان بالبقيع : تعرف سرية الفُلْس ؟ قال موسى : ماسمعت بهذه السرية . قال : فضحك ابن حزم ثم قال : بعث رسول الله ﷺ عَليًا عليه السلام في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسًا ، وليس في السرية إلا أنصاريّ ، فيها وجوه الأوس والخزرج ، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل حتى أغاروا على أحياء من العرب ، وسأل عن محَلَّة آل حاتم ثم نزل عليها ، فشَنُّوا الغارة مع الفجر ، فَسَبَوا حتى ملؤوا أيديهم من السَّبْى والنَّعَم والشاء ، وهدموا الفُلْس وخرّبوه ، وكان صنمًا لطَيئ ثم انصرف راجعًا إلى المدينة .

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز : فذكرتُ هذه السرية لمحمد بن عمر ابن عَليّ ، فقال : ما أرى ابن حزم زاد على أن ينقل من هذه السرية ولم يأتك بها . قلت : فأت بها أنت ! فقال : بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الفُلْس ليهدمه ، في مائة وخمسين من الأنصار ، ليس فيها مُهاجرٌ واحد ، ومعهم خمسون فرسًا وظهْرًا ، فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل ، وأمره أن يشنَّ الغارات ، فخرج بأصحابه ، معه رايةٌ سوداءُ ولواءٌ أبيضُ ، معهم القَنا والسِّلاح الظاهر ، وقد دفع رايته إلى سهل بن حُنيف ، ولواءَه إلى جَبَّار بن صخر السَّلمي ، وخرج بدليل من بني أسد يقال له : حُرَيث . فسلك بهم على طريق فَيد . فلما انتهى بهم إلى موضع قال : بينكم وبين الحيّ الذي تُريدون يومٌ تامٌّ . وإن سرناه بالنهار وطئنا أطرافهم ورعاءَهم . فأنذروا الحيّ فتفرقوا . فلم

تُصيبوا منهم حاجتكم ، ولكن نُقيم يومنا هذا في موضعنا حتى نُمسي ثم نَسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتى نُصبّحهم في عَماية الصبح .

قالوا : هذا الرأي ! فعسكروا وسرحوا الإبل ، واصطنعوا ، وبعثوا نفرًا منهم يتقصَّون ماحولهم ، فبعثوا أبا قتادة والحُباب بن المُنذر وأبا نائلة ، فخرجوا على متون الخيل لهم يطوفون حول المعسكر ، فأصابوا غلامًا أسود فقالوا : ماأنت ؟ قال : أطلب بُغْيتي ، فأتوا به عَليّا عليه السلام فقال : ما أنت ؟ قال : باغ ، قال : فشدوا عليه ، فقال : أنا غلامٌ لرجل من طيء من بني نبْهان ، أمروني بهذا الموضع ، وقالوا : إن رأيت خيل محمد فَطر إلينا فأخبرنا ، وأنا لا أدرك أسْرًا ، فلما رأيتكم أردت الذهاب إليهم ، ثم قلت لا أعجلُ حتى آتي أصحابي بخبر بيِّن من عددكم وعدد خيلكم وركابكم ، ولا أخشى ما أصابني ، فلكأني كنت مُقيَّدًا حتى أخذتني طلائعكم ، قال عَليٌّ عليه السلام : اصدُقنا ماوراءَك! قال : أوائل الحيّ على مسيرة ليلة طَرَّادة [1] ، تُصبّحهم الخيلُ ومَغارُها حين غَدوا .

قال عليّ عليه السلام لأصحابه : ماتَرون ؟ قال جبار بن صخر : نرى أن ننطلق على متون الخيل ليلتنا حتى نُصبِّح القوم وهم غارُّون فنُغير عليهم ، ونخرج بالعبد الأسود دليلاً ، ونُخلِّف حُرَيثًا مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله . قال عَلِّي : هذا الرأي ! فخرجوا بالعبد الأسود ، والخيل تَعادَى ، وهو ردْف بعضهم عُقْبَةً ، ثم ينزل فيُردف آخر عُقْبَةً ، وهو مكتوف ، فلما انهار الليل كذب العبد وقال : قد أخطأت الطريق

(١) أي طويلة .

وتركتُها ورائي . قال عَليٌّ عليه السلام : فارجع إلى حيث أخطأت ! فرجع ميلاً أو أكثر ، ثم قال : أنا على خطأ . فقال عَليٌّ عليه السلام : إنَّا منك على خُدْعة ، ماتُريد إلا أن تَثنيَنا عن الحيّ ، قَدِّموه : لَتَصْدُقنَّا أو لنضربنَّ عنقك ، قال : فقُدِّم وسُلّ السيف على رأسه ، فلما رأى الشر قال : أرأيت إن صدقتُكم أينفعني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني صنعتُ مارأيتم ، أنَّه أدركني مايُدرك الناس من الحياء فقلت : أقبلتُ بالقوم أدلُّهم على الحيّ من غير محنة ولاحقٍّ فآمنهم ، فلما رأيت منكم مارأيتُ وخفتُ أن تقتلوني كان لي عُذْر ، فأنا أحملكم على الطريق ، قالوا : اصدُقنا ، قال : الحيُّ منكم قريب .

فخرج معهم حتى انتهى إلى أدنى الحيِّ ، فسمعوا نُباح الكلاب وحركة النَّعَم في المَراح والشاء ، فقال : هذه الأصرام[1] وهي على فرسخ . فينظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : فأين آل حاتم؟ قال : هم متوسطو الأصرام ، قال القوم بعضهم لبعض : إن أفزعْنا الحي تصايحوا وأفزعوا بعضهم بعضًا فتغيب عنا أحزابهم في سواد الليل ، ولكن نُمهل القومَ حتى يطلع الفجر معترضًا فقد قرب طلوعه فنُغير ، فإن أنذر بعضهم بعضًا لم يَخْفَ علينا أين يأخذون ، وليس عند القوم خيلٌ يهربون عليها ونحن على متون الخيل . قالوا : الرأي ما أشرت به .

قال : فلمّا اعترضوا الفجر أغاروا عليها فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا ، واستاقوا الذرّية والنساءَ ، وجمعوا النَّعَم والشاءَ ، ولم يخفَ عليهم أحد تغيب فملأوا أيديهم . قال : تقول جاريةٌ من الحيّ وهي ترى

---

(١) أي جماعات الحي .

العبد الأسود - وكان اسمه أسْلَم - وهو مُوثَق : ماله هَبَل ! هذا عمل رسولكم أسْلَم ، لاسَلم ، وهو جلبهم عليكم ، ودلَّهم على عَوْرتكم ! قال : يقول الأسود : أقْصري يابنة الأكارم ، مادللتهم حتى قُدِّمتُ ليُضرب عنقي .

قال : فعسكر القوم ، وعزلوا الأسرى وهم ناحية نُفَير ، وعزلوا الذُّرية وأصابوا من آل حاتم أُخت عَديّ ونُسيات معها ، فعزلوهن على حدة ، فقال أسلم لعليٍّ عليه السلام : ماتنتظر بإطلاقي ؟ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله . قال : أنا على دين قومي هؤلاء الأسرى ، ماصنعوا صنعت ! قال : ألا تراهم مُوثقين ، فنجعلك معهم في رباطك ؟ قال : نعم ، أنا مع هؤلاء مُوثقًا أحبُّ إليّ من أن أكون مع غيرهم مُطلقًا ، يصيبني ما أصابهم ، فضحك أهل السرية منه ، فأوثق وطُرح مع الأسرى ، وقال : أنا معهم حتى ترون منهم ماأنتم راؤون . فقائلٌ يقول له من الأسرى : لامرحبًا بك ، أنت جئتنا بهم ! وقائل يقول : مرحبًا بك وأهلاً ، ماكان عليك أكثر مما صنعت ! لو أصابنا الذي أصابك لفعلنا الذي فعلت وأشدَّ منه ، ثم آسيْتَ بنفسك .

وجاءَ العسكر واجتمعوا ، فقربوا الأسرى فعرضوا عليهم الإسلام ، فمن أسلم تُرك ومن أبى ضُربت عنقه ، حتى أتوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام ، فقال : والله إنَّ الجَزَع من السيف لَلُؤْم ، وما من خُلود! قال : يقول رجلٌ من الحيّ ممّن أسلم : ياعجبًا منك ، ألا كان هذا حيث أُخذْتَ ! فلما قُتل من قُتل ، وسُبي من سُبي منا ، وأسلم منَّا من أسلم راغبًا في الإسلام تقول ما تقول ! ويحك ، أسلم واتبع دين محمد ! قال : فإني أُسْلم وأتبع دين محمد ، فأسلم وتُرك ، وكان يَعدُ فلا يَفي

حتى كانت الرِّدَّة ، فشهد مع خالد بن الوليد اليَمامة فأبلى بلاءً حسنًا .

قال : وسار عليّ عليه السلام إلى الفُلْس فهدمه وخرّبه ، ووجد في بيته ثلاثة أسياف ، رَسوب ، والمخْذَم ، وسيفًا يقال له اليمانيّ ، وثلاثة أدراع ، وكان عليه ثيابٌ يُلبسونه إيّاها ، وجمعوا السَّبْي ، فاستُعمل عليهم أبو قتادة ، واستُعمل عبد الله بن عَتيك السُّلمي على الماشية والرِّثَّة ، ثم ساروا حتى نزلوا رَكَك[1] فاقتسموا السَّبْي والغنائم، وعزل للنبي ﷺ صَفيّا [2] رَسوبًا والمخْذَم ، ثم صار له بعدُ السيفُ الآخر ، وعزل الخُمُس ، وعزل آل حاتم ، فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة[3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القيادة الحكيمة التي كانت من أسباب نجاح المسلمين في هذه السرية ، ومن ذلك أخذه بمبدإ الشورى حيث كان يستشير أصحابه قبل الإقدام ويأخذ بالرأي الصائب وإن كان من غيره .

ثانيًا : مواقف لعموم الصحابة المشاركين في هذه السرية مع قائدهم، في تفاهمهم واجتماع كلمتهم ، ونجاحهم في القضاء على عدوهم ، ثم فيما قاموا به من هدم الصنم « الفُلْس » الذي كانت قبيلة طيء تعبده ، وهذا إنجاز كبير حيث سينتهي الشرك بعد ذلك في بلاد طيء .

---

(١) اسم مكان في جبل سلمى أحد جبلي طيء .

(٢) الصفي ما كان يأخذه رئيس الجيش من الغنيمة قبل القسمة - النهاية ٢/ ٢٦٨ - .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٩٨٤ - ٩٨٨ .

ثالثًا : ماقام به علي رضي الله عنه من إكرام أخت عدي بن حاتم وعدم إدخالها مع السبي الذي قسم ، وهو يقتدي بذلك بالنبي ﷺ حيث عزل أهل مالك بن عوف فلم يقسمهم تألُّفًا له للإسلام، وكذلك فعل علي ليتألف النبي ﷺ أخاها للإسلام .

* * *

٤ - نموذج من دعوة النبي ﷺ الحكيمة -
(إسلام عدي بن حاتم)

قال ابن إسحاق : وأما عدي بن حاتم فكان يقول - فيما بلغني - : مامن رجل من العرب كان أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرْأً شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسيرُ في قومي بالمرباع [1] ، فكنتُ في نفسي على دين، وكنت مَلكا في قومي ، لما كان يُصنع بي ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعيا لإبلي ، لا أبالك ، أعْددْ لي من إبلي أجمالا ذُلُلا [2] سمانا ، فاحتبسها قريبا مني ، فإذا سمعتَ بجيش لمحمد قد وطيء هذه البلاد فآذنِّي ، ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة ، فقال : ياعديّ ماكنت صانعا إذا غشيَتْك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد ، قال : فقلت : فَقَرِّبْ إلي أجمالي فقربها ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحقُ بأهل ديني من النَّصارى بالشام فسلكتُ الجوْشية - ويقال : الحوشية فيما قال ابن هشام - وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر [3] فلما قَدمت الشام أقمتُ بها .

وتُخالفني خيلٌ لرسول الله ﷺ ، فتصيب ابنةَ حاتم ، فيمن أصابت ، فقُدم بها على رسول الله ﷺ في سبَايا من طيء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام ، قال : فجُعلَتْ بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبَسن فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت

(١) وهو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة .

(٢) جمع ذلول وهو الذي روض وذلل بالركوب عليه .

(٣) يعني في مكان إقامة قومه .

امرأة جزْلة(١)، فقالت : يارسول الله ﷺ ، هَلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليَّ منَّ الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت : عديّ بن حاتم ، قال : الفارّ من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني ، حتى إذا كان الغدُ مرَّ بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ماقال بالإمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست منه ، فأشار إليَّ رجل من خلفه أن قُومي فكلِّميه ، قالت : فقمت إليه ، فقلت : يارسول الله هَلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ منَّ الله عليك ، فقال ﷺ : قد فعلتُ ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنيني ، فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلمه ، فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وأقمت حتى قدم ركب من بليّ أو قُضاعة ، قالت : وإنما أريد أن آتيَ أخي بالشام ، قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، قد قَدم رهط من قومي ، لي فيهم ثقة وبلاغ قالت : فكساني رسول الله ﷺ ، وحَملني ، وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

قال عديّ : فو الله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرتُ إلى ظَعينة تَصُوبُ(٢) إليَّ تؤمُّنا قال : فقلت ابنةُ حاتم ، قال : فإذا هي هي . فلما وَقفت علي انسحَلَت(٣) تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقيَّة والدك عورتك ، قال : قلت : أي أخيَّة ، لاتقولي إلا خيرا ، فو الله مالي من عُذر ، لقد صنعتُ ماذكرت . قال : ثم نزلت

---

(١) أي عاقلة أصيلة الرأي .

(٢) أي امرأة على نا قتها تنحدر من أعلى .

(٣) أي أخذت تلوم وتشتم .

فأقامت عندي ، فقلت لها – وكانت امرأة حازمة – ماذا تَرَين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تَلْحَقَ به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تَذل في عز اليمن ، وأنت أنت ، قال : قلت : والله إن هذا للرأي .

قال : فخرجت حتى أقدم عَلَى رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل؟ فقلت : عديّ بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ ، فانطلق بي إلى بيته ، فو الله إنه لعامد بي إليه ، إذ لقيَتْه امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تُكلِّمه في حاجتها ، قال : قلت في نفسي والله ماهذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسولُ الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وَسادة من أدَم[1] محْشوةً ليفا ، فقذفها إليّ ، فقال : اجلسْ على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال : قلت في نفسي والله ماهذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه ياعديُّ بن حاتم ! ألم تك ركوسيا[2]؟ قال : قلت : بلى . قال : أو لم تكن تسيرُ في قومك بالمرْباع ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، قال قلت : أجل والله ، وقال : وعرفْتُ أنه نبي مُرْسل يعلم مايُجهل ، ثم قال : لعلك ياعديُّ إنما يمنعك من دُخول في هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فو الله ليوشكنّ المالُ أن يَفيض فيهم حتى لايوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوِّهم وقلة عددهم ، فو الله ليوشكنَّ أن

---

(١) هو بفتحتين الجلد .

(٢) الركوسية دين بين النصارى والصابئين – النهاية ٢/ ٢٥٩ – .

تسمع بالمرأة تخرج من القادسية[1] على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لاتخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم ، وايمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقُصور البيض من أرض بابل قد فُتحَت عليهم ، قال : فأسلمت .

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكوننَّ ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لاتخاف حتى تحجّ هذا البيت . وايمُ الله لتكونن الثالثة ، ليُفيضَنَّ الله المالَ حتى لايوجد من يأخذه [2] .

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه باختصار ، وجاء في رواية الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم : « أسلم تسلم - ثلاثا - قال قلت : إني على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت : بلى ، قال : فإن هذا لايحل لك في دينك ، قال : فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها [3] .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

أولا : معاملة رسول الله ﷺ الكريمة لأخت عدي بن حاتم حيث بقيت معززة مكرمة ، ثم كساها النبي ﷺ وأعطاها ماتتبلغ به في سفرها ، وقد كان النبي ﷺ أبقاها لترى حياة المسلمين وتصف لأخيها أخلاقهم ومعاملاتهم .

(١) في رواية الإمام أحمد « من الحيرة » .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) الفتح الرباني ٢١ - ١٩١ ، وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة - مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وأخرجه الإمام البخاري مختصرا رقم ٣٥٩٥ ، كتاب المناقب (٦/ ٦١٠) .

وقد كان لهذه المعاملة الكريمة أثر واضح في قدوم أخيها وإسلامه ، وقد كان النبي ﷺ يحرص دائمًا على اجتذاب سادة القبائل إلى الإسلام حتى يكسب بذلك أقوامهم .

ثانيًا : تخلُّق النبي ﷺ بمكارم الأخلاق العالية كان أقوى العوامل التي جذبت عدي بن حاتم إلى الإسلام ، فقد رأى من رسول الله ﷺ مَظهرين من مظاهر التواضع . . أولهما : وقوفه الطويل مع امرأة كبيرة السن تحدثه في حاجتها ، وثانيهما : جلوسه على الأرض وتقديمه الوسادة لضيفه ليجلس عليها .

وقد كان عدي وهو مقبل على رسول الله ﷺ يحمل في تصوره أنه أحد رجلين . . إما نبي ،أو ملك، لأن تبعية الناس له على هذا النطاق الواسع لاتكون إلا بأحد هذين العاملين ، فلما رأى تواضع النبي ﷺ البالغ انسلخ من ذهنه عامل الملك ، وبقي التصور الآخر وهو عامل النبوة .

وقد كان النبي ﷺ موفقا حينما انتقد عديًا في مخالفته للدين الذي يعتنقه ، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ الذي يعلم من دينه مالايعلمه الناس من حوله .

ثم لما تبين للنبي ﷺ أن عديا قد حصل عنده اليقين بنبوته تطرق إلى المعوقات التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم ، وماهم فيه من الفقر ، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين ، وكان عدي مندهشا لهذا الخبر ، لكنه قد ثبت له صحة نبوة رسول الله ﷺ وأنه لايقول إلا حقا فصدقه في ذلك ، كما أبان له ﷺ أن المال سيفيض حتى لايقبله أحد .

فلما زالت عن عدي هذه المعوقات وعلم أن وضع المسلمين آنذاك لن يستمر على ماهو عليه انقشعت عنه الحجب فأسلم حالاً .

وهكذا كان النبي ﷺ موفقا كل التوفيق في دعوته حيث كان خبيرا بأدواء النفوس ودوائها ، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها ، فكان يعامل كل إنسان بما يلائم علمه وفكره وماينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، حتى استطاع أن يجتذب أكابر الناس وسادتهم بالطرق التي يراها تؤثر فيهم وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجا .

ثالثًا : في انتقاد النبي ﷺ عديا في دينه السابق عبرة، فالرسول ﷺ لم ينتقد الدين نفسه مع كونه غير صحيح وقد نُسخ بالإسلام . . لم ينتقد الركوسية نفسها لأن عديا لم يكن مستقيما على ذلك الدين فكأنه لادين له .

ومن هنا نعلم بأن التدين الحقيقي ليس بمجرد الانتساب وإظهار الولاء، وإنما يكون بالاستقامة على تكاليف الدين وعدم سلوك مايناقضه .

وكما كان عدي على غير دين حقيقةً لأنه لم يستقم على ذلك الدين الذي انتسب إليه فكذلك من يظهر الانتساب للإسلام ولكن لايطبق أحكامه أو يرتكب مايناقضه فإنه لايكون مسلما حقا .

وكما كان عدي بكونه غير مستقيم على دينه السابق يعتبر دعاية سيئة لذلك الدين ومنفِّرا عن اعتناقه فكذلك من ينتسبون إلى الإسلام وسلوكُهم في هذه الحياة يتناقض مع أحكامه وآدابه ، فإنهم بذلك يصدون الناس عن الإسلام .

* * *

٥ - سرية جرير بن عبد الله إلى ذي الخَلَصة -

أخرج الإمام البخاري من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: « قال لي رسول الله ﷺ: ألا تُريحُني من ذي الخلصة؟ فقلتُ: بلى. فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنتُ لاأثبُتُ على الخيل، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ، فضرب يدهُ على صدري حتى رأيتُ أثرَ يده في صدري وقال: اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًّا، قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ.

وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نُصُبٌ تُعبد، يقال له الكعبة، قال: فأتاها فحرَّقها بالنار وكسَرَها.

قال: ولما قدم جريرٌ اليمنَ كان بها رجلٌ يستقسمُ بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسول رسول الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضربَ عنقك. قال: فبينما هو يضربُ بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرَنَّها ولتشهدن أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنُقك. قال: فكسرها وشَهدَ. ثم بعث جريرٌ رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرْطاةَ إلى النبي ﷺ يبشرهُ بذلك. فلما أتى النبي ﷺ قال: يارسول الله، والذي بعثك بالحق ماجئتُ حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ[١]، قال فبرَّك النبي ﷺ على خيل أحمسَ ورجالها خمس مرات» [٢].

---

(١) يعني أنها أصبحت سوداء من الحريق كالجمل الأجرب إذا طُلي بالقطران - فتح الباري ٨/ ٧٣ -.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٣٥٧ (٨/ ٧٠).

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة رقم ٢٤٧٦ (٤/ ١٩٢٥).

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : عبرة في بركة النبي ﷺ ودعائه ، حيث وضع يده على صدر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ودعا له بالثبات ، فأصبح جرير لايسقط من الخيل وكان قبل ذلك لايثبت عليها ، وهذا من شواهد نبوة رسول الله ﷺ .

ثانيًا : موقف لجرير بن عبد الله ومن معه من فرسان قبيلة أحمس حيث قاموا بتحطيم صنم « ذي الخَلَصة » وتحريقه ، وإقرار الإسلام في بلاد خثعم وبجيلة وإزالة معالم الجاهلية منها مثل الاستقسام بالأزلام .

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة صار يبعث البعوث لتحطيم الأصنام وإزالة معالم الجاهلية من بلاد العرب ، فتم تحطيم صنم العزى ومناة وسواع والحُمْس وذي الخلصة وغيرها من الأصنام الصغيرة، وذلك للقضاء على منابع الشرك وإقرار التوحيد .

* * *

مواقف وعبر

فى غـــزوة تبـــوك

١ - سبب غزوة تبوك وتجهيز الجيش لذلك -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : كانت الساقطة - وهم الأنباط - يقدمون المدينة بالدرمك [(١)] والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام ، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم ، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط ، فقدمت قادمة فذكروا أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرةً بالشام ، وأنَّ هرقل قد رَزَق أصحابه لسَنَة ، وأجلبت معه لَخْمٌ ، وجُذام ، وغَسَّان ، وعاملة . وزحفوا وقدّموا مُقدِّماتهم إلى البَلْقاء وعسكروا بها ، وتخلَّف هرَقْل بحمْص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شيءٌ قيل لهم فقالوه . ولم يكن عدوٌّ أخوف عند المسلمين منهم ، وذلك لما عايَنوا منهم - إذ كانوا يقدمون عليهم تُجارًا - من العُدَد والعُدَّة والكُراع [(٢)] .

وكان رسول الله ﷺ لايغزو غزوةً إلاَّ ورّى بغيرها . لئلاَّ تَذهب الأخبار بأنَّه يُريد كذا وكذا ، حتى كانت غزوة تَبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سَفَرًا بعيدًا ، واستقبل غُزّى وعَدَدًا كثيراً ، فجلَّى للناس أمْرهم ليتأهبوا لذلك أهْبَةَ غزوهم ، وأخبر بالوجه الذي يُريد .

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلمَ بُرَيدة ابن الحُصَيب وأمره أن يبلغ الفُرْع . وبعث أبا رُهم الغفاريّ إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد الليثي في قومه ، وخرج أبو الجَعْد الضَّمْريّ في قومه بالساحل ، وبعث رافع بن مكيث ،

(١) الدرمك الدقيق الأبيض .

(٢) أي الخيول .

وجُنْدُب بن مكيث في جُهَينة ، وبعث نُعَيم بن مَسعود في أشْجَع ، وبعث في بني كعب بن عمرو بُدَيل بن ورْقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر ابن سفيان ، وبعث في سُليم عدة ، منهم العبّاس بن مرداس[1] .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩٠ .

٢ - مواقف عالية للصحابة في الإنفاق -

أخرج الإمام أبو داود من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله ﷺ يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالاًعندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ماعنده، فقال له رسول الله ﷺ: ماأبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا (١).

وأخرجه الإمام الترمذي من حديث زيد بن أسلم عن أبيه وذكر مثله. وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢).

وذكره الواقدي ضمن خبر عن إنفاق الصحابة في تجهيز جيش تبوك، وذكر فيه أيضاً إنفاق العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي، رضي الله عنهم (٣).

ومما جاء في إنفاق عثمان رضي الله عنه على ذلك الجيش ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث عبد الرحمن بن خُباب قال: شهدتُ النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على

---

(١) سنن أبي داود، الزكاة، رقم ١٦٧٨(٢/ ٣١٢ - ٣١٣).

(٢) سنن الترمذي، المناقب، رقم ٣٦٧٥(٥/ ٦١٤ - ٦١٥).

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٣٩١.

الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يارسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يارسول الله عليَّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزلُ عن المنبر وهو يقولُ : ماعَلَى عثمان ماعَمل بعد هذه ، ماعَلَى عثمان ماعَملَ بعد هذه .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه لانعرفهُ إلا من حديث السكن بن المغيرة (١) .

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد - واللفظ له - والترمذي من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال : جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال : فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول : ماضرَّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم - يرددها مراراً - (٢) .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : ماقام به رسول الله ﷺ من جمع المسلمين وحثهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، وكان النبي ﷺ يقوم بذلك في حال احتياج المسلمين ، إما لتجهيز جيش كبير كجيش تبوك ، وإما لجائحة وقعت على بعض المسلمين .

وبهذه الطريقة كان يتم تجهيز الجيوش وتأمين المال اللازم لذلك .

لقد كان ذلك يتم بكلمات معدودات يستثير بها النبي ﷺ المشاعر

---

(١) سنن الترمذي ، المناقب رقم ٣٧٠٠ (٥/ ٦٢٥- ٦٢٦) .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٦٣ ، سنن الترمذي المناقب رقم ٣٧٠٢ (٥/ ٦٢٦) .

ويستنهض بها الهمم فتتشوق قلوب المؤمنين إلى بلوغ أعلى الدرجات من الإيمان ، وذلك لما ينفقونه من أموالهم في سبيل الله تعالى .

وبهذا يكون النبي ﷺ قد جمع بين أمرين :

الأول : الحصول على المال الذي به يتم تجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى، والثاني : دفع المؤمنين إلى التنافس في أداء هذه العبادة المهمة وهي الإنفاق في سبيل الله جل وعلا عن طواعية ورغبة في رضوان الله سبحانه والدار الآخرة ، ولو أنه فرض على جميع المؤمنين مبلغا معينا ولو كان زهيدا فإنه يحصل الأمر الأول وهو الحصول على المال الكافي ولكن يتخلف الأمر الثاني وهو أداء هذه العبادة العظيمة .

كما أن هذه السنة النبوية يترتب عليها أمر مهم وهو ظهور أهل الإيمان القوي على مراتبهم في ذلك ليكونوا بعد ذلك موضع الثقة في إسناد الأمور المهمة إليهم حسب كفاءاتهم ، وليكونوا بهذا البذل السخي قدوة صالحة لمعاصريهم ، وللأجيال التي تأتي بعدهم .

وهذه السنة النبوية لم تقتصر على حث المسلمين على الإنفاق على الغزاة في سبيل الله تعالى ، ولكنها تجاوزت ذلك إلى حث المسلمين على الإنفاق لإنقاذ المعوزين والفقراء من المسلمين ، ومما يبين ذلك ما أخرجه الإمام مسلم والنسائي من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : « كنا في صدر النهار مع رسول الله ﷺ فجاءه قوم عراة مجتابي النمار (١) أو العباء ، مُتَقَلِّدي السيوف ، عامتهم من مضر - أو كلهم من مضر - فتمعَّر وجه النبي ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم

---

(١) أي لابسي النمار وهي ثياب مخططة من مآزر الأعراب .

خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كُومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلَّل كأنه مُذْهَبَه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (١).

وهكذا رأينا كيف استطاع النبي ﷺ ببلاغته العالية وحكمته الفائقة أن يستخرج من الأغنياء والمتوسطين مايرفع به من مستوى الفقراء ويسد خلتهم.

ثانيا: موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما جاء بما له كله وأنفقه في سبيل الله تعالى، وهو بهذا يعتبر أعظم المتصدقين، وإن المتأمل ليعجب كيف تصدق بماله كله، ألا خطر بباله احتياج أهله في غيابه؟! ثم ألا خطر بباله احتياجه إلى المال في المستقبل؟! بلى، سيخطر بباله ذلك كأي بشر، ولكنَّه وأمثاله من الكمَّل يرتِّبون الأمور

(١) صحيح مسلم، الزكاة، رقم ١٠١٧ (ص ٧٠٤ - ٧٠٥)، سنن النسائي، الزكاة ٥/ ٧٥.

حسب أولوياتها ، وقد رأى بثاقب بصره الموجَّه من إيمانه القوي أن حاجة المسلمين الطارئة أولى من حاجته وحاجة أهله المستقبلية .

وقد ساعده على تقرير هذا القرار الذي يعتبر كبيرا في حياة الناس قوة ثقته بالله عز وجل بأن الرزق بيده ، وعظيم أمله بأنه تعالى لن يضيع أولياءه ، ثم ساعده على ذلك ما أخذ به نفسه وأهله من حياة الزهد والتقشف ، فليس عنده وأمثاله من النفقة الضرورية إلا اللباس ويكفيهم منه القديم وإن اخلولق ، والطعام ويكيفهم كمية من التمر والشعير وإن قل ذلك .

فهذه النفقة هي التي تدخل في عداد الضروريات أما ماعدا ذلك فإنه أمر كمالي تُقدَّم عليه حاجة المسلمين العامة الماسَّة آنذاك .

إن أبا بكر وهو يحمل ذلك المال الذي لايملك غيره لينفقه في سبيل الله تعالى كان يحمل همَّ دولة الإسلام الفتيَّة التي هددها الروم وعرب الشام ، فلنفرض جدلاً أن أبا بكر شحَّ بماله فلم يُخرج منه إلا القليل وأن الآخرين فعلوا مثل ذلك ولم يتمكن رسول الله ﷺ من تجهيز ذلك الجيش الضخم الذي أرهب الأعداء ، وأن الأعداء استهانوا بالمسلمين فغزوهم في عقر دارهم واكتسحوا بلادهم . . لنفرض أن ذلك وقع هل سينفع أبا بكر ماله الذي أعده للمستقبل وهل ستنفع الآخرين أموالهم ! .

إن فهم أبي بكر كان عظيمًا ولايعتبر متهوراً حينما أنفق ماله كله ولايعتبر بذلك قد ضيع أهله ومن يعولهم ، لأن التهور الكبير والضياع الخطير إنما هو بإمساك المال الذي قد يؤدي إلى هلاك الأمة ودمارها على يد الأعداء .

ثالثًا : موقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يبلغ نهاية الكمال مثل أبي بكر رضي الله عنه ، لكنه حاز درجة عليا من الكمال حيث أنفق نصف ماله ، ولو يشعر بأن تجهيز الجيش سيتوقف على بقية ماله لم يبخل به .

وموقف آخر يذكر له وهو اعترافه لأبي بكر بالفضل لسبقه وتقدُّمه عليه في الأعمال الصالحة ، والاعتراف للآخرين بالفضل والتقدم في مجال التنافس على الخير دليل على تجرد الإنسان من حظ النفس والتحكم في الهوى .

رابعًا : مواقف لعدد من الصحابة الأغنياء جاؤوا بأموال كثيرة سدوا بها حاجة كثير من المسلمين الضعفاء ومكنوا النبي ﷺ من الاستمرار في تجهيز الجيش ، وقد ذكر الواقدي في روايته أسماءهم رضي الله عنهم .

خامسًا : الموقف الكبير المدهش الذي أثار إعجاب النبي ﷺ وسروره البالغ وهو ماقدمه ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه من مال كثير جهز به النبي ﷺ جيش العسرة حتى عُرف عثمان بمجهِّز جيش العسرة ، ولقد تنوعت نفقته ، مابين مال نقدي وتجهيز للإبل التي تحمل المجاهدين تجهيزا كاملاً .

وهنا وفي مثل هذه الحال يظهر فضل الأغنياء المنفقين ، الذين بذلوا جهودًا كبيرة في التجارة لا من أجل جمع المال وكنزه لتكون المائة مائتين والألف ألفين وإنما ليكونوا بأموالهم رصيدا لاحتياج أمتهم ، فإذا هُدِّدت دولة الإسلام من الأعداء أو أصيب المسلمون بجوائح كانوا موئل

المحتاجين وأمل المتضررين ، والدرع الواقية للأمة بتجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى .

لقد ذكر العلماء أن العبادات المتعدية التي يتعدى نفعها للمسلمين أفضل من العبادات الخاصة التي يقتصر نفعها على فاعلها وذلك في مجال النوافل ، وإن من أهم العبادات المتعدية الإنفاق في سبيل الله تعالى وما يسبق ذلك من استثمار المال وتنميته من أجل هذا الهدف النبيل .

* * *

٣ - موقف لعبد الله بن الجَدِّ بن قيس -
(امتناع الجد بن قيس من الخروج)

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وقال رسول الله ﷺ للجَدّ بن قيس : أبا وهب ، هل لك العامَ تخرج معنا لعلَّك تَحْتَقب من بنات الأصفر؟ فقال الجَدّ : أو تأذن لي ولاتَفْتنِّي ؟ فو الله ، لقد عرف قومي ما أحدٌ أشدّ عُجْبًا بالنساء منِّي ، وإنِّي لأخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر لاأصبر عنهنَّ . فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك ! فجاءَه ابنه عبد الله بن الجَدّ - وكان بَدْريًا ، وهو أخو مُعاذ بن جَبل لأمه - فقال لأبيه : لمَ تَردّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالا منك ، ولاتخرج ولاتحمل أحدًا ! قال : يابُني ، مالي وللخروج في الريح والحرّ والعُسْرة إلى بني الأصفر ؟ والله ، ما آمن خوفًا من بني الأصفر وإنِّي في منزلي بخُرْبَى ، فأذهبُ إليهم فأغزوهم ، إني والله يابني عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له ابنه ، فقال : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلنَّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ يقرؤونه . قال : فرفع نعْله فضرب بها وجهه .

فانصرف ابنه ولم يُكلِّمه ، وجعل الخبيث يُثبِّط قومه ، وقال لجَبّار ابن صخر ونفر معه من بني سَلمَة : يابني سلمة لاتَنفروا في الحرّ ، يقول : لاتخرجوا في الحرّ زهادةً في الجهاد ، وشكًّا في الحقّ ، وإرجافًا برسول الله ﷺ ، فأنزل الله عزَّ وجلّ فيه : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) . وفيه نزلت : ﴿ وَمِنْهُم مَّن

(١) التوبة / ٨١ - ٨٢ .

يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١) الآية ، أي كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذَّر بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بتخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه . يقول الله عز وجل : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يقول : إنَّ جهنَّم لَمنْ ورائه ، فلما نزلت هذه الآية جاءَ ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنَّه سوف ينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ؟ قال : يقول : أبوه : اسكتْ عني يا لُكَعُ ! والله لاأنفعك بنافعة أبدًا ! والله لأنت أشدُّ عليّ من محمد!(٢) .

في هذا الخبر موقف لعبد الله بن الجَدِّ بن قيس رضي الله عنه حيث وقف لأبيه الذي أظهر نفاقه في أيام تجهيز جيش تبوك وأخذ يثبط الناس عن الخروج للجهاد ، فلامه ابنه عبد الله وشدد عليه وحذره من نزول القرآن بفضيحته ، وقد تحمل من أبيه الضرب على وجهه بالنعل ، فذلك من الأذى في سبيل الله تعالى .

ثم لما استمر عبد الله في لوم أبيه وتعنيفه أقسم أبوه أن لاينفعه بشيء من المال وهو يظن أن ذلك سيؤثر عليه ، ولكن النفوس المؤمنة لاتبالي بالدنيا كلها إذا ذهبت في سبيل خدمة الدين وإرضاء الله تعالى ورسوله ﷺ .

* * *

---

(١) التوبة / ٤٩ .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩٢ – ٩٩٣ .

٤ - مثل من رغبة الصحابة في الجهاد مع عذرهم بالفقر -

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسألهُ الحُملان لهم إذ هم معه في جيش العُسرة وهي غزوةُ تبوك ، فقلت : يانبيَّ الله إنَّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملَهم ، فقال : والله لا أحملكم عَلَى شيء . ووافقته وهو غضبانُ ولا أشعُر ، ورجعتُ حزينًا مع منع النبيِّ ﷺ ومن مخافة أن يكون النبيُّ ﷺ وجد في نفسه عليّ ، فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهمُ الذي قال النبي ﷺ ، فلم ألبثْ إلا سوُيعة إذ سمعتُ بلالاً ينادي : أي عبد الله بن قيس ، فأجبتهُ ، فقال : أجب رسول الله ﷺ يدعوك ، فلما أتيتهُ قال : خذ هذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهنَّ إلى أصحابك فقل : إنَّ الله - أو قال : إنَّ رسول الله ﷺ - يحملكم على هؤلاء ، فاركبوهن ، فانطلقتُ إليهم بهنّ فقلت : إنَّ النبي ﷺ يحملكم عَلَى هؤلاء ، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لاتظنوا أني حدَّثتُكم شيئًا لم يقُله رسول الله ﷺ ، فقالوا لي : إنك عندنا لَمصدَّق ، ولنفعلنَّ ما أحببتَ ، فانطلقَ أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قولَ رسول الله ﷺ ، مَنْعَهُ إياهم ثم اعطاءهم بعدُ ، فحدَّثوهم بمثل ماحدَّثهم به أبو موسى »(١) .

في هذا الخبر مثل من شوق الصحابة رضي الله عنهم إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فهؤلاء الذين لايجدون مايحملهم معذورون في

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٤١٥ (٨/ ١١٠) .

القعود، ولكنهم لشوقهم إلى الجهاد يطلبون من النبي ﷺ أن يوفر لهم الإبل التي تحملهم ، وقد يسَّر الله تعالى لهم ذلك ، وتحققت أمانيهم في الخروج للجهاد .

* * *

٥ – مثل من الشوق البالغ إلى الجهاد –
(خبر البكائين)

قال ابن إسحاق : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم . . وذكر أسماءهم إلى أن قال : فاستحملوا (١) رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لايجدوا ماينفقون (٢) .

وأخرجه الواقدي عن شيوخه وذكر نحوه ، وذكر أن اثنين منهم حملهما يامين بن عمير النضري على جمل له وزودهما كل واحد صاعين من تمر ، وأن اثنين منهما حملهما العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وأن بقيتهم وهم ثلاثة حملهم عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣) .

وقد نزل في هؤلاء البكائين قول الله تعالى ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

هؤلاء السبعة من الفقراء الذين لايجدون مايركبون عليه من الإبل ليخرجوا مع المسلمين ، وهم معذورون في تخلفهم لعدم تمكنهم من

---

(١) أي طلبوا منه أن يحملهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٠ .

(٣) المغازي للواقدي ٣/ ٩٩٣ – ٩٩٤ .

الخروج ، ولكن الشوق البالغ يحدوهم إلى الخروج ، وحب الجهاد الذي خالط دماءهم يدفعهم إلى محاولة الحصول على مايحملهم ، ولكن النبي ﷺ يعتذر منهم لأن كل ما حصل عليه من مال وإبل أعطاه للمجاهدين .

وينصرف هؤلاء من عند النبي ﷺ وقلوبهم في حسرة على ترك الجهاد وأسف على القعود عن إخوانهم المجاهدين ، ولقد كان الأسى شديداً على قلوبهم ، الأمر الذي عبروا عنه بالدموع الغزيرة التي فاضت من أعينهم ، ولكن الله تعالى يسَّر أمرهم حيث حصلوا من أهل المعروف والإحسان على ما يحملهم مع إخوانهم المجاهدين .

* * *

٦ – موقف لعُلْبة بن زيد بن حارثة من البكائين –

ذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مندة روى من حديث أبي عيسى بن جبر قال : كان علبة بن زيد بن حارثة رجلا من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حض على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وماعنده ، فقال علبة ابن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك ، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة ؟ فقام علبة ، فقال : « قد قُبلتْ صدقتك » .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عدة طرق لهذا الخبر ، ثم ذكر أن له شاهدًا صحيحًا إلا أنه لم يُسَمَّ فيه (١) .

في هذا الخبر مثل من الحب الكبير للعمل الصالح الذي يتنافس فيه المتنافسون من السابقين إلى الخيرات ، فقد كان الصحابة يتنافسون في الصلاة والذكر والصيام وغير ذلك من الأعمال الصالحة المتيسرة لهم ، ولكن حينما جاء التنافس في الإنفاق في سبيل الله صار فرسان الحلبة فيه هم الأغنياء والمتوسطون وقعد عنه الفقراء ، فلما رأى ذلك علبة بن زيد وهو من الفقراء تاقت نفسه للإنفاق ليُسْهم في هذا العمل الصالح الذي حث عليه النبي ﷺ ولكن لم يكن في مقدوره ذلك فدعا بهذا الدعاء العجيب « اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك » .

وهكذا يبلغ حب الخير والتنافس فيه عند هذا الصحابي الجليل حدا شغل تفكيره حتى كان يفكر به في الليل ولقد تفتق ذهنه من ألم الحرقة

---

(١) الإصابة ٢/ ٤٩٣ .

وكثرة التفكير في هذا الأمر إلى أن يتصدق بعرضه على من ناله من عباد الله تعالى .

لقد تصدق بشيء مَا ولكن هل تقبل هذه الصدقة ؟ وهل يكون في عداد السابقين بالخيرات الذين بذلوا من أموالهم ؟ هذا مارجاه علبة بن زيد ، وهذا هو الذي كان في ميسوره .

ولقد كان الأمر من الأهمية بحيث نزل فيه الخبر من السماء على رسول الله ﷺ حيث بشَّر علبة بأن صدقته تلك قد قبلها الله تعالى .

* * *

٧ - صبر الصحابة على الشدائد ومعجزة لرسول الله ﷺ -

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة أو عن أبي سعيد رضي الله عنهما (شَكَّ الأعمشُ) قال : لما كان غزوة تبوك ، أصاب الناس مجاعةٌ. قالوا : يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[١] فأكلنا وادَّهنَّا . فقال رسول الله ﷺ « افعلوا » قال فجاء عمر ، فقال : يارسول الله ! إن فعلتَ قَلَّ الظهرُ[٢] . ولكن ادعُهُم بفضل أزوادهم . ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة . لعل الله أن يجعل في ذلك[٣] . فقال رسولُ الله ﷺ « نعم » قال فدعا بنطع[٤] فبسطه . ثم دعا بفضل أزوادهم .

قال : فجعل الرجل يجيءُ بكفِّ ذُرَة . قال ويجيءُ الآخرُ بكفِّ تمر . قال ويجيءُ الآخرُ بكسرة . حتى اجتمع على النطع من ذلك شيءٌ يسيرٌ . قال فدعا رسولُ الله ﷺ عَلَيه بالبركة . ثم قال « خذوا في أوعيتكم» قال فأخذوا في أوعيتهم . حتى ماتركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه . قال فأكلوا حتى شبعُوا . وفضلت فضلةٌ . فقال رسولُ الله ﷺ « أشهد أن لا إله إلا اللهُ ، وأني رسولُ الله . لايَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ، غير شاكٍّ ، فيُحجبَ عن الجنَّة »[٥] .

في هذين الخبرين بيان شيء مما كان يعاني منه الصحابة رضي الله عنهم من الشدائد ، حيث تعرضوا للجوع الشديد والعطش الشديد مع

(١) يعني الإبل ، والأصل فيها الإبل التي يستقى عليها .

(٢) أي الدواب التي تركب ، سميت ظهرا لكونها يركب ظهرها .

(٣) يعني بركة ، حذف المفعول به لظهوره .

(٤) أي ببساط من جلد .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم ٤٥ (١/ ٥٦- ٥٧) .

مـايعـانونه من حـرارة الجو ، ولـم يكن رسـول الله ﷺ من هـذه الشـدائد بمعـزل ، ولـم يكن يفـضل نفسـه عليـهم بشيء من أمـور الدنيا ، بـل كـان يقـاسي من شدة الحـرِّ مـايقـاسـون ، ويجـوع كـمـا يجـوعـون ويعطش كـمـا يعطشـون ، وكـان هذا يخفف على الصحابة بعض ما يقـاسـون ، إذ أنهم ينسـون أنفسـهـم فـي جـانب النبي ﷺ الذي يفـدونه بأرواحـهـم وجـميع مـا يملكون ، إلى جانب مايعتقدون به من احتساب الأجر عند الله تعالى .

وفي هذين الخبرين معجزة للنبي ﷺ وذلك في تكثير الطعام ببركة دعـائه ، وإن في هذه المعـجـزة وغـيـرهـا من مـعـجـزات النبي ﷺ عبـرة للمعتبرين وآيات عظيمة للمستبصرين .

* * *

٨ - مثل من انتصار الإيمان على هوى النفس -

(خبر أبي خيثمة)

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حارّ ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[1] ، قد رشت كلٌّ واحدة منهما عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيأت له فيه طعاما فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وماصنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضِّح [2] والريح والحرّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد ، وطعام مُهيَّأ وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ماهذا بالنَّصَف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فَهَيِّئَا لي زادا ، ففعلتا ، ثم قدَّم ناضحه[3] فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تَبوك ، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجُمحي في الطريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لي ذنبا ، فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مُقبل ، فقال رسولُ الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : أولى لك يا أبا خيثمة[4] . ثم أخبر رسول

---

(١) أي بستانه .

(٢) أي في الشمس .

(٣) أي جمله

(٤) أي أجدر بك .

الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لَمَّا رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكْرما

وبايعتُ باليُمنَى يدي لمحمَّد فلم أكتسبْ إثمًا ولم أغْشَ مَحْرما

تركتُ خَضيبًا في العريش وصرْمةً صفايا كرامًا بُسْرُها قد تحمَّما(١)

وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسمحتْ إلى الدين نفسي شطره حيثُ يَمَّما(٢)

في هذا الخبر صورة من محاسبة النفس في حال حضور القلب ويقظة الضمير ، فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة فتذكر رسول الله ﷺ وماهو فيه من التعرض للشمس والريح والحر فأبصر وتذكر وتيقَّظ ضميره وحاسب نفسه ، ثم عزم على الخروج ، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي ولعله كان قادما من مكة .

هذه الصورة تبين لنا مثلا من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيمانا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [**الأعراف** : ٢٠١] .

---

(١) خضيبا عنى به امرأته أي مخضبة ، وصرمة أراد بها النخل المصروم أي المجدود، وصفايا جمع صفي وهو المنتقى المختار، وتحمم أي قرب وقت إرطابه .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٤ – ٢٠٦ .

لقد تذكر أبو خيثمة رسول الله ﷺ الذي كان في شعوره أنه يحبه أكثر مما يحب نفسه ، ولكن ماباله هذه المرة يُؤثر نفسه بالراحة والمتعة ورسول الله ﷺ يقاسي الشدائد ؟ !

لقد تذكر سريعًا وخرج لعله يدرك مافاته ، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره .

* * *

٩ - مثل من قوة الإيمان وتحمل الشدائد -
(خبر أبي ذر الغفاري)

أخرج الإمام البيهقي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لايزال يتخلفُ الرجلُ ، فيقولون : يارسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه إن يك فيه خير فسيلحقهُ الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه حتى قيل : يارسول الله تخلف أبو ذر ، وابطأ به بعيرهُ ، فقال : دعوه إن يك فيه خيرٌ فسيلحقهُ الله بكم ، وإن كان غير ذلك فقد أراحكم منه ، فيلزم أبو ذر بعيره فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيًا ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله ، ونظر ناظرٌ من المسلمين ، فقال : يارسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم ، قالوا : يارسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ « يرحم الله أبا ذرٍّ يمشي وحده ، ويموتُ وحده ، ويُبعث وحده » .

فضرب الدهر من ضربه(١) ، وسُيِّر أبو ذر إلى الرَّبذة ، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه : إذا متُّ فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرُّون بكم فقولوا : هذا أبو ذر .

فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركبٌ فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة ، فقال : ماهذا فقيل : جنازة أبي ذر ، فاستهل ابن مسعود يبكي ، فقال : صدق

---

(١) هذا من قول الرواي عن ابن مسعود وهو محمد بن كعب القرظي .

رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا ذر ! يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

فنزل فوليَه بنفسه حتى أجنَّهُ(١) .

في هذا الخبر مثل مما تعرض له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقواه بالصبر عليها ، لقد بذل أبو ذر جهداً كبيراً في المشي على قدميه وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين وهم نازلون في أحد منازل السفر .

وفي هذا الخبر عبرة من إخبار الرسول ﷺ عن أبي ذر بأنه يموت وحده، وقد مات وحده ليس معه أحد من أصحابه .

كما أن فيه دلالة على علم ابن مسعود رضي الله عنه وقوة ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سيئول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته رضي الله عنه .

* * *

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٢١ - ٢٢٢ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٠ - ٢١٢ .

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وصححه ، وقال الذهبي : فيه إرسال - المستدرك ٣/ ٥٠ - ٥١ - .

١٠ - معجزة لرسول الله ﷺ ومثل من قسوة قلوب المنافقين -

قال الواقدي : حدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن يونس بن يوسف ، عن عُبيد بن جُبير ، عن أبي سعيد الخدري قال : رأيت رسول الله ﷺ أوضَع راحلته حتى خلَّفها . قال : وارتحل رسول الله ﷺ لما أصبح ولا ماءَ معهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ على غير ماء .

قال عبد الله بن أبي حدْرَد : فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة فدعا - ولا والله ما أرى في السماء سحابًا - فما برح رسول الله ﷺ يدعو حتى إنِّي لأنظر إلى السَّحاب تأتلف من كل ناحية ، فما رام مقامه حتى سحَّتْ علينا السماء بالرَّواء (١)، فكأني أسمع تكبير رسول الله ﷺ في المطر . ثم كشف الله السماء عنا من ساعتها وإن الأرضُ إلا غُدُرٌ تناخسُ (٢) ، فسقى الناس وارتووا عن آخرهم ، وأسمع رسول الله ﷺ يقول : أشهدُ أني رسول الله ! فقلت لرجل من المنافقين : ويحك ، أبَعْدَ هذا شيٌ ؟ فقال : سحابةٌ مارّة ! وهو أوس بن قَيْظي (٣) .

وأخرج الإمام البيهقي نحوه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا من شأن ساعة العُسرة ، فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إنْ كان

---

(١) أي الماء الكثير .

(٢) أي يصب بعضها في بعض .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ١٠٠٨ - ١٠٠٩ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكره نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ١٠٨ .

الرجل لينحر بعيره فيعصرُ فرثهُ فيشربه، ويجعل مابقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يارسول الله ! إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا ، قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلتْ ثم سكبت فملؤوا مامعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازوت العسكر(١) .

ويحتمل أن يكون الخبران لواقعة واحدة وروى كل صحابي بعض الخبر ويحتمل أنهما واقعتان ، وفيهما معجزة ظاهرة للنبي ﷺ في نزول المطر بشكل مفاجيء ببركة دعائه ، وقد فهم الصحابة من ذلك أنه عبرة لأولي الأبصار ففي آخر الخبر الأول يخاطب عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه أحد المنافقين ويقيم عليه الحجة بذلك على صحة رسالة رسول الله ﷺ ولكن المنافقين قد طبع الله على قلوبهم فلا يتذكرون ولايعتبرون .

* * *

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٣١ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات -مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ - ١٩٥ - .

١١ – مثل من صبر رسول الله ﷺ على أذى المنافقين – (خبر زيد بن اللُّصَيت)

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، يُقال له عمارة بن حزم ، وكان عَقَبيًا بدْريًا ، وهو عمُّ بني عمرو بن حزم ، وكان في رَحله زيدُ بن اللُّصَيت القَيْنقاعي ، وكان منافقًا (١) .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، ، عن رجال من بني عبد الأشهل ، قالوا : فقال زيد بن اللُّصَيت ، وهو في رحل عُمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعمُ أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لايدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : إن رجلا قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيّ ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لايدري أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها ، فذهبوا ، فجاؤوا بها . فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لعَجَبٌ من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا ، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا ، للذي قال زيدُ بن لُصيت ، فقال رجل ممن كان في رحل عُمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي ، فأقبل عُمارة على زيد يُجافي عُنقه ويقول : إليّ عباد الله ، إنّ في

(١) قال ابن هشام : ويقال : ابن لُصيب بالباء .

رحلي لـداهيـةً ومـا أشـعـر ، اخـرُج أيْ عـدوّ الله من رحلي ، فـلا تصحَبني (١) .

وهكذا كان المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ ويغتنمون أي فرصة تمر بهم لمحاولة التشكيك في صحة رسالته وخاصة اليهود منهم كهذا الرجل الذي قال هذه المقالة وهو زيد بن اللصيت القينقاعي ، فقد أسلم هذا وأمثاله نفاقا ليكيد للمسلمين من داخل صفوفهم ، وكان النبي ﷺ يصبر على أذاهم ولا يعاملهم معاملة الكفار لاعتبارات دعوية مر ذكرها في غزوة بني المصطلق عند قوله ﷺ « لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٣/ ١٠٠٩ - ١٠١٠ - .

١٢ – معجزة لرسول الله ﷺ وموقف سيء للمنافقين –

أخرج الإمام مسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك . فكان يجمعُ الصلاة . فصلى الظهر والعصر جميعًا . والمغرب والعشاء جميعًا . حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة . ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا . ثم دخل ثم خرج بعد ذلك . فصلى المغرب والعشاء جميعًا . ثم قال « إنكم ستأتون غدًا – إن شاء الله – عين تبوك . وإنكم لن تأتوها حتى يُضحى النهارُ . فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي » فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان . والعين مثل الشراك تَبضُّ[(١)] بشيء من ماء . قال فسألهما رسولُ الله ﷺ « هل مسستُما من مائها شيئًا ؟ » قالا : نعم . فسبهما النبيُّ ﷺ ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول . قال ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا . حتى اجتمع في شيء . قال وغسل رسولُ الله ﷺ فيه يديه ووجههُ . ثم أعاده فيها . فجرت العينُ بماء مُنهمر – أو قال غزير شكَّ أبو عليّ أيهما قال – حتى استقى الناس . ثم قال « يُوشكُ يامعاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ماههنا قد مليءَ جنَانًا » [(٢)] .

وهذا الخبر أيضًا يشتمل على موقف سيء للمنافقين حيث خالف رجلان منهم أمر رسول الله ﷺ .

كما أن فيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث كانت عين تبوك ضعيفة جدًا ، فجمع الصحابة من مائها شيئًا فشيئًا حتى اجتمع قليل من الماء

---

(١) الشراك هو سير النعل ، وتَبضُّ أي تسيل .

(٢) صحيح مسلم ، الفضائل ، رقم ٧٠٦ (ص ١٧٨٤) .

فغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت بماء غزير أصبح يكفي لثلاثين ألف من المسلمين .

وإن في هذا لعبرة للمعتبرين وموعظة للمستبصرين .

* * *

١٣ – إسلام ذي البجادين وجهاده –

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : وكان عبد الله ذو البجادين(١) من مُزينة ، وكان يتيمًا لا ماله له ، قد مات أبوه فلم يُورثه شيئًا ، وكان عمه مَيِّلاً(٢) ، فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر ، فكانت له إبلٌ وغَنَمٌ ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعلتْ نفسهُ تتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمّه ، حتى مضت السنون والمشاهدُ كلُّها .

فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة ، فقال عبد الله لعمّه : ياعمّ ، قد انتظرتُ إسلامك فلا أراك تُريد محمداً ، فائذن لي في الإسلام ، فقال : والله ، لئن اتبعتَ محمداً لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعتهُ منك حتى ثَوْبَيك . فقال عبد العُزَّى ، وهو يومئذ اسمه : وأنا والله مُتبع محمداً ومُسلم ، وتاركٌ عبادة الحجر والوَثَن ، وهذا ما بيدي فخُذْهُ ، فأخذ كلَّ ما أعطاه ، حتى جرده من إزاره ، فأتى أمه فقطعت بجاداً لها باثنين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر .

ثم أقبل إلى المدينة وكان بوَرقان – جبل من حمى المدينة – فاضطجع في المسجد في السحر ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح ، وكان رسول الله ﷺ يتصفَّح الناس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه فأنكره ، فقال : من أنت ؟ فانتسب له ، فقال : أنت عبد الله ذو البجادَيْن ثم قال : انزل منِّي قريبًا . فكان يكون في أضيافه ويعلِّمه القرآن ، حتى قرأ قرآنًا كثيراً ، والناس يتجهَّزون إلى تَبُوك ، وكان رجلاً صَيِّتًا ، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فقال عمر : يارسول الله ، ألا تسمع إلى هذا

(١) البجاد : الكساء الغليظ الجافي ، كما ذكر ابن هشام . (السيرة النبوية ٤/ ٢١٩) .

(٢) أي ذا مال .

الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة ؟ فقال النبي ﷺ : دعهُ ياعمر فإنه خرج مُهاجراً إلى الله ورسوله .

قال : فلما خرجوا إلى تبوك قال : يارسول الله ، ادعُ الله لي بالشهادة . قال : أبلغني لحاءَ[1] سَمُرة . فأبلغه لحاءَ سمُرةَ ، فربطها رسول الله على عَضُده وقال : اللهم إني أحرم دمه على الكفار ! فقال : يارسول الله ،ليس أردتُ هذا . قال النبي ﷺ : إنَّك إذا خرجت غازيًا في سبيل الله فأخذتك الحُمَّى فقتلتك فأنت شهيد ، ووَقَصَتْك دابتُك فأنت شهيد ، لاتُبال بأيَّة كان . فلما نزلوا تَبوكًا فأقاموا بها أيّامًا تُوفِّي عبد الله ذو البجادين . فكان بلال بن الحارث يقول : حضرتُ رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شُعلةٌ من نار عند القبر واقفًا بها ، وإذا رسول الله ﷺ في القبر ، وإذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يُدليانه إلى النبي ﷺ وهو يقول : أدنيا إليّ أخاكما . فلما هيّاه لشقه قال : اللهم إنِّي قد أمسيت عنه راضيًا فارضَ عنه . قال : فقال عبد الله بن مسعود : ياليتني كنت صاحب اللَّحْد[2] .

في هذا الخبر موقف لعبد الله ذي البجادين رضي الله عنه ، وذلك فيما تحمَّله من أجل دخوله في الإسلام حيث سُلبَ ماله كله حتى ثيابه .

لقد وقع بين خيارين : إما أن يدخل في الإسلام ويذهب منه كل شيء من الدنيا ، وإما أن يبقى على الكفر وتبقى له حياته التي يعيش فيها و كل ما يملكه .

---

(١) أي قشرها .

(٢) مغازي الواقدي ٣/ ١٠١٣ - ١٠١٤ .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٨ - ٢١٩ - .

ولكنه لقوة إيمانه وصدق توجهه لم يتردد بين الخيارين بل عزم على الإسلام وإن فقد كل شيء .

لقد هاجر هذا الشاب إلى المدينة وكانت له مكانة عند رسول الله ﷺ لَما قدَّم من تضحية كبيرة من أجل إسلامه ، وكان يعامله بلطف وحنان ، ومن ذلك أنه لما اشتكاه عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بسبب رفع صوته بالقرآن قال له : « دعه ياعمر فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله » ، يعني فهو يحتاج إلى لطف في المعاملة وتَغاضٍ عما يصدر منه من أخطاء لحداثة عهده بالإسلام .

لقد كان إيمان هذا الشاب قويا حينما طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى له بالشهادة ، إن الشهادة في سبيل الله تعالى غاية سامية لايصل إليها إلا من ارتفع مستوى إيمانهم وعظم يقينهم حتى أصبحوا كأنهم يشاهدون الجنة فهم يتُوقُون إلى الوصول إليها بأسرع طريق .

ولقد حصل عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه على الشهادة من غير أن يُقْتَل وذلك حينما مات في تبوك ، وكان النبي ﷺ بشره قبل ذلك بأن من مات وهو خارج في سبيل الله تعالى فهو شهيد .

مات شهيداً وظفر برضَى رسول الله ﷺ عنه ودعائه له حتى تمنى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يكون مكانه .

* * *

١٤ – سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة –

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أُكيدر دُومة [١] وهو أُكيدر بن عبد الملك ، رجل من كندة كان ملكا عليها ، وكان نصرانيًا ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر [٢] . فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفي ليلة مُقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قطّ ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخٌ له يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه بمَطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قَباء [٣] من ديباج مُخوَّصٌ بالذَّهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أنس بن مالك ، قال : رأيت قَباء أكيدر ، حين قُدم به على رسول الله ﷺ ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا [٤] .

---

(١) دومة تقع شمال بلاد نجد وتسمى دومة الجندل .

(٢) يعني بقر الوحش .

(٣) القباء بفتح القاف ثوب مفتوح من الأمام .

(٤) وأخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإمام البخاري من حديث أنس رضي الله عنه – صحيح البخاري ، كتاب الهبة ، رقم ٢٦١٥ (٥/ ٢٣٠) .

قال ابن إسحاق : ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ ، فحقن له دمه ، وصالحه عَلَى الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته ، فقال رجل من طيء - يقال له بُحَيرُ بن بجرة ، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، وماصنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجَتْه ، لتصديق قول رسول الله ﷺ - :

تَبارك سائقُ البقرات إنِّي ... رأيتُ الله يهدي كلَّ هاد
فمن يكُ حائدًا عن ذي تَبوك ... فإنّا قد أُمرنا بالجهاد (١)

في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وآية باهرة ، حيث أخبر النبي ﷺ خالد ابن الوليد رضي الله عنه بأنه سيجد أكيدر دومة يصيد البقر ، وفي حال وصول خالد إلى دومة ساق الله تعالى البقر حتى إنها لتَحكُّ بقرونها باب قصر أكيدر ، في مشهد أثار دهشة أكيدر وامرأته حيث لم يسبق أن حدث مثل ذلك قط .

ويخرج أكيدر ليكون أسيرًا بيد خالد بن الوليد، ويتم ما قاله رسول الله ﷺ .

إن في هذا لعبرة لأصحاب العقول السليمة والآراء الحصيفة، إنها آية باهرة تقود من لم يُسلم إلى الإسلام ومن أسلم إلى الثبات على دينه .

إن المنتظر من أصحاب العقول الراجحة أمام هذا المشهد أن يتساءلوا : من الذي أعلم النبي ﷺ بأن خالدًا سيجد أكيدر يصيد البقر ؟

ومن الذي ساق البقر في تلك الليلة لتصل إلى باب القصر مع وصول خالد في مشهد لم يسبق له مثيل ؟ ! .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٥ - ٢١٧ .

أليس العقل السليم يشهد بأن الذي أعلم النبي ﷺ بذلك هو الله تعالى ، وأن الذي ساق البقر لتكون أمام القصر مع وصول خالد هو الله جل وعلا ؟ .

لقد أصبحت البقر تلك الليلة من جنود الله تعالى لأنها هي التي استخرجت ملك دومة من قصره وهيأته ومن معه لجيش المسلمين .

لقد أسهمت هذه الجنود في استيلاء المسلمين على قرى عامرة وحصون منيعة بأقل التكاليف حيث أصبح ملكها أسيرًا بيد المسلمين بدلاً من أن يكون آسرًا لجنود الله تعالى من البقر ، وبأسْر ملك تلك القرى تم الصلح معه من غير قتال .

وأخيرًا موقف تربوي جليل من رسول الله ﷺ لأصحابه ، فحينما رآهم يتعجبون من قباء أكيدر ، وحينما خاف على بعضهم الميل إلى متاع الدنيا صرفهم حالاً إلى الآخرة وتذكُّر الجنة حيث قال : « أتعجبون من هذا؟ ! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا » ، يعني إن كنتم رأيتم شيئًا من فتنة الدنيا فإن ذلك لايعادل شيئًا من نعيم الجنة .

واختيار سعد بن معاذ لضرب المثل به له إيحاء خاص ، فالميزة العظمى لسعد هي أنه قال كلمة الحق التي كرهها بعض قومه ولم يخش في الله لومة لائم ، فضَرْب المثل بسعد يعني إحداث تساؤل بين الصحابة ، لماذا ضُرب المثل به ، وسيكون الجواب حاضرًا عند كبار الصحابة أهل البصيرة ليُتحفوا به الذين أسلموا بعد موت سعد ولم يحظوا بمعرفته ولابمعرفة موقفه العظيم حينما حكم على يهود بني قريظة .

* * *

١٥ - موقف لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الإسلام - (أصحاب مسجد الضِّرار)

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ : وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأُخرج محمدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله فيه ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ . . إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١) .

وأخرج أيضًا من طريق ابن إسحاق ، عن الزهري ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم ، قالوا : أقبل رسول الله ﷺ ، يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ -ولو قد

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٢٤ .

وهذا الإسناد من صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد صحح الحافظ ابن حجر إسنادها - فتح الباري ١٣/ ٢٧١ .

قدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصلينا لكم فيه ، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي - أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلهُ ، فاهدماه وحرقاه ، فخرجا سريعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل ، فأشعل فيه نارًا ، ثم خرجا يشتدان ، حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن مانزل ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً ﴾ إلى آخر القصة[1] ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا . . وذكر أسماءهم[2] .

في هذين الخبرين موقف عظيم لرسول الله ﷺ في الحزم مع أعداء الله المنافقين ، والتخطيط الدقيق المحكم في القضاء على مؤامراتهم الخبيثة .

هؤلاء الأعداء الذين لبسوا لباس الإسلام وحاولوا الكيد له برفع بعض شعائره والعمل تحت ظلالها . . هؤلاء الأعداء يعملون تحت توجيهات أبي عامر الفاسق وهو عبد عمرو بن صبفي الأوسي ، وهو من زعماء الأوس في الجاهلية ، ولكنه خرج من المدينة مغاضبًا إلى مكة حينما انتشر الإسلام في المدينة ، وخرج مع المشركين في أُحُد كما سبق ، ومازال معاديًا للمسلمين يُؤلِّب عليهم حتى بعد أن ذهب إلى بلاد الروم ،

(١) يعني إلى آخر ماقصه الله تعالى عنهم في قوله﴿والذين اتخذوا . . ﴾سورة التوبة ١٠٧-١٠٨ .

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٣ .

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق وذكر مثله - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢١ - .

وقد أوعز إلى عدد من المنافقين ببناء مسجد الضرار ليكون وكراً للإفساد كما جاء في هذه الروايات .

وقد بين الله تعالى أهدافهم من بناء المسجد بقوله ﴿ **والذين اتخذوا مسجد ضراراً** ﴾ أي محادَّة للمسجد الذي بُني على التقوى وهو مسجد قباء ﴿ **وكفراً** ﴾ يعني ولأجل خدمة الكفر باتخاذه معقلا لمحاربة الإسلام ﴿ **وتفريقًا بين المؤمنين** ﴾ يعني بين جماعة المؤمنين في الصلاة حيث كان أهل قباء جميعًا يصلون في مسجد واحد ﴿ **وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل** ﴾ يعني واستعداداً وترقبًا لقدوم أبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل ذلك الوقت .

ومما يبين أهدافهم الخبيثة من بناء هذا المسجد ما جاء في رواية الإمام البيهقي أن مجمع بن جارية وهو أحد الذين بنوا المسجد قال : إن هذا المسجد إذا بنيناه اتخذناه لسرِّنا ونجوانا ، ولايزاحمنا فيه أحد ، فَنَذْكُر ما شئنا ، ونُخيِّل إلى أصحاب محمد أنَّما نريد الإحسان[1] .

ومن هذه الأهداف الخطيرة يتبين لنا أن ما قام به رسول الله ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل ، لأن بقاء معالم الجاهلية التي أنشئت لنشر مبادئها سواء كانت معلنة أو خفية يعني بقاء الجاهلية ، وإن مقاومة الجاهلية بمختلف الطرق مع بقاء معالمها قد يخفِّف من انتشارها ، لكنه لايقضي عليها من جذورها ، وإنما يقضي عليها إزالة معالمها الظاهرة خاصة مايكون وسيلة أو مكانا لاجتماع دعاة الضلال .

ولقد بين النبي ﷺ بهذا العمل السنة في القضاء على أي مشروع يراد

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٢٥٩ .

منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم ، فالداء العضال لايعالج بتسكينه والتخفيف منه ، وإنما يعالج بَحَسمه وإزالة آثاره ، حتى لايتجدد ظهوره بصورة أخرى .

وإن النتائج العملية التي ظهرت على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذا العمل هو الموقف الحاسم لهذا المكر الخبيث وأمثاله من أعداء الإسلام حيث تفرق المنافقون بعد ذلك ، ومازال أمرهم يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل ، ولم يُعرف عنهم بعد فشل هذا العمل الماكر أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لمعرفتهم المؤكدة بنتائج العمل عند انكشافهم .

* * *

١٦ - مواقف إيمانية وتربوية -
(خبر كعب بن مالك وصاحبيه)

أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عَمي - قال سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حين تخلف عن قصة تبوك «قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسولُ الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكَرُ في الناس منها .

كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفتُ عنه في تلك الغزاة . والله ما اجتمعتْ عندي قبلهُ راحلتان قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسولُ الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، وعدُوّاً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ - يُريد الديوان - قال كعبٌ : فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ، مالم ينزل فيه وحيُ الله .

وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظلالُ، وتجهز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع

ولم أقض شيئًا ، فأقول في نفسي : أنا قادرٌ عليه . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا . فقلتُ : أتجهزُ بعدهُ بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئًا . ثم غدوت ، ثم رجعت ولم أقض شيئًا . فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزوُ ، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلتُ ، فلم يُقْدرْ لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفتُ فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلا رُجلاً مغموصًا عليه النفاقُ ، أو رجلا ممن عذر اللهُ من الضعفاء .

ولم يذكرني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك : مافعل كعبٌ ؟ فقال رجلٌ من بني سلمة : يارسول الله ، حبسه بُرداه ، ونظرهُ في عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي ، وطفقت أتذكرُ الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي . فلما قيل : إنَّ رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

فجئته ، فلما سلمتُ عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ماخلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ماكنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت .

وثار رجالٌ من بني سلمة فاتَّبعوني فقالوا لي : والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك ا ستغفار رسول الله ﷺ لك . فو الله مازالوا يُؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي .

ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رُجلان قالا مثل ماقلت ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك . فقلت من هما ؟ قالوا : مُرارةُ ابن الربيع العمري وهلالُ بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنَبنا الناسُ ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم

وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوفُ في الأسواق ، ولايُكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه ، فأسارقهُ النظر ، فاذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفتُّ نحوهُ أعرض عني . حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إلي ، فسلمت عليه ، فو الله ما ردَّ علي السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشُدُك بالله ، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكت . فعُدتُ له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته فقال : اللهُ ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيٌّ من أنباط أهل الشام(١) ممن قدم بالطعام يبيعهُ بالمدينة يقول : من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يُشيرون له : حتى إذا جاءني دفع إليّ كتابًا من ملك غسّانَ فإذا فيه : أما بعدُ فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالْحقْ بنا نواسك . فقلتُ لما قرأتُها : وهذا أيضًا من البلاء . فتيمَّمْتُ بها التَّنُّور فسجَّرته بها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسولَ الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلتُ : أطلِّقها أم ماذا أفعلُ ؟ قال : لا . بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك . فقلت لأمرأتي : الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعبٌ : فجاءَت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت :

(١) الأنباط هم الفلاحون سموا بذلك نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه .

يارسول الله ، إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع . ليس له خادم ، فهل تكرهُ أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لايقربك . قالت : إنه والله مابه حركة إلى شيء ، والله مازال يبكي منذُ كان من أمره ماكان إلى يومه هذا . فقال لي بعضُ أهلي لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، ومايُدريني مايقول رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌ .

فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال حتى كملتْ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا . فلما صليتُ صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة ، وأنا عَلَى ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر اللهُ : قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته : ياكعب بن مالك أبشر . قال فخررتُ ساجدًا . وعرفت أن قد جاء فرج . وآذن رسولُ الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يُبشروننا ، وذهب قبَل صاحبَيّ مبشرون ، وركض إليَّ رجلٌ فرسًا ، وسعى ساع من أسْلَم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوتهُ يبشرني نزعت له ثوبَيَّ فكسوته إياهما ببُشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرتُ ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك .

قال كعبٌ : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس ، فقام إليَّ طلحةُ بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّاني ، والله ماقام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة . قال

كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجههُ من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجههُ حتى كأنه قطعة قمر، وكنّا نعرفُ ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يارسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لاأحدث إلا صدقًا مابقيت. فو الله ما أعلمُ أحدًا من المسلمين أبلاهُ اللهُ في صدق الحديث - منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ - أحسن مما أبلاني، ماتعمدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ** ﴾ - **إلى قوله** - ﴿ **وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (١) فو الله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم، في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا**

---

(١) وهي قوله تعالى ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

انقَلَبْتُمْ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وارجاؤهُ أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه » (٢) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها : أولا : ما تمت به صياغة هذا الحديث من الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع ، وإنه ليعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك نماذج عالية للأدب العربي .

وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب وتكوين الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية ، انظر مثلا إلى قول كعب في هذا الحديث : فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه .

ثانيا : موقف كعب حينما جلس بين يدي النبي ﷺ فنفَّذ ما عزم عليه

(١) يعني قوله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥، ٩٦] .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٤١٨ ، (٨/ ١١٣ - ١١٦) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، وذكر نحوه - صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، رقم ٢٧٦٩ (ص ٢١٢٠) - .

من قول الصدق واستبعاد الأعذار الكاذبة ، ولقد كان عقله السليم في هذا الموقف قد سيطر على نوازع النفس وعواطفها ، وذلك لقوة إيمانه الذي برز على الساحة فدفع العقل السليم إلى حسن التصرف وأخْمد أيَّ نداء للعواطف .

ويشاركه في هذا الموقف أخواه اللّذان سلكا هذا المسلك وهما مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي رضي الله عنهما ، ولقد تقوَّى بهما كعب على الصمود في هذا الموقف الصعب كما جاء في الخبر .

إن كعبا وصاحبيه لو فعلوا كما فعل غيرهم من المتخلِّفين فاعتذروا بأي عذر لقبل منهم النبي ﷺ ظاهر أمرهم ، ولظفروا براحة نفسية مبعثها السلامة من نظرات العاتبين وإنكار المنكرين ، ولكنهم بعد ذلك سيبوؤون بهمٍّ طويل ، وصراع نفسي بالغ مبعثه الشعور بالإثم ، كيف لا وهم والحال هذه قد ارتكبوا خطيئة الكذب ، وليس مجرد كذب في معاملة الناس ، بل مع رسول الله ﷺ الذي يحبُّونه أكثر من سمعهم وبصرهم ، ثم قبل ذلك يُعتبرون قد كذبوا على الله جل جلاله الذي لا يخطو رسول الله ﷺ خطوة إلا بأمره .

لقد أدركوا إذاً خطورة هذا الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرَّضهم ذلك للتعب والمضايقات ، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيرا في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه .

ثالثا : ما قام به النبي ﷺ من تطبيق مبدإ الهجر التربوي ، حيث نهى عن كلام هؤلاء الثلاثة حتى أصبحوا معزولين عن المجتمع تماما لمدة خمسين يومًا .

والهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع الإسلامي على الاستقامة ، ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات ، لأن من توقَّع أنه إن وقع في شيء من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع فإنه لايفكِّر في الإقدام على ذلك .

ولايغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني ، حيث توجد الدولة الإسلامية المهيمنة ، والمجتمع الإسلامي القوي ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم .

وهذا الهجر التربوي ليس له حدٌّ معين ، ولقد بلغ في هذه القصة خمسين يومًا حتى نزلت توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة ، أما بعد ذلك فإن هذا الهجر يكون محدوداً بصلاح حال المهجورين وعودتهم إلى الاستقامة .

وهذا الهجر يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا فهذا دنيوي وذاك ديني ، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله ، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرمًا ، لقول رسول الله ﷺ « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فَيُعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ أخاه بالسلام»[1] ولقوله « من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه »[2] .

(١) صحيح البخاري ، الأدب ، رقم ٦٠٧٧ (١٠/ ٤٩٢) .
صحيح مسلم ، البر ، رقم ٢٥٦٠ (ص ١٩٨٤) .
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٢٠ .

رابعًا : في هذا الخبر تصوير بليغ لإطباق الصحابة رضي الله عنهم على تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي ، حيث امتنعوا جميعًا عن كلام هؤلاء الثلاثة .

وفي ماحكاه كعب عن موقف ابن عمه أبي قتادة موقف مؤثر حيث سلَّم عليه فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مرارًا : هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، مع أنه من أحب الناس إليه . .

إن أبا قتادة رضي الله عنه في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه ، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين ، فالذي أَوْحَى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه .

خامسًا : موقف رائع لكعب بن مالك في الولاء التام لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والبراءة التامة من أعداء الله الكافرين ، وعبرة ظاهرة فيما فعله ملك غسان من الكتابة لكعب يدعوه إليه ليكون عنده موضع التكريم .

إن أعداء الإسلام يحرصون دائمًا على اغتنام الفرص المناسبة ، وتصيُّد الفجوات التي تحصل في الصف الإسلامي لينفذوا منها ، فيعملوا عملهم في تفريق المسلمين ، واقتناص من يشذ عن جماعتهم ، ليجعلوا منه بطلا كبيرًا فيوجهوه لحرب المسلمين ، ويكون تحت سمعهم وبصرهم فلايتصرف إلا تحت إدارتهم .

ولقد اختار ملك غسان كعبا من بين الثلاثة لكونه شاعرًا كبيرًا ومن وجهاء المسلمين ، ولكنَّ سهم هؤلاء الأعداء بالنسبة لكعب كان طائشًا ،

فلم يحقق لهم شيئًا من أغراضهم الدنيئة بل عصمه الله تعالى بإيمانه، ولم يجد ردًا على ملك غسان أوفق من أن يحرق كتابه بالتنُّور ، وهكذا نجد الإيمان القوي يستعلي على جميع مطالب الحياة الدنيا ، لأن صاحب هذا الإيمان لايعتبرها شيئًا في ميزان الآخرة .

سادسًا : نزول توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة يوم عظيم من أيام المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه النبي ﷺ حتى استنار كأنه قطعة قمر ، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رضي الله عنهم حتى صاروا يتلقون كعبًا وصاحبيه أفواجًا يهنئونهم بما تفضَّل الله به عليهم من التوبة .

وجاء كعب إلى النبي ﷺ ووجهه يبرق من السرور فقال له : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » وهذا يعني عظمة مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام .

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم ، وبالتالي فإنه يُحظَى بحفظه جل وعلا في الدنيا وتكريمه في الآخره .

وكانت فرحة كعب بالتوبة عظيمة عبَّر عنها بنزع ثوبيه اللَّذين لايملك يومئذ غيرهما وإهدائهما لمن بشره .

ومما يدل على سرور كعب العظيم بهذه التوبة قوله لرسول الله ﷺ : « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » وقوله «يارسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقًا مابقيت » .

وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبًا لم يذكر في هذا الخبر إلا ماجرى له ، لكن جاء في رواية الواقدي : « وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد ، قال : وخرجت إلى بني واقف فبشرته فسجد ، قال سعيد : فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه » .

ذكره الحافظ ابن حجر : وقال : يعني لمَا كان فيه من الجَهد فقد قيل : إنه امتنع عن الطعام حتى كان يواصل الأيام صائمًا ، ولايفتر عن البكاء[1] .

* * *

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٢ .

مواقف وعبر

فيما بعد تبوك

١ – مثل من ضغط الجاهلية وعزة الإسلام –
(وفد ثقيف وإسلامهم)

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : وكان عمرو بن أمية أحد بني علاج ، وكان من أدهى العرب ، وأنكرهم[١] ، وكان مُهاجراً لعبد ياليل بن عمرو [٢] ، وتمشَّى إلى عبد ياليل ظُهراً حتى دخل داره، ثم أرسل إليه : إن عمراً يقول : اخرج إليّ ! فلما جاء الرسول إلى عبد ياليل قال : ويحك ! عمرو أرسلك ؟ قال : نعم ، وهو واقفٌ في الدار. وكان عبد ياليل يُحب صلحه ويكره أن يمشي إليه ، فقال عبد ياليل : إنَّ هذا لشيءٌ ما كنت أظنُّه بعمرو ، وماهو إلا عن أمر قد حدث وكان أمراً سوءاً ، ما لم يكن من ناحية محمد . فخرج إليه عبد ياليل، فلما رآه رحب به ، فقال عمرو : قد نزل بنا أمرٌ ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العربُ كلها وليست لكم بهم طاقةٌ ، وإنما نحن في حصننا هذا ، مابقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تُصاب ! ولانأمن من أحد منا يخرج شبراً واحداً من حصننا هذا، فانظروا في أمركم ! قال عبد ياليل : قد والله رأيتُ ما رأيت ، ما استطعتُ أن أتقدم بالذي تقدمت به ، وإنَّ الحزم والرأي الذي في يديك.

قال : فائتمرت ثقيفٌ بينها ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لايأمن لكم سرْب[٣] ، ولايخرج منكم أحدٌ إلا اقتُطع ؟ فائتمروا بينهم ،

---

(١) أي أشدهم دهاء .

(٢) أي قد هجره فلا يكلمه .

(٣) أي طريق .

فأرادوا أن يُرسلوا رسولاً إلى النبي ﷺ ، كما خرج عُروة بن مسعود إلى النبي ﷺ . قال : فابعثوا رأسكم عبد ياليل .

فكلَّموا عبد ياليل بن عمرو بن حُبيب ، وكان سنّ عُروة ، فأبى أن يفعل ، وخشي إن رجع إلى قومه مُسلمًا أن يُصنع به إذا رجع من عند النبي ﷺ ما صُنع بعُروة حتى يبعثوا معه رجالاً ، فأجمعوا على رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكَم بن عمرو بن وهب بن مُعَتِّب ، وشُرَحْبيل بن غيلان بن سلمة بن مُعَتِّب ، وهؤلاء الأحلاف رهط عُروة ، وبعثوا في بني مالك : عُثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونُمير بن خَرَشَة ، ستَّة . ويقال : إنَّ الوفد كانوا بضعة عشر رجلاً ، فيهم سُفيان بن عبد الله .

قالوا : فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم ، ولكنه أحبّ إن رجعوا أن يُسهِّل كلّ رجل رَهْطَه ، فلما كانوا بوادي قَناة مما يلي دار حُرُض[١] نزلوا ، فيجدون نَشَرًا[٢] من الإبل ، فقال قائلهم : لو سألنا صاحب الإبل لمن الإبل ، وخبَّرنا من خبر محمد ، فبعثوا عُثمان بن أبي العاص ، فإذا هو المُغيرة بن شُعبة يَرعَى في نوبته ركابَ أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت رعيتُها نُوَبًا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رآهم سلَّم عليهم وترك الرِّكاب عندهم ، وخرج يشتدُّ ، يُبشِّر النبي ﷺ بقدومهم ، حتى انتهى إلى باب المسجد فيلقى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فأخبره خبر قومه ، فقال أبو بكر : أقسمتُ بالله عليك لاتَسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أُخبره - وكان رسول الله ﷺ قد

(١) هو واد من أودية قناة بالمدينة .

(٢) أي إبلا منتشره .

ذكرهم ببعض الذكر - فأُبشِّره بمقدمهم فدخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ فأخبره والمُغيرة على الباب ، فخرج إلى المُغيرة فدخل المغيرة على النبي ﷺ وهو مسرور . فقال : يارسول الله ، قد قدم قومي يُريدون الدخول في الإسلام بأن تَشرُط لهم شروطًا ، ويكتبون كتابًا على من وراءهم من قومهم وبلادهم ، فقال رسول الله ﷺ : لايسألون شرطًا ولاكتابًا أعطيتُه أحدًا من الناس إلا أعطيتهم ، فبشِّرهم .

فخرج المُغيرة راجعًا فخبَّرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ ، وبشرهم وعلَّمهم كيف يُحيُّون رسول الله ﷺ ، فكلّ ما أمرهم المُغيرة فعلوا إلا التحية ، فإنهم قالوا : أنْعمْ صباحًا ! ودخلوا المسجد فقال الناس : يارسول الله ، يدخلون المسجد وهو مُشركون ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنَّ الأرض لايُنَجِّسها شيءٌ ! وقال المُغيرة بن شُعبة : يارسول الله ، أنزل قومي عليّ .

وأنزل المُغيرةُ ثَقيفًا في داره بالبَقيع ، وهي خطَّة خطها النبي ﷺ له ، فأمر النبي ﷺ بخَيمات ثلاث من جريد فضُربت في المسجد ، فكانوا يسمعون القراءَة باللَّيل وتَهجُّد أصحاب النبي ﷺ ، وينظرون إلى الصُّفوف في الصلاة المكتوبة ، ويرجعون إلى منزل المُغيرة فيَطعمون ويتوضؤون ، ويكونون فيه ما أرادوا ، وهم يختلفون إلى المسجد . وكان رسول الله ﷺ يُجري لهم الضِّيافة في دار المُغيرة ، وكانوا يسمعون خُطبة النبي ﷺ فلا يسمعونه يذكر نَفْسَه ، فقالوا : أمرَنا بالتشهد أنَّه رسول الله ولايشهد به في خُطْبته ، فلما بلغ رسولَ الله ﷺ قولُهم قال : أنا أوّل من شهد أني رسول الله ! ثم قام فخَطَب وشهد أنه رسول الله في خُطبته .

فمكثوا على هذا أيّامًا يَغدون على النبي ﷺ كلّ يوم ، يُخلّفون عُثمان بن أبي العاص على رحالهم ، وكان أصغرهم ، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرج فعَمَد إلى النبي ﷺ فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، وأسلم سرًا من أصحابه ، فاختلف إلى النبي ﷺ مرارًا حتى فقه، وسمع القرآن ، وقرأ من القرآن سُورًا من فيِّ رسول الله ، فإذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عَمَد إلى أبي بكر رضي الله عنه فسأله واستقرأه- ويقال: إذا وجد النبي ﷺ نائمًا جاء إلى أُبَيّ بن كعب فاستقرأه - فبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام قبل الوفد وقبل القَضيَّة ، وكتم ذلك عثمان من أصحابه، وأُعجب رسولُ الله ﷺ به ، وأحبّه .

فمكث الوفد أيّامًا يختلفون إلى النبي ﷺ والنبيّ يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد ياليل : هل أنت مُقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتُكم ، وإلا فلا قَضيَّةَ ولا صُلْحَ بيني وبينكم .

قال عبد ياليل : أرأيتَ الزنى ؟ فإنَّا قومٌ عُزَّاب بغَرْب(1)، لابُدَّ لنا منه ، ولا يَصبر أحدُنا على العُزْبَة . قال : هو ممّا حرّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (2) .

قال : أرأيت الرِّبا ؟ قال : الرِّبا حرامٌ ! قال : فإنَّ أموالنا كلَّها ربًا . قال: لكم رؤوس أموالكم ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

(1) أي نذهب إلى بلاد بعيدة .

(2) الاسراء / ٣٢ .

(3) سورة البقرة ٢٧٨ .

قال : أفرأيتَ الخمر ؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا ، لابُدَّ لنا منها . قال : فإنَّ الله قد حرمها ! ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ﴾ (١) الآية .

قال : فارتفع القوم ، وخلا بعضُهم ببعض ، فقال عبد ياليل : ويْحكُم! نرجع إلى قومنا بتَحْريم هذه الخصال الثلاث ! والله لاتصبر ثقيفٌ عن الخمر أبدًا . ولاعن الزنا أبدًا . قال سُفيان بن عبد الله : أيّها الرجل ، إن يُرد الله بها خيرًا تصبرْ عنها ! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا وتركوا ماكانوا عليه ، مع أنَّا نخاف هذا الرجل ، قد أوطَأ الأرضَ غَلَبَةً ونحن في حصن في ناحية من الأرض . والإسلام حولنا فاش . والله لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعًا ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يومًا مثلَ يوم مكة !

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتبوا الكتاب ، كان خالد هو الذي كتبه . وكان رسول الله ﷺ يُرسل إليهم بالطعام ، فلا يأكلون منه شيئًا حتى يأكل منه رسول الله حتى أسلموا .

قالوا : أرأيت الرَّبَّة ، ما تَرى فيها ؟ قال : هَدْمَها . قالوا : هَيْهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا في هدمها (٢) قتلَتْ أهلنا . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويحك ياعبد ياليل ! إن الرَّبَّة حجرٌ لايدري من عَبَدَه ممّن لا يَعبُده . قال عبد ياليل : إنَّا لم نأتك ياعمر .

---

(١) سورة المائدة ٩٠ . وتمام الآية ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

(٢) أي أسرعنا السير في السفر .

فأسلَموا ، وكمُل الصلح ، وكتب ذلك الكتابَ خالد بن سعيد .
فلما كمُل الصُّلح كلَّموا النبي ﷺ يدع الرَّبَّة ثلاث سنين لايهدمها ، فأبى . قالوا : سنتين ! فأبى . قالوا : سنة ! فأبى . قالوا : شهرًا واحدًا! فأبى أن يُوقِّت لهم وقتًا . وإنما يريدون بترْك الرَّبَّة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان ، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهَدْمها ، فسألوا النبي ﷺ أن يُعفيهم من هدمها . قال رسول الله ﷺ : نعم ، أنا أبعث أبا سُفيان بن حرب والمُغيرة بن شُعبة يهدمانها ، واستعفوا رسول الله ﷺ أن يكسروا أصنامهم بأيديهم . وقال : أنا آمرُ أصحابي أن يكسروها .

وسألوا النبيّ ﷺ أن يُعفيهم من الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لاخَير في دين لاصلاة فيه . فقالوا : يامحمد ، أمّا الصلاة فسنُصلّي ، وأمّا الصيام فسنصوم . وتعلَّموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا مابقي من الشهر ، وكان بلال يأتيهم بفطرهم . ويُخيَّل إليهم أنَّ الشمس لم تغب فيقولون : ماهذا من رسول الله ﷺ إلا استبارٌ لنا (١) ، ينظر كيف إسلامنا . فيقولون : يابلال ، ماغابت الشمس بَعْدُ . فيقول بلال : ماجئتكم حتى أفطر رسولُ الله ﷺ . فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله ﷺ من تعجيل فطره . وكان بلال يأتيهم بسَحورهم ، قال : فأسترُهم من الفجر (٢) .

فلما أرادوا الخروج قالوا : يارسول الله ، أمِّرْ علينا رجلاً منّا يؤمُّنا . فأمَّر عليهم عُثمان بن أبي العاص ، وهو أصغرهم ، لما رأى رسول الله

---

(١) أي اختبار .

(٢) يعني يستر عنهم بوادر نور الفجر قبل طلوعه لتحرجهم من الأكل خشية طلوع الفجر .

ﷺ من حرصه على الإسلام . قال عُثمان : وكان آخر عَهْد عَهده إليّ رسول الله ﷺ أن اتَّخذْ مُؤَذِّنًا لايأخذ على أذانه أجرًا . وإذا أممت قوما فاقدُرهم بأضعفهم ، وإذا صلَّيتَ لنفسك فأنت وذاك .

ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف ، فلما دنَوْا من ثَقيف قال عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثَقيف فاكتموها القضيّة . وخَوِّفوهم بالحرب والقتال ، وأخبروهم أنَّ محمدًا سألنا أمورًا عظَّمناها فأبيناها عليه ، يسألنا تحريم الزِّنا والخمر ، وأن نُبطل أموالنا في الرِّبا ، وأن نهدم الرَّبَّة . وخرجت ثَقيف حين دنا الوفد ، فلمّا رآهم الوفد ساروا العَنَق(١) وقَطَروا الإبل (٢) ، وتغشَّوْا بثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا ، فلم يرجعوا بخَيْر . فلمّا رأت ثقيف مافي وجوه القوم حزنوا وكربوا ، فقال بعضهم : ماجاءَ وفدكم بخير .

وأتى رجالاً منهم جماعةٌ من ثَقيف فسألوهم : ماذا رجعتم به ؟ وقد كان الوفد قد استأذنوا النبي ﷺ أن ينالوا منه فرخَّص لهم ، فقالوا : جئناكم من عند رجل فَظٍّ غليظ ، يأخذ من أمره ما شاءَ ، قد ظهر بالسيف ، وأداخ العرب ، ودانَ له الناس ، ورُعبَتْ منه بنو الأصفر في حُصونهم ، والناس فيه إمّا راغبٌ في دينه ، وإمّا خائفٌ من السيف ، فعرض علينا أمورًا شديدةً أعظمناها . فتركناها عليه ، حرّم علينا الزِّنا ، والخمر ، والرِّبا ، وأن نهدم الرَّبَّة . فقالت ثقيف : لانفعل هذا أبدًا . فقال الوفد : لَعَمْري قد كرهنا ذلك وأعظمناه ، ورأينا أنه لم يُنصفنا ،

---

(١) العنق من السير : المنبسط (لسان العرب ، ج١٢ ، ص ١٤٩) .

(٢) قطر الإبل ، يقطرها قطرًا : قرب بعضها إلى بعض على نسق (لسان العرب ، ج٦ ، ص٤١٧) .

فأصلحوا سلاحكم ، ورُمّوا حصْنكم ، وانصبوا العَرّادات عليه والمَنْجَنيق، و أدخلوا طعام سنة أو سنتين في حصْنكم ، لايُحاصركم أكثر من سنتين ، واحفروا خَنْدَقًا من وراء حصْنكم ، وعاجلوا ذلك فإنَّ أمره قد ظلّ لانأمنه .

فمكثوا بذلك يومًا أو يومين يريدون القتال ، ثم أدخل الله تبارك وتعالى في قلوبهم الرُّعْب فقالوا : مالنا به طاقةٌ ، قد أداخ العرب كلّها ، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأله وصالحوه ، واكتبوا بينكم وبينه كتابًا قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش . فلمّا رأى الوفد أن قد سلَّموا بالقضية ، ورُعبوا من النبي ﷺ ، ورَغبوا في الإسلام ، واختاروا الأمْن على الخوف ، قال الوفد : فإنَّا قد قاضيناه ، وأعطانا ما أحببناه ، وشرط لنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس ، وأبرَّ الناس ، وأوصلَ الناس ، وأوفى الناس ، وأصدقَ الناس ، وأرحمَ الناس ، وقد تَركنا من هَدْم الرَّبَّة وأبينا أن نهدمها ، وقال : « أبعثُ من يهدمها » ، وهو يبعث من يهدمها .

قال : يقول شيخٌ من ثَقيف قد بقي في قلبه من الشِّرك بعْدُ بقيَّةٌ ، فذاك والله مصْداق ما بيننا وبينه ، إن قدَر على هَدْمها فهو مُحقٌّ ونحن مُبطلون ، وإن امتنعتْ ففي النفس من هذا بَعْدُ شيءٌ ! فقال عثمان بن العاص : منّتك نفسُك الباطلَ وغرّتك الغُرور ! وما الرَّبَّة ؟ وماتدري الرَّبَّة من عبدها ومن لم يَعبُدها كما كانت العُزّى ما تدري من عبدها ومن لم يعبُدها ، جاءَها خالد بن الوليدوحده فهدمها ، وكذلك إساف ونائلة، وهُبَل ومَناة ، خرج إليها رجلٌ واحدٌ فهدمها ، وسُواع خرج إليه رجلٌ واحدٌ فهدمه ! فهل امتنع شيءٌ منهم ؟ قال الثَّقَفيّ : إنَّ الرَّبَّة لاتُشبه شيئًا مما ذكرتَ . قال عُثمان : سترى ! .

وأقام أبو سُفيان والمُغيرة بن شُعبة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجوا وقد تحكَّم أبو مُلَيح بن عُروة ، وقارب بن الأسود ، وهما يريدان يسيران مع أبي سُفيان ، والمغيرة إلى هدم الربَّة ، فقال أبو مُلَيح : يارسول الله ، إنَّ أبي قُتل وعليه دَينٌ ، مائتا مثقال ذهب ، فإن رأيتَ أن تقضيه من حُليّ الربَّة فعلتَ . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فقال قارب بن الأسود : يارسول الله ، وعن الأسود بن مسعود أبي ، فإنه قد ترك دينًا مثل دين عُروة . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ الأسود مات وهو كافر . فقال قارب : تَصل به قرابة ، إنما الدَّين عليّ وأنا مطلوبٌ به . فقال رسول الله : إذاً أفعلُ . فقضى عن عُروة ، والأسود ، دَينهما من مال الطاغية .

وخرج أبو سفيان والمغيرة وأصحابهما لهَدم الربَّة ، فلما دنَوا من الطائف قال لأبي سفيان : تقدَّم فادخل لأمر النبي ﷺ . فقال أبو سُفيان : بل تقدم أنت على قومك ! فتقدم المُغيرة ، وأقام أبو سُفيان بماله ذي الهَرْم (١) .

ودخل المُغيرة في بضعةَ عشَرَ رجلاً يهدمون الربَّة . فلما نزلوا بالطائف نزلوا عشاءً فباتوا ، ثم غدوْا على الربَّة يهدمونها . فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأُضحكنَّكم اليومَ من ثَقيف . فأخذ المعْوَل واستوى على رأس الربَّة ومعه المعْوَل ، وقام وقام قومه بنو مُعَتِّب دونه ، معهم السلاح مخافةَ أن يُصاب كما فُعل بعمّه عُروة بن مسعود . وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال : كلاَّ ! زعمْتَ تقدّمني أنت إلى الطاغية ، تُراني لو قمتُ أهدمها كانت بنو مُعَتِّب تقوم دوني ؟ قال المغيرة : إنَّ القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تَقْدَم ، فأحبوا الأمْن على الخوف .

(١) هو موضع بقرب الطائف ، كما ذكر البكري (معجم ما استعجم ، ص ٨٣٠).

وقد خرج نساءُ ثقيف حُسَّراً [1] يبكين على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون ، والأبكار خرجْن . فلما ضرب المُغيرة ضربةً بالمعْول سقط مَغشيًا عليه يرتكض ، فصاح أهل الطائف صيحةً واحدة : كلاَّ ! زعمتم أنَّ الرَّبَّة لاتمتنع ، بلى والله لتمتنعن ! وأقام المُغيرة مليًا وهو على حاله تلك . ثم استوى جالسًا فقال : يامَعْشَرَ ثقيف ، كانت العرب تقول : مامن حيٍّ من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حيٍّ من أحياء العرب أحمق منكم ؟ ويْحكُم ، وما اللات والعُزَّى ، وما الرَّبَّة ؟ حجرٌ مثل هذا الحجر ، لايدري من عبده ومن لم يعبده ! ويحكم ، أتسمع اللاتُ أو تُبصر أو تنفع أو تضرّ ؟ ثم هدمها وهدم الناسُ معه ، فجعل السادن يقول - وكانت سَدَنَة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عَتَّاب بن مالك ، وصاحبها منهم عَتَّاب بن مالك بن كعب ثم بنوه بعده - يقول : سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأساس غضبًا يَخْسف بهم . فلمّا سمع بذلك المُغيرة ولَيَ حفَرَ الأساس حتى بلغ نصف قامة ، وانتهى إلى الغَبْغَب خزانتها ، وانتزعوا حلْيَتها وكسوتها ومافيها من طيب ومن ذَهَب أو فضَّة .

قال : تقول عَجوزٌ منهم : أسلمها الرُّضّاع [2] . تركوا المصاع [3] .

وأعطى رسول الله ﷺ ممّا وُجد فيها أبا مُلَيح ، وقاربًا ، وناسًا ،

---

(١) حسرا : أي مكشوفات الوجوه (شرح أبي ذر ، ص ٤٢٦) .

(٢) الرضاع : جمع راضع ، وهو اللئيم (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨٤) .

(٣) المضاربة بالسيف (النهاية ، ج٢ ، ص ٨٤) .

وجعل في سبيل الله وفي السِّلاح منها (١)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف النبي ﷺ من وفد ثقيف حيث جاؤوا مستسلمين لقوة دولة الإسلام ، ولم يأتوا مقتنعين بالإسلام ، فجاؤوا يشارطون النبي ﷺ على خضوعهم لدولة الإسلام في مقابل إسلام ناقص يتبعون فيه أهواءهم ، فاشترطوا على النبي ﷺ أن يبيح لهم الزنى والربا وشرب الخمر ، فأبان لهم أن كل هذه الأمور محرمات في الإسلام ، ولا يملك أن يحل شيئًا حرمه الله تعالى .

لقد جاء هؤلاء الوفد وهم يعرضون جاهليتهم معهم ليخلطوها بالإسلام .

إنهم مازالوا غرقى في أوحال الجاهلية ، فلذلك صعب على نفوسهم أن يتخلوا من ساعتهم عن تلك الأوحال .

إن النفوس التي لم تتنور بالإيمان ولم تتحلَّ بالهداية ماتزال تهبط إلى السفل ، وتجد شيئًا من الوحشة في الصعود إلى الأعلى ، لأن عقولها مخنوقة بخناق الشهوات البهيمية .

وحينما تحلُّ جذوة الإيمان في القلوب تتنور بها البصائر ، ويضعف سلطان العواطف ، ويقوى سلطان العقل ، ويستردُّ حريته التي كانت مكبَّلة بخضوع الإنسان لعواطفه الجامحة ، فيبدأ بالتفكير السليم ، ويُصدر

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٩٦٢ - ٩٧٢ باختصار .

وأخرجه البيهقي من حديث موسى بن عقبة وذكر نحوه - دلائل النبوة ٥/ ٢٩٩-٣٠٤- .

وأخرجه ابن إسحاق بأخصر من هذا - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٨ - ٢٤٦ - ، وأخرجه ابن أبي شبة من خبر غطيف بن أبي سفيان الطائفي - تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٤٩٩ - .

الأوامر الحكيمة، التي ترفع من شأن الإنسان كَحَيٍّ عاقل، ليعيش في أجواء فكره المستنير الذي يدرك حالاً أن الحق كل الحق والحكمة كل الحكمة في تطبيق شريعة الله تعالى الذي خَلَق هذا الإنسان العاقل، والذي هو أعلم جل وعلا بما يصلحه في حاضره وفي مستقبله بعد الموت .

ولقد أجاب النبي ﷺ هؤلاء بأن الله عز وجل هو الذي حرم هذه الأشياء ، وكأنه يقول لهم : إذا كنتم تُقرُّون بأن الله جل جلاله هو الذي خلقكم أفلا تهديكم عقولكم إلى أنه سبحانه أعلم بما يصلحكم ؟ !

ومع هذا الجواب الذي رفع النبي ﷺ به عقولهم إلى الأعلى فإنهم في مشورتهم مازالوا يفكرون في حتمية العيش في الدركات السفلى ، ويرون صعوبة الارتفاع إلى العلو .

ولما رأوا إصرار النبي ﷺ على ضرورة أخذ الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى رجعوا إلى التفكير في وضعهم الذي لايسمح لهم بالبقاء منفصلين عن دولة الإسلام فعادوا إلى الخضوع والاستسلام ، ولكن بقي ماهو أكبر مما ذكروا في نظرهم وهو أن يعرفوا رأي النبي ﷺ في صنمهم « اللات » فقالوا : أرأيت الرَّبَّة ماترى فيها ؟ قال : هدمها ، قالوا : هيهات ، لو تعلم الربة أنا أوْضَعْنا في هدمها قَتَلت أهلنا .

وهذا يعني أنهم مازالوا على شركهم واعتقادهم بأن اللات تضر وتنفع من دون الله تعالى .

وهنا لم يصبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فشارك في الحوار وقال : ويحك ياعبد ياليل إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لم يعبده ، قال عبد ياليل : إنا لم نأتك ياعمر .

لقد قالوا كلاما في غاية النكارة ولكن النبي ﷺ صَمَتَ صَمْتَ الأنبياء عليهم السلام ، وتكلم عمر كلام البشر العاديين .

لقد كان بينهم وبين النبي ﷺ جسور رقيقة بالإمكان كسرها بنظرة ساخرة أو كلمة جارحة ، وكان النبي ﷺ أحرص شيء على سلامة تلك الجسور ليعبروا منها إلى الإيمان الحق .

لقد جاؤوا مستسلمين ولم يأتوا مسلمين ، فما أعظم النبي ﷺ حينما اغتنم استسلامهم ليكسب إسلامهم .

وبهذا كان الصمت وامتلاك المشاعر هو عين الحكمة .

إن المتأمل ليعجب من كلام هؤلاء عن حجر لايبصر ولايسمع ولايضر ولاينفع ، مع أنهم من سادة قومهم ولايُسَوَّد غالبا في ذلك الزمن إلا أصحاب العقول الراجحة ، ومع ذلك تدنَّي مستوى تفكيرهم حتى نسبوا إلى ذلك الصنم المقدرة على إبادة أهل الطائف لو علم أنهم سافروا ليصالحوا الرسول ﷺ على هدمه .

إن مَنْ تصوَّرَ واقع هؤلاء وأمثالهم في جاهليتهم وهم بهذا التفكير الساذج المحجوب بالظلمات ، ثم تصور واقعهم بعد الإسلام وهم ينظرون إلى تفكيرهم السابق نظرة ازدراء وتهكم . . إن من تصور ذلك سيعرف جيدا المستوى العالي الذي رفع الله تعالى به المسلمين ، والذي يمثله قول عمر رضي الله عنه : ويحك ياعبد ياليل إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لم يعبده .

وبعد أن أسلموا طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدع اللات ثلاث سنين فأبى ، ومازالوا يطلبونه إلى أن طلبوا تأخيرها شهراً فأبى أن يوقت لهم

وقتا، وهذا يبين لنا موقف النبي ﷺ الواضح الحازم من معالم الجاهلية الظاهرة ، كما سبق في فتح مكة ، فالأوثان قد تعلقت بها نفوس بعض الناس، ومازالوا في ذلك الوقت قبل زوالها يظنون أنها تضر وتنفع ، فبقاؤها يعني بقاء الشرك ظاهرا وباطنا عند بعض الناس وهم الذي يبقون على شركهم ، حيث يقومون بعبادتها ظاهراً ويخشونها باطنا ، أو باطنا فقط عند بعض من أسلموا إسلامًا ضعيفًا إذ ربما بقي في قلوبهم شيء من الخشية منها مادامت ماثلة أمامهم .

لهذا لم يوافقهم النبي ﷺ على إبقاء ذلك الصنم حتى مع ماذكروا من مسوغات ذلك ، من محاولة تأليف أبنائهم وسفهائهم ، لأن ماأراده هؤلاء من محاولة تأليف الجهال إلى الإسلام لن يتم مع بقاء رمز الجاهلية الأكبر في بلادهم ، لأن قناعتهم المتوارثة باستحقاقه للتعظيم والعبادة وخشيتهم منه تحول بينهم وبين التفكير بسماع دعوة الحق ، ولهذا كان إصرار النبي ﷺ على عدم الموافقة على طلبهم هذا شديداً .

وأغرب من هذا طلبهم من رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة التي هي عماد الدين ، مما يدل على أنهم لم يفقهوا الإسلام بعد ، حيث لم يدركوا أنه الاستسلام الكامل لله تعالى من غير تردد ولا تخيُّر ، بل كانوا يظنون أن الأمر راجع لاختيار البشر ، ولقد بين لهم رسول الله ﷺ أنه لاخير في دين لا صلاة فيه .

ولاشك أنهم بعدما وقر الإيمان في قلوبهم سيعلمون أن مطالبهم هذه غريبة وشاذة عند من عرف الإسلام وآمن به حقًا .

* * *

٢ - مثل من هيمنة قيم الجاهلية وعزة الإسلام -
(خبر وفد بني تميم وإسلامهم)

قال ابن إسحاق : فقدمَتْ على رسول الله ﷺ وفود العرب . فقدم عُطارد بن حاجب بن زُرارة بن عُدُس التميميُّ ، في أشراف بني تميم ، منهم الأقرع بن حابس التميمي ، والزبرقان بن بدر التميمي ، أحد بني سعد ، وعمرو بن الأهتم ، والحَبحاب بن يزيد .

قال ابن إسحاق : ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفَزاري ، وقد كان الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن شَهدَا مع رسول الله فتح مكة وحُنينا والطائف .

فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم ، فلما دخل وفد بني تميم المسجدَ ، نادَوْا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخْرُج إلينا يامحمد ، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا : يامحمد جئناك نُفاخرك ، فأْذَن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب ، فقال :

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله ، الذي جعلنا مُلوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق ، وأكثره عددًا ، وأيسره عُدَّة ، فمَنْ مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدّد مثل ماعدّدنا وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك .

أقول هذا لأنْ تأتوا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ، أخي بني الحارث ابن الخزرج : قم ، فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت ، فقال :

الحمدُ لله الذي السمواتُ والأرضُ خلقه ، قضى فيهن أمرَه ، ووسع كرسيَّه[1] علمُه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قُدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابَه وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكْرمُ الناس حسبًا ، وأحسن الناس وجوها ، وخَير الناس فعالا . ثم كان أولَ الخلق إجابة ، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حيّ يُعادلُنا ... منا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البيعُ[2]
وكمْ قَسَرنا من الأحياء كلِّهم ... عند النِّهاب ، وفضلُ العز يُتبعُ[3]

---

(١) أي إن علم الله تعالى وسع كرسيه الذي هو محيط بالسموات والأرض .

(٢) كَعنَب جمع بيعة بكسر الباء وهي متعبد النصارى .

(٣) قسرنا يعني جبرنا وأكرهنا ، والنهاب جمع نهب وهو مايؤخذ من الأعداء .

ونحن يُطعمُ عند القَحط مُطعمُنا　　من الشِّواء إذا لم يُؤنَس القَزَعُ[1]
بما تَرى الناس تأتينا سَراتُهُم　　من كلّ أرض هُويّا ثم نصطنعُ[2]
فننْحَر الكوم عُبطًا في أرومَتنا　　للنازلين إذا ما أُنزلوا شَبعوا[3]
فلا تَرانا إلى حيّ نُفاخِرُهم　　إلا اسْتقادوا فكانوا الرأسَ يُقتطعُ
فمن يُفاخِرُنا في ذاك نَعْرفه　　فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُستمعُ
إنَّا أبَيْنا ولا يأبى لَنا أحَدٌ　　إنا كذلكَ عند الفَخر نرتَفعُ

قال : فلما فرغ الزِّبرقان ، قال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت : قم ياحسّان ، فأجب الرجل فيما قال : فقام حسان ، فقال :

إن الذوائبَ من فِهر وإخوتهم　　قد بيَّنُوا سنةً للناس تُتَّبعُ[4]
يَرْضَى بهم كلُّ من كانت سريرته　　تَقوَى الإله ، وكل الخير يَصطنعُ
قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهمُ　　أو حاولوا النفع في أشْياعهم نفعوا
سجيَّة تلك منهم غيرُ مُحدثة　　إن الخلائق فاعلم شرُّهَا البدَعُ
إنْ كان في النَّاس سباقون بعدهم　　فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
لايَرقَع الناس ما أوْهَت أكفهُمُ　　عند الدفاع ولايُوهون مارَقعوا

(١) الشواء اللحم المشوي ، ويؤنس أي يبصر ، والقزع جمع قزعة بفتحتين وهي قطعة السحاب .
(٢) السراة الأشراف والسادة ، والهُوي بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء الإسراع ، والاصطناع صنع المعروف .
(٣) الكوم بالضم القطعة من الإبل والكوماء الناقة العظيمة السنام ، وعبطا جمع عبيط وهو ما ينحر من الإبل من غير علة وهو سمين فَتيّ ، والأرومة بفتح الهمزة وتُضَمّ الأصل .
(٤) الذوائب أي الأعلون وذوو العز والشرف .

إن سابقوا الناس يومًا فاز سبقهمُ أو وازنوا أهل مجد بالندى مَتعوا

أعفة ذُكرَتْ في الوَحي عفتهم لايَطبعُون ولا يُرْديهمُ طَمعُ(١)

لايبخلون على جار بفضلهم ولا يَمسُّهُمُ من مَطْمع طَبعُ

إذا نَصَبْنا لحيٍّ لم ندبَّ لهم كما يَدبُّ إلى الوَحْشية الذَّرَعُ(٢)

نَسْموا إذا الحربُ نالتنا مَخالبها إذا الزعانف من أظفارها خَشعوا(٣)

لايَفْخَرُونَ إذا نالوا عَدُوهم وأن أُصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلعُ(٤)

كأنهم في الوَغى والموْتُ مُكْتنعٌ أُسدٌ بحليةَ في أرْساغها فَدعُ(٥)

خُذْ منهم ما أتى عفوًا إذا غضبوا ولايكن همكَ الأمرَ الذي منعوا

فإن في حربهم فاترك عَداوتهم شرًّا يُخاضُ عليه السمُّ والسَّلَعُ(٦)

أكرمْ بقوْم رسولُ الله شيعَتهم إذا تفاوَتت الأهواءُ والشِّيعُ

---

(١) لايطبعون : الطَّبع بكسر الباء الدنيئ الخلق اللئيم ، أي إنهم لايتَّصفون باللؤم، ولايرديهم طمع أي لايهلكهم الطمع في الدنيا .

(٢) نصبنا لحي أي نهضنا لقتالهم ، ولم ندبَّ لهم يعني لم نمش إليهم في ضعف ووهن، والوحشية أنثى الوحشى والمراد بها البقرة الوحشية، والذَّرع محركةً ولدها .

(٣) الزعانف الضعفاء .

(٤) الخور جمع خائر وهو الضعيف، الهلع جمع هلوع وهو الشديد الجزع .

(٥) الوغي الحرب، ومكتنع أي دان قريب، وحلية اسم موضع، والأرساغ جمع رسغ وهو الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل ،والفدع اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل.

(٦) السلع محركة شجر مر .

أهْدَى لهم مِدْحتي قلبٌ يُوازرهُ فيما أُحبُّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ(١)
فإنهم أفضلُ الأحياء كلهم إن جد بالناس جدُّ القول أو شمعوا(٢)

قال ابن هشام : أنشدني أبو زيد :

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

وقال ابن هشام : حدثني بعضُ أهل العلم بالشعر من بني تميم : أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

أتيناك كيما تعْلم الناسُ فضلَنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فرُوعُ الناس في كل موْطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نَذُود المعْلمين إذا انتحَوْا ونضرب رأس الأصيد المتفاقم(٣)
وأنَّ لنَا المرْباع (٤) في كل غارة نُغيرُ بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

---

(١) الحائك اسم فاعل من حاك الثوب نسجه ، والصنع محركة البليغ الحاذق يقال رجل صَنَع اللسان ويقال لسان صنع .

(٢) شمعوا أي هزلوا ومزحوا .

(٣) نذوذ أي ندفع ، والمعلمين من يجعلون لأنفسهم في الحرب علامات يعرفون بها ، والأصيد المستكبر المتعاظم ، والمتفاقم : الأشر البطر .

(٤) هو ربع الغنيمة .

هل المجد إلا السُّودَدُ العَوْد والندى | وجاهُ الملوك واحتمال العَظائم
نَصرْنا وآوَيْنا النبي محمّدًا | على أنْف راض من مَعَدٍّ وراغم
بحَيٍّ حَريد[1] أصله وثراؤه | بجَابية الجوْلان وَسط الأعاجم
نَصَرناهُ لما حل وسط ديارنا | بأسيافنا من كل باغ وظالم
جَعلنا بنينا دُونهُ وَبناتنا | وطبنا لهُ نَفسا بَفيء المغانم
ونحن ضربَنَا الناس حتى تتَابعوا | على دينه بالمرْهَفات الصوَارم[2]
ونحن ولدْنا من قريش عَظيمها | ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لاتفخرُوا إن فخركُم | يَعودُ وَبالاً عندَ ذكر المكارم
هَبلْتم عَلينا تَفخرُون ، وأنتمُ | لنا خَوَلٌ مابينَ ظئر وخادم[3]
فإنْ كنتمُ جئتم لحقن دمائكمْ | وأموالكم أن تُقسَموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا | ولا تلبسوا زيًّا كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق : فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله : قال الأقرع ابن حابس : وأبي ، إن هذا الرجل لَمُؤَتَّى له[4] ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعْلى من أصواتنا .

---

(١) أي منفرد ، ويقصد بذلك قبيلة غسان التي انفردت في الشام من دون العرب - الروض الأنف ٧/ ٤٣٤ .

(٢) المرهفات الصوارم يعني السيوف الرقيقة الحد القواطع .

(٣) هبلتم علينا يعني كذبتم كثيرًا ، والخول محركة الخدم ، والظئر المرضع ولد غيرها .

(٤) أي مهيأ له أمره .

فلما فرغ القوم أسلموا ، وجَوّزَهم رسولُ الله ﷺ ، فأحسن جوائزَهم .

قال ابن إسحاق : وفيهم نزل من القرآن : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [**الحجرات** : ٤] (١) .

في هذا الخبر موقف مهم لرسول الله ﷺ في مجال الدعوة، حيث اغتنم فرصة إقبال وفد بني تميم بخطيبهم وشاعرهم ، فدعا خطيب المسلمين وشاعرهم ، فكانت هذه المحاورة التي قامت على غرض مهم من أغراض الشعر والخطابة في ذلك العصر ألا وهو الفخر ، ولكن حينما نتأمل المادة الكلامية التي دارت في هذه المفاخرة نجد أن وفد بني تميم قد سار في مفاخرته على تعداد المفاخر التي كان أهل الجاهلية يهتمون بها من الغنى وكثرة العدد والمقدرة على الإغارة والنهب وإكرام الضيف حسب العرف السائد آنذاك ، بينما نجد خطيب المسلمين قد ركز على توحيد الله تعالى واصطفائه لنبيه ﷺ من بين البشر وذكر فضائل المسلمين التي ارتفعت عن حدود القبَلِيَّة وسادوا بها العرب ، كما ركز شاعر المسلمين على بيان قوة المسلمين التي لا تقوم لها قوة ، وتخلُّقهم مع هذا بمكارم الأخلاق .

وإن اعتراف أحد زعماء الوفد بتفوق خطيب المسلمين وشاعرهم لدليل على علو شأن الأمة الإسلامية آنذاك من الناحية الأدبية إلى جانب علوها في القوة الحربية .

لقد جاء هذا الوفد وهم على جاهليتهم من أجل المفاخرة والمكاثرة كما قال شاعرهم : أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٨٤ - ٢٩٥ .

ولقد كان رسول الله ﷺ مُوَفقًا كل التوفيق حينما عاملهم بالأسلوب الذي يفهمونه ، وردَّ عليهم بالمستوى الأدبي الذي يقدِّرونه ، فأقام خطيبا يرد على خطيبهم وشاعراً يرد على شاعرهم ببيان مفاخر المسلمين التي لايستطيع هؤلاء القوم أن يصلوا إليها .

واستطاع ﷺ بتوفيق من الله تعالى أن ينتزع من قلوبهم نخوة الجاهلية وكبرياءها ، وأن ينسيهم وساوس الشيطان بخطيب هو أبلغ من خطيبهم وشاعر هو أشعر من شاعرهم .

فلما تبين لأفراد هذا الوفد أنهم ليسوا أفضل الناس وأن الذين قدموا لمفاخرتهم يتفوقون عليهم بأمور لايستطيعون بلوغها تطامنوا وتواضعوا وانتُزعَتْ من قلوبهم نخوة الجاهلية وضعُف كيد الشيطان لهم فأعلنوا إسلامهم .

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ ليعتبر من أوضح الأمثلة على تطبيقه للحكمة في الدعوة التي أمره الله جل وعلا بها بقوله ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥] فلو أنه ﷺ صدهم وهجَّن أسلوبهم، ولم يفاخرهم كما فاخروه بالخطابة والشعر لنفخ الشيطان في رُوعهم وأوحى إليهم بأن المسلمين عاجزون عن مفاخرتهم ، ولبقي الطغيان الذي كان مهيمنا على مشاعرهم باعتقاد تفوقهم على غيرهم بما يعتقدونه مُثلاً عالية آنذاك ، ولم تكن دعوة القرآن لتنفذ إلى قلوبهم إلا أن يشاء الله لسيطرة هذه المفاهيم الجاهلية على مداركهم ، فلما عرفوا فضل المسلمين وعلو شأنهم بدؤوا بتفهُّم دعوة الإسلام فأعلنوا إسلامهم .

ثم كانوا في الفتوحات الإسلامية من أقوى جنود الإسلام ، وحازوا على ثناء النبي ﷺ ، كما أخرج الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لا أزال أحب بني تميم من ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «هم أشد أمتي على الدجال ، قال : وجاءت صدقاتهم فقال النبي ﷺ : هذه صدقات قومنا ، وكانت سبيَّةٌ منهم عند عائشة فقال رسول الله ﷺ : أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل »(١) .

وقوله « هم أشد أمتي على الدجال » يدل على قوة دينهم في آخر الزمان .

وفي هذا الخبر موقفان لخطيب المسلمين ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم حسان بن ثابت رضي الله عنهما حيث قاما بدورهما في تلك المحاورة خير قيام ، مع أن الأمر كان على البديهة ، وكان هذا مما أذهل زعماء ذلك الوفد حيث أقروا لخطيب المسلمين وشاعرهم بالتفوق على خطيبهم وشاعرهم .

وهكذا ينبغي للمسلمين في كل زمن أن يكون لديهم رجال أكفاء في كل المجالات الفكرية ليكونوا على استعداد للقيام بما يلزمهم في المناظرات الأدبية مع أعداء الإسلام ، وليكون لهم إسهام في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٥ (ص ١٩٥٧) .
صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٦٦ (٨/ ٨٤) .

٣ - موقف ضَمام بن ثعلبة في إسلام قومه -

أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبه وافدًا إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلا جَلْدًا أشعر ذا غديرتين[1] فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ أنا ابن عبد المطلب، قال محمد؟ قال: نعم، فقال: ابنَ عبد المطلب إني سائلك ومغلظ في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك، قال: لا أجد في نفسي فسل عما بدالك، قال: أنْشُدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: اللهم نعم قال: فأنشدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لانشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلاهك وإلاه من كان قبلك وإلاه من هو كائن بعدك آللّه أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم.

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب مانهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، قال: ثم انصرف

(١) أي قويا شديدا طويل الشعر قد فرق شعره فرقتين.

راجعا إلى بعيره ، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة .

قال : فأتى إلى بعيره فأطلق [عقاله] ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ، قالوا : مَهْ (١) ياضمام اتق البرص والجذام ، اتق الجنون قال : ويلكم إنهما والله لايضران ولاينفعان ، إن الله عز وجل قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، قال فو الله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولاامرأة إلا مسلما .

قال : يقول ابن عباس رضي الله عنهما فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (٢) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف لرسول الله ﷺ في الحلم والسماحة ، فقد تحمل شدة هذا السائل وعامله بلطف ورحمة ، مما كان له أثر في اجتذابه وتهيئته لقبول الإسلام .

---

(١) أي اكفف .

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ٢٠٨ - ٢٠٩ ، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم - صحيح البخاري ، رقم ٦٣ كتاب العلم ، صحح مسلم ، كتاب الإيمان رقم ١٢ - .
وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٥٤ - ٥٥ - .

ثانيًا : موقف لضمام بن ثعلبة رضي الله عنه حيث عرض الإسلام على قومه بقوة ووضوح ، ولم يخش من تحذيرهم إياه بالإصابة بالبرص والجذام والجنون حينما ذم الأصنام ، وحينما رآه قومه سليمًا معافى مع ماتفوَّه به من ذم الأصنام تهيئوا لسماع دعوته فوافق منهم نفوسا قد تجردت من التعلق بالأصنام فقبلوا دعوته وأسلموا جميعًا .

* * *

٤ – إسلام صُرَد بن عبد الله الازدي وجهاده –

قال ابن إسحاق : وقدم على رسول الله ﷺ صُرَدُ بن عبد الله الأزدي، فأسلم ، وحسُن إسلامه ، في وفد من الأزد ، فأمّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه . وأمره أن يُجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك ، من قبل اليمن .

فخرج صُرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ ، حتى نزل بجُرَش وهي يومئذ مدينةٌ مُغْلَقة ، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضَوَتْ إليهم خَثْعَم ، فدخلوها معهم حين سَمعوا بسير المسلمين إليهم ، فحاصروهم فيها قريبا من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلا ، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ، ظن أهل جُرَشَ أنه إنما ولّى عنهم منهزما ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه عَطف عليهم ، فقتلهم قتلا شديداً .

وقد كان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران ، فبيناهما عند رسول الله ﷺ عشيّةً بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ : بأيّ بلاد الله شكر ؟ فقام إليه الجُرشيان فقالا : يارسول الله ، ببلادنا جبل يقال له كَشر ، وكذلك يسميه أهلُ جُرَش، فقال : إنه ليس بكشر ، ولكنه شَكر ، قالا : فما شأنه يارسول الله ؟ قال: إن بُدْنَ الله لتنحر عنده الآن ، قال : فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان ، فقال لهما : ويحكما ! إن رسول الله ﷺ ليَنعى لكما قومكما ، فقوما إلى رسول الله ﷺ ، فاسألاه أن يدعوَ الله أن يرفع عن قومكما ، فقاما إليه ، فسألاه ذلك ، فقال : اللهم ارفع عنهم ، فخرجا

من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا يومَ أصابهم صُرَد بن عبد الله ، في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ماقال ، وفي الساعة التي ذكر فيها ماذكر .

وخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا[1] .

في هذا الخبر موقف لصرد بن عبد الله الأزدي والمسلمين الذين كانوا معه حيث حاصروا المشركين في مدينة جرش ، ثم لما طال الحصار قام صرد بانسحاب أَوْهَم فيه الأعداء بأنه قد انهزم عنهم ، وكان هو وجيشه في كامل استعدادهم لما خرج إليهم الأعداء فاقتتلوا ونصر الله المسلمين عليهم .

وفي هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر الرجلين الجرشيين بقتل قومهم في نفس اليوم الذي قتلوا فيه .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢٦ - ٣٢٨ .

وأخرجه ابن سعد من حديث عبد الله بن عكرمة بن الحارث عن أبيه - طبقات ابن سعد١/ ٣٣٩- .

٥ - مثلان منْ هَدْي النبي ﷺ في إكرام الكرماء - (وفادة جرير البجلي ووائل بن حُجْر)

١ - أخرج الإمامان أحمد والبيهقي من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : لما دنوت من المدينة أَنَخْتُ راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حُلتي ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق (١) فقلت لجليسي ياعبد الله ذكرني رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ذكرك آنفًا بأحسن ذكر ، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن ، وإنَّ على وجهه مَسْحةُ ملك قال جرير : فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني (٢) .

٢ - أخرج الإمام البخاري من حديث وائل بن حُجْر رضي الله عنه قال : بلغني ظهور النبي ﷺ فتركت مُلْكا عظيما وطاعة عظيمة فهبطت إلى النبي ﷺ فأخبرني أصحابه فقالوا : بشَّرنا النبي ﷺ بمقدمك قبل أن تقدم بثلاثة أيام ثم لقيته فقرَّب مجلسي وأدناني وبسط لي رداءه وأجلسني معه وقَبل إسلامي ثم هبط إلى منبره فصعد وأصعدني معه فقمت دونه فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبيين وقال : هذا وائل ابن حجر أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت طائعًا غير مكره راغبًا في الله عز وجل وفي رسوله وفي دينه ، بقية أبناء الملوك ، اللهم بارك في

---

(١) أي نظروا إليه بعيونهم .

(٢) الفتح الرباني ٢١/٢١٦ .

دلائل النبوة ٥/٣٤٦ - ٣٤٧ .

وائل بن حجر وفي ولده وولد ولده، ثم أنزلني معه . فبعث معي معاوية ابن أبي سفيان قال : وأمره أن يعطيني أرضا فيدفعها إليّ ، وكتب لي كتابا خاصا يفضلني فيه على قومي وكتابا لي ولأهل بيتي بمالنا وكتابًا لي ولقومي، فخرجت في الهاجرة فركبت راحلتي واشتدت الرمضاء وأوضعت(1)، فقال لي معاوية : أردفني ، قلت : مابي ضَنٌّ عن هذه الناقة ولكن لستَ من أرداف الملوك ، قال : فألق إلي حذاءك أتوَقَّى به ، قلت : لست أضنُّ بالحذاء ولكن لست ممن يلبس لباس الملوك قال : فقصِّر عليَّ من راحلتك أمشي في ظلها ، قلت : ذاك لك وكفَى لك به شرفًا (2) .

وذكره الحافظ ابن حجر وزاد في آخره : فلما استُخلف معاوية قصده فتلقاه وأكرمه ، قال وائل : فوددت لو كنت حملته بين يدي (3) .

في هذين الخبرين مواقف وعبر منها :

أولا : موقفان لرسول الله ﷺ في إكرام كرماء الأقوام وسادتهم، ففي الخبر الأول نوَّه بجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه وأثنى عليه ليكرمه الصحابة رضي الله عنهم ويعتنوا به ، وفي الخبر الثاني بشَّر النبي ﷺ أصحابه بقدوم وائل بن حجر رضي الله عنه قبل وصوله بثلاثة أيام ، وقد أكرمه النبي ﷺ بعد وصوله إكرامًا بالغاً نظراً لسيادته الكبيرة في قومه .

---

(1) أي أسرعت السير .

(2) التاريخ الكبير رقم ٢٦٠٧ (٤/ ١٧٥) .

(3) الإصابة رقم ٩١٠٢ (٣/ ٥٩٢) .

إن السادة والكرماء قد ألفُوا من الناس على حياة الاحترام والتقدير، فإذا انتقلوا من أقوامهم ومواطن عزهم وجاؤوا مسلمين طائعين مختارين فإنهم بحاجة إلى أن يعاملوا بالتكريم والاحترام حتى لا يصابوا بردَّة فعل فيما إذا عوملوا بشيء من الجفاء، فيكون ذلك سببا في صدهم عن الإسلام، وليس من المسلَّم به أن يقال إنهم ماداموا دخلوا في الإسلام فلابد أن يتواضعوا وأن يعاملوا بمثل مايعامل به أفراد المسلمين لأن خلفيات الحياة الأولى تبقى في نفوس هؤلاء حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ويتعلموا أخلاق الإسلام وآدابه، وماهذه المعاملة التي عامل بها وائل بن حجر معاوية رضي الله عنهما إلا من آثار حياة السيادة والملك، ولهذا كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بهؤلاء بقوله «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وفي هذين الخبرين معجزتان لرسول الله ﷺ حيث أخبر عن قدوم هذين السيدين الكريمين قبل وصولهما، ففي ذلك عبرة للمعتبرين وآية للمتذكرين.

وأخيراً موقف لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. حينما وفد عليه وائل بن حجر فتلقاه وأكرمه ولم يتأثر بموقفه القديم معه، وهذا مثل من أمثلة عظمة الإسلام في تهذيب النفوس وتقويمها.

* * *

٦ - (خبر زياد الصُّدائي)

أخرج الحافظ البيهقي من حديث زياد بن الحارث الصُّدائي قال : أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام فأُخبرت أنه قد بعث جيشًا إلى قومي ، فقلت : يارسول الله اردد الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم ، فقال لي : اذهب فردَّهم ، فقلت : يارسول الله إن راحلتي قد كلَّت ، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردَّهم .

قال الصدائي : وكتبت إليهم كتابًا ، فقدم وفدهم بإسلامهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك ، فقلت : بل الله هداهم للإسلام ، فقال : أفلا أؤمرك عليهم؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : فكتب لي كتابا أمَّرني ، فقلت : يارسول الله مُرْ لي بشيء من صدقاتهم ، قال : نعم ، فكتب لي كتابًا آخر .

قال الصدائي : وكان ذلك في بعض أسفاره فنزل رسول الله ﷺ منزلا ، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخَذَنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : أوَفَعل ذلك؟ قالوا : نعم ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأنا فيهم ، فقال : لاخير في الإمارة لرجل مؤمن .

قال الصدائي : فدخل ذلك في نفسي ، ثم أتاه آخر فقال : يارسول الله أعطني ، فقال رسول الله ﷺ : من سأل الناس عن ظَهْر غنى فَصداع في الرأس وداء في البطن ، فقال السائل : أعطني من الصدقة ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولاغيره حتى حكم فيها هو فجزَّأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء

أعطيتك- أو اعطيناك حقك - ، قال الصدائي : فدخل ذلك في نفسي أني غني وأني سألته من الصدقه .

قال : ثم إن رسول الله ﷺ اعْتَشَى - يعني سار في وقت العشاء - من أول الليل ، فلزمته وكنت قريبا ، وكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون حتى لم يبق معه أحد غيري ، فلما كان أوان صلاة الصبح أمرني فأذَّنت ، فجعلت أقول : أقيم يارسول الله ؟ فجعل ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ويقول : لا ، حتى إذا طلع الفجر نزل فتبرز ثم انصرف إليّ وهو يتلاحق أصحابه ، فقال : هل من ماء يا أخا صداء؟ قلت : لا إلا شيء قليل لايكفيك ، فقال : اجعله في إناء ثم ائتني به ، ففعلت فوضع كفه في الماء ، قال الصدائي فرأيت بين إصبعين من أصابعه عينا تفور ، فقال رسول الله ﷺ : لولا أني استحيي من ربي عز وجل لسقينا واستقينا ، ناد في أصحابي من له حاجة في الماء ، فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم شيئًا .

ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، فأراد بلال أن يقيم ، فقال له رسول الله ﷺ : إن أخا صداء هو أذَّن فهو يقيم . فقال الصدائي : فأقمت الصلاة .

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين ، فقلت : يارسول الله أعفني من هذين ، فقال : مابدا لك ؟ فقلت : سمعتك يارسول الله تقول : لاخير في الإمارة لرجل مؤمن ، وأنا أؤمن بالله وبرسوله ، وسمعتك تقول للسائل : من سأل الناس عن ظهر غنى فهو صداع في الرأس وداء في البطن ، وسألتك وأنا غني ، فقال : هو ذاك فإن شئت

فاقبل وإن شئت فَدَع ، فقلت : أدَعُ ، فقال لي رسول الله : فدلَّني على رجل أؤمره عليكم ، فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمَّره عليهم .

ثم قلنا : يارسول الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسعَنا ماؤها ، واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا ، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو ، فادع الله لنا في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليه ولانفترق ، فدعا بسبع حصيات فعركهن بيده ودعا فيهن ، ثم قال : اذهبوا بهذه الحصيات ، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة واذكروا الله عز وجل .

قال الصدائي : ففعلنا ما قال لنا فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها - يعني البئر - (١) .

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث وقال : وهذا الحديث له شواهد في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه (٢) وحسَّن إسناده ابن عساكر (٣) .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنْعُم وهو ضعيف وقد وثقه أحمد بن صالح وردَّ على من تكلم فيه وبقية رواته ثقات (٤) .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الإمام أحمد أخرجه بطوله وأخرجه

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٣٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ٥/ ٧٥ .

(٣) كنز العمال ١٦/ ١٢ .

(٤) مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٤ .

أصحاب السنن وفي إسناده الأفريقي - يعني عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المذكور - - لكن قال : وله طريق أخرى من طريق المبارك بن فضالة[1] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : اهتمام النبي ﷺ بهداية الناس عن طريق الدعوة وعدم اللجوء إلى الجهاد إلا عند الضرورة ، فقد رد الجيش الذي بعثه إلى بني صداء حينما تكفل له زياد بن الحارث الصدائي بإسلام قومه .

إن عدول القائد عن رأيه بعد بدء تنفيذ العمل فيه صعوبة على النفس، ولكن النبي ﷺ يَسُنّ لأمته بهذا لزوم الاعتصام بالحق ولو بعد صدور القرار والبدء بتنفيذ الأمر .

ثانيًا : موقف لزياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه، حيث زهد بالإمارة خوفا من التعرض لآثارها السيئة ، مع أنه لم يسألها وإنما ولاّه النبي ﷺ على قومه لما رأى من قوة تأثيره عليهم حيث كان سببا في إسلامهم .

كما أنه تورع عن الصدقة بعدما كتب له النبي ﷺ بشيء من صدقات قومه، ولعله ﷺ كتب له بذلك باعتبار أنه سيكون من العاملين على جباية الصدقات حيث إنه قد ولاه على قومه ، وقد أخبر النبي ﷺ بعدم رغبته في الإمارة خشية أن يلحقه منها إثم ، وبعدم رغبته في الأخذ من الصدقة لما سمع النبي ﷺ يشدد النكير على من أخذ من الصدقة وهو غني، وهذا دليل على قوة إيمان زياد بن الحارث على حداثة إسلامه رضي الله عنه ،

---

(١) الإصابة ١/٥٣٨ .

وقد قبل النبي ﷺ استعفاءه من الأمرين ، ولعل ذلك لأنه أراد أن يغذي في نفسه هذا الشعور الإيماني ، وذلك بميله إلى التنزه من الشبهات والبعد عن أسباب الفتنة .

ثالثًا : يشتمل هذا الخبر على معجزتين لرسول الله ﷺ ، أولاهما : نبع الماء من بين أصابعه حتى كأنه عين تفور ، والثانية وفرة الماء في بئر بني صداء طوال العام بعدما ألقوا فيها الحصيات السبع اللاتي دعا فيهن النبي ﷺ ، وفي هاتين المعجزتين وأمثالهما عبرة لأولي الأبصار والعقول المتجردة من اتباع الهوى المنحرف .

وقول رسول الله ﷺ « لاخير في الإمارة لرجل مؤمن » محمول على المؤمن الذي يخشى على نفسه من الفتنة بالإمارة كما يفهم من سياق القصة التي قال النبي ﷺ هذا القول بمناسبتها ، أما إذا كان المؤمن لايخشى على نفسه من الافتتان بالإمارة وكان عادلا في ولايته فإنها تكون له عملا صالحًا كما جاء في قول رسول الله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله : الإمام العادل » الحديث [1] وقوله « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا » [2] .

* * *

(١) صحيح البخاري ، الأذان ، رقم ٦٦٠ (٢/ ١٤٣) .
صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠٣١ (٢/ ٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ١٨٢٧ (٣/ ١٤٥٨) .

٧ - مثل من رحمة النبي ﷺ -
(خبر ابن أبي عقيل الثقفي)

أخرج الإمامان الطبراني والبزار من حديث عبد الرحمن بن أبي عقيل قال : انطلقت في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب ومافي الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فما خرجنا حتى ما كان في الناس أحب إلينا من رجل دخلنا عليه ، فقال قائل منا : يارسول الله ألا سألت ربك ملكا كملك سليمان ؟ قال : فضحك ثم قال : فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان، إن الله لم يبعث نبيّاً إلا أعطاه دعوة ، منهم من اتخذ بها دنياه فأعطيها ، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ، وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني والبزار ورجالهما ثقات(١) .

في هذا الخبر موقف عظيم من مواقف رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم ، حيث اختبأ دعوته التي خصصها الله سبحانه للأنبياء عليهم السلام لتكون شفاعة لأمته يوم القيامة .

إنه لموقف كبير القدر عظيم النفع ألهمه الله تعالى نبيه ﷺ ليستنقذ به من شاء الله إنقاذه من هذه الأمة من العذاب يوم القيامة ، كما أخرجهم

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٠ - ٣٧١ .

وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٨٧ ونقل محققه عن البوصيري أنه قال : رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبراني ورواته ثقات .

الله به في الدنيا من الظلمات إلى النور .

وإنه لفرق كبير بين نفع يقدَّم في هذه الحياة الفانية مما يختص بها ، ونفع يُسْدَى في الدار الآخرة الخالدة .

* * *

٨ - إسلام فروة بن عمرو الجذامي وثباته على الدين -

قال ابن إسحاق في بيان خبره : وبعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله «معان» وماحولها من أرض الشام .

فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم، ثم ذكر بعض شعره في ذلك ، وأن الروم أجمعوا على قتله وصلبه على ماء لهم يقال له عفراء بفلسطين .

قال : فزعم الزهري ابن شهاب أنهم لما قدَّموه ليقتلوه قال :

بلِّغ سراة المسلمين بأنني ... سلْم لربِّي أَعْظُمي ومُقَامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله تعالى (١) .

إن في خبر فروة هذا مثلا عاليًا للثبات على الدين الحق والترفع عن جواذب الأرض ومتاع الحياة الدنيا ، حيث جرَّ عليه إيمانه بالإسلام فَقْدَ منصبه الكبير ، ثم صبر على البلاء حيث تعرض للحبس أوَّلاً ثم القتل بعد ذلك .

وإنه لايصل إلى هذا المستوى من الإيمان إلا من عرف منزلة الحياة الدنيا من الآخرة ففضَّل الأعلى على الأدنى ، وضحَّى بالقليل الزائل من أجل الكثير الدائم .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣٣ .

وذكر الحافظ خبر ابن إسحاق هذا ، ثم نسب هذا الخبر إلى ابن شاهين وابن منده من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند ضعيف إلى الزهري - الإصابة ٣/ ٣٠٧ ، رقم ٧٠٢٢ - .

٩ - مواقف تربوية ودعوية -

(بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري في الدعوة إلى اليمن)

١ - أخرج الإمام البخاري من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « بعثَ رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال : وبعث كلَّ واحد منهما على مخلاف ، قال : واليمنُ مخلافان [(١)] ثم قال : يسِّرا ولاتُعَسِّرا ، وبَشِّرا ولاتُنَفِّرا . فانطلق كلٌّ واحد منهما إلى عمله ، وكان كلٌّ واحد منهما إذا سارَ في أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدثَ به عهدًا فسلم عليه . فسار مُعاذٌ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى ، فجاء يَسيرُ على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ، وإذا رجلٌ عندهُ قد جُمعتْ يداهُ إلى عنقه ، فقال له مُعاذ : ياعبد الله بن قيس أيْمَ هذا [(٢)]؟ قال : هذا رجلٌ كفر بعد إسلامه . قال : لاأنزلُ حتى يقتلَ . قال : إنما جيء به لذلك ، فانزل : قال : ما أنزلُ حتى يُقتل . فأمرَ به فقتل ، ثم نزل فقال : ياعبد الله كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوَّقهُ تفوُّقًا [(٣)] . قال : فكيف تقرأ أنتَ يامعاذ ؟ قال : أنامُ أوَّل الليل ، فأقومُ وقد قضَيتُ جُزئي من النوم ، فأقرأ ماكتب الله لي ، فأحتسب نومتي ، كما أحتسب قَومتي »[(٤)] .

---

(١) أي إقليمان .

(٢) أي ما شأنه .

(٣) أي أقرأه ساعة بعد ساعة ، مأخوذ من فُواق الناقة وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتى تدرَّ ثم تحلب .

(٤) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٤١ (٨/ ٦٠) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه (١) .

٢ - أخرج الإمام البخاري من حديث أبي مَعَبد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال « قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثهُ إلى اليمن : إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدُوا أن لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله ، . فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذُ من أغنيائهم فتُردُّ على فُقرائهم . فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتَّق دَعوة المظلوم فإنهُ ليس بينه وبين الله حجاب»(٢) .

٣ - أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال : يامعاذ إنك عسى أن لاتلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري فبكى معاذ جشعا (٣) لفراق رسول الله ﷺ ، وفي لَفْظ : فقال النبي ﷺ : لاتبك يامعاذ ، للبكاء أوان ، إن البكاء من الشيطان ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا (٤) .

---

(١) صحيح مسلم ، الأشربة ، رقم ٢٠٠١ (ص ١٥٨٧) .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٤٧ (٨/ ٦٤) .

(٣) الجشع هو الجزع .

(٤) الفتح الرباني ٢١ / ٢١٥ .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : في وصايا النبي ﷺ الدعوية ، ففي الحديث الأول أمر معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما بالتيسير على الناس ونهاهما عن التعسير عليهم، وأمرهما بالتبشير ونهاهما عن التنفير .

وهذا أصل مهم في مناهج الدعوة إلى الله تعالى ، فإن الناس من طبائعهم أن يعتزوا بعقولهم وإدراكهم ، وأن يعتزوا بما ورثوه عن أسلافهم من أديان وعادات ، فإذا جاءهم من يستسخف عقولهم ، أو يستفزُّهم في مقدساتهم التي يؤمنون بها فإن عنصر الدفاع عن النفس وعن المقدسات يبرز على الساحة فيغطي على ما أودعه الله تعالى في الإنسان من جوانب الذوق والوجدان والتفكير السليم ، ويصبح الشيء الذي يهيمن على الإنسان هو إلى أيِّ مدًى سيكون نجاحه في الدفاع عن نفسه وحماية مقدساته .

وبهذا يكون هذا الداعية الذي بدأ بالهجوم واستعمل العنف في دعوته قد وضع بينه وبين المدعُوِّين سدا منيعا يحول بينهم وبين التأثر بكلامه وقبول دعوته ، وبالتالي يكون قد أساء إلى الدعوة الإسلامية ، في الوقت الذي كان يظن أنه قد أجاد وأحسن .

لهذا كانت هذه هي وصية الرسول ﷺ لهذين الداعيتين الكبيرين ، لأن هذا الأمر هو الذي يشغل باله ، والذي يتوقف عليه نجاح الدعوة بعد الأمور الأخرى التي هي متوفرة لدى الصحابة رضي الله عنهم، من الإيمان القوي والتجرد لله تعالى والدار الآخرة والعلم الراسخ .

وفي الحديث الثاني يوصي رسول الله ﷺ معاذًا بالتدرج في الدعوة

والبدء بالأهم فالأهم ، وهذا أيضا عامل مهم من عوامل نجاح الدعوة ، فالدعوة تكون أولا بترسيخ الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ إيمانًا يثبت في القلوب ويهيمن على الأفكار والسلوك ، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي ترسخ هذا الإيمان وتنميه ، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات ، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك .

ثانيًا : في الخبر الأخير مثل من تواضع النبي ﷺ العظيم حيث كان يوصي معاذا وهو على راحلته ورسول الله ﷺ يمشي على قدميه .

ولفتة كريمة من رسول الله ﷺ حينما بكى معاذ جزعًا لفراق رسول الله ﷺ فقال له : « لاتبك يامعاذ للبكاء أوان ، إنما البكاء من الشيطان» ويقصد البكاء الذي يفتُّ في عضد المسلم ويَحُدُّ من إقدامه على القيام بالمهمات الجليلة .

ثم الإشادة من رسول الله ﷺ بالمتَّقين مَنْ كانوا في أنسابهم وأجناسهم وألوانهم ، وحيثما كانوا في أي صقع من الأرض .

وفي هذا تذكير لمعاذ بأن يهتم بهذا الأصل العظيم من أصول الإسلام الذي يكسب به الدعاة قطاعا ضخما من البشر قَعَدَتْ بهم أنسابهم أو أجناسهم أو ألوانهم ، ليكونوا جنود الدعوة الإسلامية إذا حازوا على هذا الشرف الكبير شرف التقوى ، وليصلوا إلى مستوى تكريم الله تعالى لهم بقوله﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات** : ١٣] .

ثانيًا : مواقف للصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ، ومن ذلك اهتمامها بانكار المنكر وتنفيذ الحدود، حيث أقاما حد الردة على رجل كفر بعد إسلامه .

والردة عن الإسلام من الناحية الدعوية لها ضرر كبير على الدعوة ، حيث يتوهم البسطاء والسذَّج من ارتداد الناس عن الإسلام عدم صلاحيته لإصلاح الناس وتنظيم أمور حياتهم ، ولهذا حاول اليهود أن يثيروا الشبهات حول الإسلام من هذا الجانب بقولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٢] .

ولهذا المقصد وغيره كان إنكار معاذ بالغا حتى قال : لا أنزل حتى يُقتَل .

ومن مواقفهما التي جاءت في هذه الأخبار اهتمامهما بالمناصحة في أمور العبادة حيث جرى منهما التساؤل عن قراءة القرآن وصلاة الليل فأخبر كل واحد أخاه بطريقته في ذلك ، وهذه المناصحة مطلوبة بين المؤمنين ، فقد يغفل المسلم عن بعض الأعمال الصالحة ، سواء في ذلك العبادات الخاصة كالصلاة والصيام وتلاوة القرآن ، أو المتعدية التي يتعدى نفعها للآخرين كالدعوة وبذل المعروف وتعليم العلم، فإذا حصل التساؤل بين المسلمين عن ذلك تذكر الغافل ، وتعلم الجاهل ، وتقوَّى المتكاسل .

* * *

١٠ - خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع -

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما خبر حجة النبي ﷺ ، وقد جاء فيه فخطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم . كحرمة يومكم هذا [1] في شهركم هذا . في بلدكم هذا . ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوعٌ . ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ . وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث [2] - كان مُسترضعا في بني سعد فقتلتهُ هُذيلٌ - وربا الجاهلية موضوعٌ . وأولُ ربًا أضعُ ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب . فإنهُ موضوعٌ كلهُ . فاتقوا الله في النساء . فإنكم أخذتُموهن بأمان الله . واستحللتم فرُوجهن بكلمة الله [3] .

ولكُم عليهنَّ أن لا يُوطئن فُرُشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبرح . ولهُن عليكم رزقهُنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلُّوا بعدهُ إن اعتصمتم به . كتابُ الله . وأنتم تُسألون عنِّي . فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهدُ أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم ! اشهد . اللهُمَّ ! اشهد » ثلاث مرات [4] .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه . .

---

(١) يعني يوم عرفة .

(٢) هو إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

(٣) رجح الإمام النووي أن كلمة الله هي قوله تعالى ﴿ فانكحوا ماطاب لكم من النساء ﴾ - شرح النووي على مسلم ٨/ ٨٣ - .

(٤) صحيح مسلم ، الحج ، رقم ١٢١٨ (ص ٨٨٦ - ٨٩٢) .

وزاد فيه « ألا لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكنه في التحريش بينكم »(١).

في هذه الخطبة النبوية مثل من قوة النبي ﷺ في إظهار شريعة الله تعالى وتنفيذ أوامره ، فقد أبطل أمور الجاهلية التي يعتز بها الكفار ويتفاخرون في إبرازها . . أبطلها بأسلوب يتسم بإهانتها في مقابل إعزاز الكفار لها .

ولاشك أن مقاومة الناس في معتقداتهم وقناعاتهم الفكرية أمر يحتاج إلى شجاعة عالية وإيمان راسخ بالمعتقد المخالف لمعتقدات هؤلاء الناس، ولقد كان النبي ﷺ في منتهى القمة في الإيمان بالحق والشجاعة في إزهاق الباطل .

وتظهر عظمة النبي ﷺ في التمثيل لإزهاق الباطل والقضاء على مبادئ الجاهلية بتطبيق ذلك على بعض أقاربه ، حيث أعلن وضع دم ابن عمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ووضع ربا عمه العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه ، فهو بهذا يعلن لعموم الناس أن أقاربه هم أول من تُطبَّق عليهم أحكام الإسلام ، وذلك أدعى لقبول هذه الأحكام والتسليم بها .

* * *

(٤) الفتح الرباني ٢١ / ٢٧٩ - ٢٨٠ .

١١ - مواقف إسلامية لم يُحدَّد تاريخها -

١ - مثل من حياة الأمن في الإسلام -

١ - أخرج الإمام البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كنّا في سفر مع النبي ﷺ ، وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المُسافر منها ، فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس ، وكان أول من استيقظ فلان ثم فلان ثم فلان - يُسميهم أبو رجاء فنسى عوفٌ - ثم عمر بن الخطاب الرابعُ ، وكان النبي ﷺ إذا نام لم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ لأنا لاندري مايحدث له في نومه . فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس - وكان رجلا جليداً [١] - فكبَّر ورفع صوته بالتكبير ، فمازال يُكبِّرُ ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبي ﷺ ، فلما استيقظ شكَوْا إليه الذي أصابهم ، قال : لاضير - أو لايضيرُ - ارتحلوا . فارتحل ، فسار غير بعيد ، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ، ونُودي بالصلاة فصلى بالناس ، فلما انفتل من صلاته إذا هُو برجل مُعتزل لم يُصل مع القوم ، قال : مامنعك يافلان أن تُصلي مع القوم ؟ قال : أصابتني جنابةٌ ولاماء . قال : عليك بالصعيد . فإنه يكفيك .

ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناسُ من العطش ، فنزل فدعا فُلانا - كان يسميه أبو رجاء نسيهُ عوفٌ [٢] - ودعا عليًا فقال : اذهبا فابتغيا الماء ،

---

(١) أي صلبا قويا ، وفي رواية لمسلم « وكان أجوف جليدا » والأجوف رفيع الصوت كأن صوته يخرج من جوفه .

(٢) في رواية لمسلم أنه عمران بن حصين كما ذكر الحافظ ابن حجر (الفتح ١/ ٤٥١ - ٤٥٢) .

فانطلقا فتلقَّيا امرأة بين مزادتين [١]- أو سطيحتين - من ماء عَلَى بعير لها فقالا ، لها : أين الماء ؟قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونَفُرنا خلوف[٢] .

قالا لها : انطلقي إذًا . قالت : إلى أين ؟ قالا إلى رسول الله ﷺ . قالت : الذي يُقال له الصابيء . قالا : هو الذي تعنين فانطلقي . فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاهُ الحديث .

قال : فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين - أو السَّطيحتين - وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي[٣] ونُودي في الناس : اسقوا واستقوا . فسقى من شاء واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال : اذهب فأفرغه عليك . وهي قائمة تنظرُ إلى ما يفعل بمائها . وايمُ الله لقد أقلع عنها وإنه ليُخيل إلينا أنها أشدُّ ملأة منها حين ابتدأ فيها .

فقال النبي ﷺ : اجمعوا لها . فجمعوا لها - من بين عجوة ودقيقة وسويقة - حتى جمعوا لها طعامًا ، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : تعلمين مارَزِئْنا [٤]من مائك شيئًا ، ولكن الله هو الذي أسقانا .

فأتت أهلها وقد احتبست عنهم . قالوا : ماحبسك يافلانة ؟ قالت :

---

(١) المزادة قربة كبيرة يزاد فيها جلد من غيرها ، وتسمى سطيحة .

(٢) أي قومنا قد تخلفوا لطلب الماء .

(٣) جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة .

(٤) أي ما نقصْنا .

العَجَبُ، لقيني رجُلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا ، فو الله إنه لأسحرُ الناس من بين هذه وهذه - وقالت بإصبعيها والوُسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض- أو إنه لرسولُ الله حقًا . فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين ولايُصيبون الصِّرم [١] الذي هي منه . فقالت يومًا لقومها : ما أرى ؟ إنَّ هؤلاء القوم يدعونكم عَمداً [٢] ، فهل لكم في الإسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا في الإسلام .

قال أبو عبد الله : صبأ خَرَجَ من دين إلى غيره .

وقال أبو العالية : الصابئين - وفي نسخة الصابئون - فرقةٌ من أهل الكتاب يقرءون الزَّبور [٣] .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وذكر نحوه [٤] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : فيه مثل من أدب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ حيث كانوا يلزمون الصمت والهدوء إذا كان نائمًا حتى لايوقظوه ، ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل هذا الشعور إلا أنه رأى ضرورة

---

(١) الصِّرْم الأبيات المجتمعة .

(٢) يعني : ما الذي أراه في أمر هؤلاء المسلمين ؟ إنهم يتركون قتالكم عمداً .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، رقم ٣٤٤ ، وبيان ألفاظ الحديث مستفاد من شرح الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١/ ٤٤٨ - ٤٥٤) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب قضاء الفائتة (شرح النووي ٥/ ١٨٩-١٩٢) .

تنبيهه ﷺ للصلاة ، فكان التكبير أفضل وسيلة لإيقاظ النبي ﷺ مع الحفاظ على لزوم الأدب معه .

ثانيًا : فيه مثل من حياة الأمن الكامل والطمأنينة التامة عند المسلمين لغير الأعداء المحاربين ، فالمرأة المذكورة في الخبر قد واجهت جيشًا كبيراً فظلت في حمايتهم وأمانهم ، بل نالت من رفدهم وعطائهم مع أنهم لم ينقصوها شيئًا من مائها ، وإذا كان الأعداء يعيشون بهذه الحياة الآمنة في وسط المسلمين فكيف بالأمن لأفراد المسلمين أنفسهم ؟ !

ثالثًا : في هذا الخبر مثل مما يتصف به المسلمون من خُلق الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ولو بعد عهد طويل ، فهذه المرأة بسبب فضلها عليهم بذلك الماء ظل قومها آمنين في بلادهم من غزو المسلمين الذين كانوا يغيرون على من حولهم ، ولقد قادهم هذا الخلق النبيل من المسلمين إلى الدخول في الإسلام استجابة لدعوة تلك المرأة التي ذكَّرتهم بفضل المسلمين عليهم .

رابعًا : يشتمل هذا الخبر على بيان معجزة عظيمة للنبي ﷺ حيث نزلت البركة في ذلك الماء القليل حتى كفى جميع أفراد ذلك الجيش .

* * *

٢ – بيان النبي ﷺ لعدالة الإسلام –

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت رسول الله ﷺ مرَّ بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي ، فمرَّ وعليه حلة حمراء ، فسمعته يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه ، وهو يقول : ياأيها الناس لاتطيعوا هذا فإنه كذاب ، فقلت : من هذا؟ فقيل غلام من بني عبد المطلب .

فلما أظهر الله تعالى الإسلام خرجنا من الرَّبَذَة ومعنا ضعينة لنا[١] حتى نزلنا قريبا من المدينة ، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان فسلم علينا فقال : من أين القوم ؟ فقلنا : من الربذة ، ومعنا جمل أحمر فقال : تبيعوني هذا الجمل ؟ فقلنا : نعم ، فقال : بكَمْ؟ فقلنا : بكذا وكذا صاعًا من تمر ، قال : أخذته وما استقْصَى [٢] فأخذ يخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة ، فقال بعضنا لبعض : تعرفون الرجل؟ فلم يكن منا أحد يعرفه فلام القوم بعضهم بعضا فقالوا : تعطون جملكم من لاتعرفون ! فقالت الضعينة : فلا تلاوموا فقد رأينا وجه رجل لايغدر بكم ، ما رأيت شيئًا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه .

فلما كان العشيّ أتانا رجل فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أنتم الذين جئتم من الربذة ؟ قلنا : نعم ، قال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم ، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا

---

(١) أي امرأة .

(٢) أي لم يطلب تخفيض الثمن .

وتكتالوا حتى تستوفوا ، فأكلنا من التمر حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا ، ثم قدمنا المدينة من الغد فإذا رسول الله ﷺ قائم يخطب الناس على المنبر ، فسمعته يقول : يد المعطي العليا ، وابدأ بمن تعول ، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك ، وثَمَّ[1] رجل من الأنصار فقال : يارسول الله هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانا في الجاهلية ، فخذ لنا بثأرنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه فقال : لاتجني أمٌّ على ولد ، لاتجني أم على ولد .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[2] .

ففي هذا الخبر يبين رسول الله ﷺ عدالة الإسلام في رفع الظلم والمنع من الاعتداء على الأبرياء ، وإقرار حياة الأمن ، وعدم أخذ الإنسان بذنب غيره ، فقد طلب ذلك الرجل الأنصاري من رسول الله ﷺ أن يمكِّن الأنصار من أخذ ثأرهم من قبيلة بني ثعلبة ، فلم يجبه إلى ذلك ، وبين له أن الأبرياء لايؤخذون بجريرة المعتدين .

وقوله ﷺ « لاتجني أم على ولد » تشبيه للقبيلة بالأم ، أي أن ماكان من فرد من أفراد القبيلة من الاعتداء يكون مسئولا عنه وحده ، ولاتسري الجريمة على جميع أفراد القبيلة .

وكان العرب في الجاهلية يأخذون بثأرهم من أي فرد من أفراد القبيلة المعتدية ، فكانوا لذلك يعيشون في رعب دائم فيما إذا اعتدى منهم أحد ،

---

(١) أي وكان في ذلك المكان .

(٢) المستدرك ٢/ ٦١١ - ٦١٢ .

فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة الجاهلية الجائرة ، وأبدلها بالقصاص العادل ، حيث يؤخذ كل إنسان بذنبه ويعيش الأبرياء بطمأنينة وأمان .

* * *

٣ - موقفان لِجُلَيْبيب وامرأته -

أخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه : أن جُلَيبيبًا كان من الأنصار ، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا كان لأحدهم أيِّم لم يزوجها حتى يعلم أللنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ، فقال : نعم ونعمة عين ، فقال : إني لست لنفسي أريدها ، قال : فلمن ؟ قال : لجليبيب ، قال : حتى أستأمر أمها ، فأتاها فقال : إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، قالت : نَعَمْ ونعْمة عين ، زوج رسول الله ﷺ ، قال : إنه ليس يريدها لنفسه ، قالت : فلمن ؟ قال : لجليبيب ، قالت : حلقَى ، أجليبيب ؟! - مرتين - لا لعمر الله لا أزوج جليبيبا .

قال : فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ قالت الفتاة لأمها من خدرها : من خطبني إليكما ؟ قالت : النبي ﷺ ، قالت : فتردون على النبي ﷺ أمره !! إدفعوني إلى النبي ﷺ فإنه لايضيعني ، فأتى أبوها النبي ﷺ فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيبا .

فبينما النبي ﷺ في مغزًى له وأفاء الله تبارك وتعالى عليه فقال رسول الله ﷺ : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا فقال النبي ﷺ : لكني أفقد جليبيبا فانظروه في القتلى ، فنظروه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، قال : فوقف ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتلوه ! هذا مني وأنا منه ، ثم حمله رسول الله ﷺ على ساعديه ماله سرير غير ساعدي رسول الله ﷺ حتى حفر له ، ثم وضعه في لحده وماذكر غسلا(١) .

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٤٢٥ .

وأخرج الإمام مسلم آخر الخبر المتعلق بالغزو (١) .

وقال الحافظ ابن حجر : جليبيب غير منسوب ، وذكر هذا الخبر(٢) .

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ حيث كان لا ينسى أصحابه رضي الله عنهم حتى المغمورين منهم الذين لايُؤْبَه بهم إذا حضروا ولايُفقَدون إذا غابوا ، فقد سأل ﷺ عمَّن استشهد من أصحابه وكان في باله « جليبيب » رضي الله عنه ، فلما لم يذكره أصحابه لعدم شهرته فيهم ذكره لهم وكلفهم بالبحث عنه ، فلما رأى آثار بذله طاقته وتضحيته بنفسه في سبيل الله تعالى أثنى عليه بذلك الثناء العظيم ، حيث حكم له بالاستقامة التامة على منهجه وأعلن الرضى عنه .

أما جليبيب فإن هذا الخبر يدل على شجاعته واستبساله في الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

أما زوجته فإن هذا الخبر يدل على تقواها وصلاحها حيث آثرت رضي النبي ﷺ واختياره ، ولم تلتفت إلى مابينها وبين جليبيب من فارق النسب ، بل رضيت بما رضي لها رسول الله ﷺ من كفاءة الدين .

* * *

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢٤٧٢ ، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٩١٨) .

(٢) الإصابة رقم ١١٧٩ (١/ ٢٤٤) .

١٢ – موقف في الثبات والتضحية
(خبر حبيب بن زيد الأنصاري)

ذكر المؤرخ ابن الأثير في ترجمته أن رسول الله ﷺ أرسله إلى مسليمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة ، فكان مسيلمة إذا قال : أَتَشْهَد أن محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم ، وإذا قال له : أتشهد أني رسول الله؟ قال : أنا أصم لا أسمع ، ففعل ذلك مرارًا ، فقطَّعه مسيلمة عضوا عضوا ، فمات شهيدًا رضي الله عنه (١) .

فهذا مثل عال في الثبات على الشدائد والتضحية بالنفس في سبيل الله تعالى .

ولقد كان مسيلمة عنيفًا جبارًا شاذا في سلوكه ، حيث خالف جميع القوانين والأعراف السياسية المعروفة عند الدُّول والقبائل ، منْ أنَّ الرسل لاتُقتل ، وإمعانا منه في الجبروت والطغيان فإنه قطَّع جسد حبيب عضوا عضوا ليحصل منه على الاعتراف بنبوته ولو بهذه الطريقة العنيفة الشاذة ، ولكن آماله تحطمت أمام ثبات حبيب الراسخ على دينه ، واستهانته البالغة بما دعاه إليه مسيلمة الكذاب .

* * *

(١) أسد الغابة ١/ ٣٧٠ ، وقد ذكر أن حبيب بن زيد من بني مازن بن النجار من الخزرج رضي الله عنه .

١٣ - مواقف دعوية في إسلام أهل اليمن -

كانت ولاية اليمن في عهد النبي ﷺ للأبناء وهم أبناء الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذي يزن على أمراء الحبشة الذين سيطروا على اليمن، وكان عامل كسرى على اليمن آنذاك « باذام » ، ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وذكر أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، وأن كسرى مزَّق الكتاب وكتب إلى « باذام » : أما بعد فإذا جاءك كتابي فابعث من قبَلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب الذي يزعم أنه نبي، فابعثه إليَّ في جامعة[1] ، فلما جاء الكتاب إلى باذام بعث من عنده أميرين عاقلين وقال : اذهبا إلى هذا الرجل فانظروا ماهو، فإن كان كاذبا فخذاه في جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى ، وإن كان غير ذلك فارجعا إليّ فأخبراني ماهو ، حتى أنظر في أمره ، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فوجداه على أسدِّ الأحوال وأرشدها[2]، ورأيا منه أمورًا عجيبة، يطول ذكرها ، ومكثا عنده شهرًا حتى بلَّغا ما جاءا له، ثم تقاضياه الجواب بعد ذلك ، فقال لهما : ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربِّي قد قتل الليلةَ ربَّه ، فأرَّخا ذلك عندهما ثم رجعا سريعًا إلى اليمن فأخبرا باذام بما قال لهما فقال : أَحْصُوا تلك الليلة ، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبي ، فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قُتل كسرى في ليلة كذا وكذا ، لتلك الليلة .

وقام بالملك بعده ولده يزدجرد وكتب إلى باذام : أنْ خذ لي البيعة

---

(١) أي في قيد .

(٢) أسدّ الأحوال : من السداد وهو الرأي المصيب والحال الحسن .

من قبَلك ، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تهنه وأكرمه ، فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها ، فلم يعزله عنها حتى مات ، فلما مات استناب ابنه شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف [1] ، وبعث طائفة من أصحابه نوابًا على مخاليف أخر ، فبعث أولاً في سنة عشر ، عليًا وخالدًا ، ثم أرسل معاذًا وأبا موسى الأشعري وفرق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة ، وبعث معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين - اليمن وحضْرَمَوت - يتنقل من بلد إلى بلد . قال : ذكره سيف بن عمر ، وذلك كله في سنة عشر ، آخر حياة رسول الله ﷺ [2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : ماكان من عامل كسرى على اليمن « باذام الديلمي » من الإسراع إلى الدخول في الإسلام لما تبين له أنه دين الحق بدون أن يدخل مع المسلمين في حرب ولاتعرض لتهديد بذلك ، وهذا يدل على تجرده من هوى النفس المنحرف ، ولقد كان إسلامه سببًا في اتجاه كثير من أهل اليمن إلى الإسلام .

ثانيًا : في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وذلك في إخبار النبي ﷺ الرجلين المبعوثين من باذام بأن الله تعالى قد أهلك كسرى تلك الليلة ، فكان الأمر كما أخبر به ، وهذه معجزة بالغة ، وبسببها كان إسلام أمير اليمن باذام .

---

(١) أي بعض الأقاليم .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣١٠ - ٣١١ .

ثالثًا : مواقف للصحابة رضي الله عنهم في نشر الإسلام في اليمن، ومنهم علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري ، وقد كان لمعاذ أثر كبير في الدعوة والتعليم والتربية حيث لم يبق في مكان واحد وإنما كان يتنقل بين أقاليم اليمن وحضرموت .

* * *

١٤ – مواقف فدائية –
(القضاء على الأسود العنسي)

في أواخر حياة النبي ﷺ خرج عبهلة بن كعب المعروف بالأسود العنسي في اليمن وادَّعى النبوة ، وكان مخرجه من بلدة « كهف حنان» في سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبي ﷺ : أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ماجمعتم فنحن أولى به ، ثم توجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال ، ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام (١) فتقاتلا فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه .

وخرج معاذ بن جبل ومرَّ بأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فذهبا إلى حضْرَمَوت ، وانحاز عمال النبي ﷺ إلى الطاهر بن أبي هالة ، ورجع عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة ، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي (٢) .

وقد أخرج الإمام ابن جرير الطبري بإسناده عن جُشَيش بن الديلمي قال : قدم علينا وَبَرُ بن يُحَنّس بكتاب النبي ﷺ ، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا ، والنهوض في الحرب ، والعمل في الأسْوَد : إمّا غيلة وإما مصادمة ، وأن نبلِّغ عنه من رأينا أن عنده نجدة ودينًا . فعملنا في ذلك ، فرأينا أمرًا كثيفًا ، ورأيناه في تغير لقيس بن عبد يغوث – وكان على جنده– فقلنا : يخاف على دمه ، فهو لأول دعوة ، فدعوناه وأنبأناه

---

(١) هو أحد عمال النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣١٢ .

الشأنَ ، وأبلغناه عن النبي ﷺ ، فكأنما وقعنا عليه من السماء ، وكان في غمّ وضيق بأمره ، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك . وجاءنا وبر بن يحنّس ، وكاتبْنا الناس ودعوناهم ، وأخبره الشيطان بشيء [1]، فأرسل إلى قيس وقال : ياقيس ، مايقول هذا ؟ قال : ومايقول ؟ قال : يقول : عَمدت إلى قيس فأكرمته ، حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك وأضمر على الغدر ! إنه يقول : يا أسود يا أسود ! ياسوءة ياسوءة ! اقطف قُنَّتَه ، وخذ من قيس أعلاه ، وإلا سلبك أو قطف قُنَّتَك . فقال قيس - وحلف به - : كذب وذي الخمار[2] ، لأنت أعظمُ في نفسي وأجلُّ عندي من أن أحدِّث بك نفسي ، فقال : ما أجفاك ! أتكذب المَلَك ! قد صدق الملك ، وعرفت الآن أنك تائبٌ مما اطلع عليه منك .

ثم خرج فأتانا ، فقال : ياجُشيش ، ويافَيروز ، ويادادويه ، إنه قد قال وقلت ، فما الرأيُ ؟ فقلنا : نحن على حذر ، فإنا في ذلك ، إذ أرسل إلينا ، فقال : ألم أشرِّفكم على قومكم . ألم يبلغني عنكم! فقلنا : أقلْنا مرَّتنا هذه ، فقال : لايبلغني عنكم فأقتلكم ، فنجونا ولم نكَدْ ، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس ، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم ، إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهر وذي زود وذي مُران وذي الكلاع وذي ظُليم عليه ، وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصر ، وكاتبناهم وأمرناهم ألا يحركوا شيئًا حتى نُبرم الأمر - وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبي ﷺ ، وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكني

---

(١) أي أخبر الأسود شيطانه وكان معه شيطان من الجن .

(٢) هذا لقب الأسود العنسي .

الأرض من غير العرب ، فثبتوا فتنحَّوا وانضموا إلى مكان واحد - وبلغه ذلك [1] ، وأحس بالهلاك .

وفَرَقَ لنا الرأيُ[2] . فدخلتُ على آذاد ، وهي امرأته، فقلت : ياابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قَتَل زوجك ، وطأطأ في قومك القتل[3] ، وسفل بمن بقي منهم ، وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ! فقالت : على أي أمره ؟ قلت : إخراجه، قالت : أو قتله ، قلت : أو قتله ، قالت : نعم والله ما خَلَق الله شخصًا أبغض إليَّ منه ، مايقوم لله على حق ، ولاينتهي له عن حُرمة ، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتَى هذا الأمر . فأخرجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني ، وجاء قيس ونحن نريد أن نناهضه ، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا : المَلك يدعوك . فدخل في عشرة من مَذْحج وهَمْدان . فلم يقدر على قتله معهم .

إلى أن قال : فأرسلنا إلى قيس ، فجاءنا ، فأجمع ملؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر ، فأتيتُ المرأة وقلت : ماعندك؟ فقالت : هو متحرِّز متحرِّس ، وليس من القَصْر شيء إلا والحرسُ محيطون به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه ، فإنكم من دون الحرس ، وليس دون قتله شيء . وقالت : إنكم ستجدون فيه سراجًا وسلاحًا . فخرجتُ فتلقاني الأسود خارجًا من بعض منازله ، فقال لي . ما أدخلك عليّ؟

(١) أي بلغ الأسود العنسي .

(٢) أي ظهو واتضح .

(٣) أي أسرع فيهم بالقتل .

ووجأ رأسي حتى سقطتُ - وكان شديدًا - وصاحت المرأة فأدهشته عنّي، ولولا ذلك لقتلني . وقالت : ابن عمتي جاءني زائرًا ، فقصَّرْتَ بي! فقال : اسكتي لا أبالك . فقد وهبته لك ! فتزايلتْ عني .

فأتيت أصحابي فقلت : النَّجاء ! الهرب ! وأخبرتهم الخبر ، فإنا على ذلك حَيَارى إذ جاءني رسولُها : لاتَدَعَنَّ ما فارقْتُكَ عليه، فإني لم أزلْ به حتى اطمأنّ ، فقلنا لفيروز : ائتها فتثبتْ منها ، فأما أنا فلا سبيل لي إلى الدخول بعد النَّهْي . ففعل ، وإذا هو كان أفطن مني ، فلما أخبرتُه قال [(١)] : وكيف ينبغي لنا أن ننقُب على بيوت مبطنة ! ينبغي لنا أن نقلع بطانة البيت ، فدخلا فاقتلعا البطانة ، ثم أغلقاه ، وجلس عندها كالزائر ، فدخل عليها الأسود فاستخفَّتْه غَيْرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ، فصاح به وأخرجه .

وجاءنا بالخبر ، فلما أمسينا عملنا في أمرنا ، وقد واطأنا أشياعُنا ، وعجلنا عن مراسلة الهمدانيّين والحميَريِّين ، فنقبنا البيت من خارج ، ثم دخلنا وفيه سراج تحت جفنة ، واتقينا بفيروز - وكان أنجدنا وأشدنا - فقلنا - انظر ماذا ترى ! فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورة ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطًا شديدًا ، وإذا المرأة جالسة ، فلما قام على الباب أجلسه الشَّيْطان فكلّمه على لسانه ، وإنه ليغُطّ جالسًا . وقال أيضًا : مالي ولك يافيروز ! فخشيَ إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة ، فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله ، فدقّ عنقه ، ووضع ركبته في ظهره فدقه ، ثم قام ليخرج ، فأخذت المرأة بثوبه وهي

(١) جاء في تاريخ الطبري « قالت » وهو غير منسجم مع سياق الكلام والصواب قال كما جاء في الكامل لابن الأثير - ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠ - .

ترى أنه لم يقتله ، فقالت : أين تَدعُني ! قال : أخبر أصحابي بمقتله ، فأتانا فقمنا معه ، فأردنا حز رأسه ، فحركه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه ، فقلت : اجلسوا عَلَى صدره ، فجلس اثنان على صدره ، وأخذت المرأة بشعره ، وسمعنا بربرة [1] فألجمتُه بمثلاة [2] ، وأُمرَّ الشَّفْرة على حلْقه فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة فقالوا : ماهذا ، ماهذا ! فقالت المرأة : النبيّ يوحَى إليه ! فخمد .

ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبرُ أشياعنا ، ليس غيرنا ثلاثتنا ، فيروز وداذويه وقيس [3] ، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا وبين أشياعنا ، ثم يُنادى بالأذان ، فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار ، ففزع المسلمون والكافرون ، وتجمع الحرس فأحاطوا بنا ، ثم ناديت بالأذان ، وتوافت خيولُهم إلى الحرس ، فناديتهم : أشهدُ أنّ محمداً رسول الله ، وأن عَبْهلة كذاب ! وألقينا إليهم رأسه ، فأقام وَبَر الصلاة[4] ، وشنّها القوم غارةً ، ونادينا : يا أهل صنعاء ، من دخل عليه داخل فتعلقوا به ، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به . ونادينا بمن في الطريق : تعلّقوا بمن استطعتم ! فاختطفوا صبيانًا كثيرين ، وانتهبوا ما انتهبوا ، ثم مضوا خارجين ، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا ، وإذا أهل الدور والطرُق وقد وافونا بهم ، وفقدنا سبعمائة عَيِّل

---

(١) البربرة : الصياح .

(٢) المثلاة : الخرقة التي تمسكها المرأة عند النوح تشير بها .

(٣) يعني إضافة إلى راوي الخبر جشيش الديلمي .

(٤) يعني وَبَر بن يَحَنَّس الأزدي الذي قدم بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم .

فراسلونا وراسلناهم أن يتركُوا لنا ما في أيديهم ، ونترك لهم مافي أيدينا ، ففعلوا فخرجوا لم يظفرُوا منّا بشيء ، فتردَّدوا فيما بين صنعاء ونجران ، وخلصت صنعاء والجَنَد ، وأعزّ الله الإسلام وأهله ، وتنافسنا الإمارة ، وتراجع أصحابُ النبي ﷺ إلى أعمالهم ، فاصطلحنا على معاذ بن جبل ، فكان يصلي بنا ، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، وذلك في حياة النبي ﷺ . فأتاه الخبر من ليلته ، وقدمت رُسُلنا ، وقد مات النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة ، فأجابنا أبو بكر رحمه الله .

وأخرج الإمام الطبري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : أتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها العَنْسيُّ ليبشّرنا ، فقال : قُتل العنسيّ البارحةَ ، قتله رجلٌ مباركٌ من أهل بيت مباركين ، قيل : ومن هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز !

وأخرج أيضًا من حديث فيروز الديلمي قال : قتلْنا الأسود ، وعاد أمرنا كما كان ، إلا أنا أرسلْنا إلى مُعاذ ، فتراضينا عليه ، فكان يصلّي بنا في صنعاء ، فو الله ما صلَّى بنا إلا ثلاثة ونحن راجون مؤمّلون ، لم يبق شيء نكرهه إلا ما كان من تلك الخيول التي تردَّد بيننا وبين نجران ، حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ ، فانتقضت الأمور ، وأنكرنا كثيراً مما كنّا نعرف ، واضطربت الأرض (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : ماجرى من هؤلاء الذين استجابوا لدعوة النبي ﷺ في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٣١ - ٢٣٦ ، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام الطبري - البداية والنهاية ٦/ ٣١٢ - ٣١٤ - .

محاربة الأسود العنسي والقضاء عليه مع خطورة هذا الأمر ، ومنهم جُشَيش وفيروز وداذويه وآذاد امرأة شهر بن باذام ، وهم من أبناء الفرس، وقيس بن عبد يغوث الذي كان قائد جند الأسود العنسي ، وأهل نجران الذين ثبتوا واجتمعوا استعداداً لحرب الأسود العنسي .

وقد تبين من الخبر التخطيط المحكم الذي دبره فيروز الديلمي ومن معه لقتل الأسود ، ويظهر في هذا العمل شجاعة فيروز وجسارته حيث أقدم على قتل رجل يحرسه شيطانه ، وقد حاز بذلك على ثناء النبي ﷺ عليه ، كما يبرز دور آذاد امرأة شهر حيث شجعت على هذا الأمر ودبرت الخطة لدخول فيروز وأصحابه .

ثانياً : في هذا الخبر عبرة جليلة وذلك بوصول خبر مقتل الأسود العنسي إلى رسول الله ﷺ ليلة مقتله عن طريق الوحي ، وهذه معجزة له ﷺ حصل بها اطمئنانه على زوال فتنة ذلك المتنبئ الكذاب قبل أن يفارق الحياة .

ثالثاً : دور معاذ بن جبل رضي الله عنه الكبير في جمع الشمل والإصلاح بين الإخوة الذين تنافسوا على الإمارة حيث وجدوا أنه أصلح رجل لتولي أمر المسلمين في اليمن ، لكونه صحابياً ولما يتمتع به من العلم الراسخ والعقل الوافر والرأي السديد والخلق الحسن، وبهذا دفع الله به ما يحتمل أن يكون من فتنة بين زعماء المسلمين في اليمن .

* * *

تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع

وهو الجزء الأول من عهد الخلفاء الراشدين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/ فاكس ٠ ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩